المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
قسم العقيدة
قسم الدراسات العليا

تقرير توحيد العبادة من خلال أقوال المالكية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة

إعداد الطالب
عبد الله بن فهد بن عبد الرحمن العرفج

إشراف
أ.د. محمد بن حسان كسبه

الجزء الأول

١٤٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبد الهادي [illegible] عبد الرحمن [illegible] كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((تقرير توحيد العبادة من خلال أقوال المالكية))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ / / ١٤هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمد [illegible]	الاسم : د. عبد الله الرميحي	الاسم : د/ صالح سعد السحيمي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. عبد العزيز الحميدي

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده ، وبعد :

فقد تضمّن هذا البحث « جهود بعض أئمة المالكية في تقرير توحيد العبادة » من خلال النقاط الآتية :

أولاً : بيان أن التوحيد في الشرع هو « لا إله إلاّ الله » ، وبيان معناها ، وهو استحقاق العبادة لله وحده دون ما سواه .

ثانيًا : ذكر الشروط اللازمة لمن نطق بكلمة التوحيد .

ثالثًا : أنّ هذا التوحيد هو أول واجب على المكلَّف ، فهو أول ما بدأ به الرُّسل دعوتهم لأقوامهم.

رابعًا : أن من أثبت الربوبية لله تعالى – وهذا الذي يكاد يُطبق عليه غالب البشر – لزمه أن يفرد الله تعالى بالعبادة .

خامسًا : بيان أن العبادة تشمل سائر القُرب الظاهرة والباطنة ، من قول أو فعل أو ترك ، وبذكر أنواعها يتضح معنى العبادة ، كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والصبر والتوبة وكذا الذكر والدعاء والذبح والطواف والنذر ، وغيرها من العبادات المستحَقّة لله تعالى وحده دون سواه .

سادسًا : بيان شرطي قبول العبادة ، من إخلاصها لله تعالى ، وأن تكون على وَفق شرعه .

سابعًا : بيان ما يناقض أصل التوحيد – وهو الشرك في عبادة الله تعالى – ، وأنّ أول وقوعه في الأرض كان في قوم نوح – عليه السلام – ، وسببه الغلوّ وطلب الشفاعة من أولئك الذين غلوا فيهم ، وهو ما أوقعهم في عبادة غير الله تعالى .

ثامنًا : بيان أقسام الشرك الأكبر والأصغر المنافي للتوحيد والمنافي لكماله ، من شرك الدعاء ، وشرك الطاعة ، وشرك الذبح ، وشرك السجود ، وشرك الطواف ، وشرك الرقى والتمائم، والسحر المتضمن صرف العبادة إلى الشياطين أو الكواكب ، وكذا الحلف بغير الله ، والتسمي بملك الملوك ، والتعبيد لغير الله ، والطيرة ، وسبّ الدهر ، وبعض من صور التبرُّك الممنوع .

Thanks to Allah only , and peace be upon our prophet Mohammed .. and ...

This research included "the efforts of some Muslim Scholars in determining " through the following points :

First : Explanation of Monotheism in Islam law is (There is no god but Allah) and explaining it's meaning , which means that worship shall only be to Allah

Second : Stating required conditions for the one who pronounced the word of monotheism

Third : that monotheism is first duty of the assigned to , it is the first by which messengers started their call to their people

Fourth : that who proved the oneness of Allah (Exalted be He) – which most people agree on it – has to perform the worship only to Allah (Exalted be He)

Fifth : Explanation that worship includes all visible and invisible approaches such as saying , deed or abandonment , and by mentioning all types the meaning of worship can be clear ex. Love , fear , hope , reliance , patience and repentance as well as remembrance of Allah , supplication , slaughter , circumambulation and a vow , and other religious observances due to Allah alone .

Sixth : explanation of the two worship acceptance conditions such as devotion to Allan , and according to his law .

Seventh : Explanation of the contradiction of monotheism origin – which is polytheism in the worship of Allah (Exalted be He) , and this first time occurred in earth was in the people of Noah – peace be upon him – and it cause was excessiveness and asking intercession from others than Allah , which led them to fall in worship of others than Allah .

Eighth : Explanation of the division of small and great polytheism which contradicts monotheism , such a supplication monotheism , obeisance monotheism , slaughter monotheism , prostration monotheism , circumambulation monotheism , amulets monotheism , and magic which states that worship shall all be to devils or stars , and also swear by others than Allah , and naming with the king of the kings , pessimism , and inveigh against time , and some sorts of prohibited blessings .

مقدمة

إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾(١) .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبًا ﴾(٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾(٣) .

أما بعد :

فإن توحيد العبادة هوالذي بعث الله من أجله الرسل وأنزل الكتب ، وشرعت الشرائع ، وقامت سوق الجهاد ، والجنة والنار .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾(٤) .

وحيث كان بتلك المنـــزلة ؛ فقد رغبت أن يكون موضوع الدكتوراه مرتبطًا

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٠-٧١ .

(٤) سورة الأنبياء : ٢٥ .

به ، سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه البدع والخرافات بين المسلمين ، وأشاح الشرك بوجهه القبيح على بعض العبادات ، فصرفت لغير الله تعالى ، وكل ذلك بسبب التفريط في هذا الركن الرّكين ، والأس المتين : توحيده تعالى بالعبادة ، وإسلام الوجه له تعالى دون أحد سواه .

أسباب اختيار الموضوع :

أولاً : أهمية المذهب المالكي ، وانتشاره في الآفاق ، ففي الموضوع دعوة لمن زل في أمر توحيد العبادة من المنتسبين للمذهب خاصة وللمسلمين عامة .

ثانيًا : ربط كثير من الناس توحيد العبادة بعلماء مذهب دون سواه ، وهذا سوء فهم للموضوع من جهة ، وهضم من جهة أخرى لجهود العلماء الآخرين الذين أبلوا بلاءً حسنًا في بيانه ، وأدوا الأمانة في إبلاغه . ولذا قال الميلي – بعد أن ذكر جهود بعض الأئمة في الدعوة إلى التوحيد : « وليست الدعوة إلى التوحيد بمذهب خاص ، ولكنه دين الله العام »[1] .

ثالثًا : إبراز الجهد الكبير لعلماء المالكية – كغيرهم من علماء الأمة – في عنايتهم بتوحيد العبادة الذي جاءت به الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . والعلماء ورثة الأنبياء في ذلك .

رابعًا : الانحراف الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ – ولا يزال – إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة ، كما قال تعالى – عن قوم نوح – : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودًّا ولا سُواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا ﴾[2] .

فناسب طرق هذا الموضوع ومعالجته على ضوء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة .

---

(١) رسالة الشرك (٥٧) .

(٢) سورة نوح : ٢٣ .

خطة البحث

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

➢ **المقدمة** ، وتتكون من :

* بيان أهمية الموضوع .

* أسباب اختيار الموضوع .

* خطة البحث .

* منهج البحث .

➢ **التمهيد** ، وهو في نشأة المذهب المالكي .

➢ **الباب الأول** : التوحيد ، وفيه فصلان :

* **الفصل الأول** : معنى التوحيد ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : التوحيد في اللغة والشرع .

المبحث الثاني : معنى " لا إله إلاّ الله " .

المبحث الثالث : شروط " لا إله إلاّ الله " .

المبحث الرابع : التوحيد أول دعوة الرسل .

* **الفصل الثاني** : توحيد المعرفة ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

المبحث الثاني : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

➢ **الباب الثاني** : العبادة ، وفيه فصلان :

* **الفصل الأول** : تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا .

* **الفصل الثاني** : أنواع الشرك . وفيه تمهيد ومبحثان :

تمهيد .

المبحث الأول : الشرك المنافي للتوحيد . وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : شرك الدعاء .

المسألة الثانية : شرك الطاعة .

المسألة الثالثة : شرك الذبح .

المسألة الرابعة : شرك السجود .

المسألة الخامسة : شرك الطواف .

المسألة السادسة : شرك النذر .

المسألة السابعة : شرك السحر .

المسألة الثامنة : شرك الرقى والتمائم .

المبحث الثاني : الشرك المنافي لكمال التوحيد . وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : الحلف بغير الله .

المسألة الثانية : التعبيد لغير الله .

المسألة الثالثة : التسمي بملك الملوك .

المسألة الرابعة : الطيرة .

المسألة الخامسة : التبرك الممنوع .

المسألة السادسة : سب الدهر .

➢ **الخاتمة** : وفيها عرض أهم النتائج .

➢ **الفهارس** .

منهج البحث

المنهج الذي سرتُ عليه في إعداد هذا البحث كالآتي :

أولاً : قمتُ بقراءة كتب المالكية بدءاً بكتب التفاسير وشروح الأحاديث وكتب الفقه والأصول والطبقات والتراجم فيما هو من مظان البحث ، واستخرجت منها ما يخص توحيد العبادة .

ثانيًا : أورد المسائل من غير توسّع في تقريرها ، إلا ما تدعو الحاجة الملحة إليه ؛ لأن المراد هو جمع جهود المالكية فقط دون من سواهم ، إذ لا يراد به التأليف العام في توحيد العبادة .

ثالثًا : ذكرتُ في المقام الأول كلام الإمام مالك رحمه الله في الغالب ، إذ هو إمام المذهب المعتبر عندهم ، واعتنيتُ بنقل كل ما أثر عنه فيما يخص الموضوع .

رابعًا : نقلتُ الأقوال السليمة المأثورة عن علماء المالكية ؛ لأن المقصود إبراز جهود علماء المالكية الصحيحة التي تدخل ضمن البحث ، ولأن الحق يؤخذ ممن جاء به ويقبل ، ولكي يتوسع في دائرة النقل عن علماء المالكية .

خامسًا : نبهتُ على الأقوال التي رأيت أن فيها ملحظًا أو مخالفةً في الحاشية مراعيًا الآداب الشرعية في ذلك .

سادسًا : عزوتُ الآيات القرآنية إلى مواضعها في القرآن .

سابعًا : خرّجتُ الأحاديث النبوية الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة ، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيتُ بهما في التخريج ، وأذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة من فتح الباري بالنسبة للبخاري ولصحيح مسلم الصحيح نفسه ، وإن كان في غيرهما ذكرتُ من خرّجه من الأئمة أو بعضهم ، مع

بيان الحكم على الحديث .

ثامنًا : بيّنتُ معاني الألفاظ الغريبة من كتب اللغة وغريب الحديث .

تاسعًا : ترجمتُ للأعلام المذكورين في صلب البحث عند أول موضع ، ما عدا الصحابة ﷺ ومن اشتهر من الأئمة . واعتنيت بكتب التراجم والطبقات من المالكية .

عاشرًا : حرصتُ على النقل من المصادر الأصيلة ، وما لم أتمكن من الوقوف عليه عزوت إلى مصدر علمي موثق .

حادي عشر : ذيّلتُ الرسالة بفهارس لمحتوياتها اشتملت على ما يلي :

١ــ فهرس الآيات القرآنية .

٢ــ فهرس الأحاديث النبوية .

٣ــ فهرس الأعلام .

٤ــ فهرس المصادر والمراجع .

٥ــ فهرس الموضوعات .

وفي الختام فإني أشكر الله تعالى على أن منّ عليّ بإتمام هذا البحث وإخراجه على هذا النحو ، فما كان منه من صواب فمن الله تعالى وحده ، فله الحمد والمنة ، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان ، والله ورسوله منه بريئان .

ثم أتقدّم بالشكر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور محمّد حسان كسبه المشرف على الرسالة ، فقد كان لتوجيهاته وإرشاداته طيلة زمن البحث الأثر الكبير في إخراجه على تلك الصورة ، كما أشكر لعضوي لجنة المناقشة الكريمين على تفضلهما بقبول مناقشة هذا الموضوع .

والشكر موصول لكل من أعان ونصح وسدّد وأرشد من الإخوة الفضلاء ، كما أشكر هذا الصرح العلمي – جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ممثلة في كلية الدعوة

وأصول الدين ، وأخص قسم العقيدة - على رعايته لطلاب العلم ، وإعانته لهم في مواصلة تحصيلهم العلمي .

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

تمهيد

في نشأة المذهب المالكي

إنّ في الحديث عن المذهب المالكي ونشأته ما يدعو أولاً إلى الحديث عن إمام المذهب الذي أسسه ونُسب إليه المذهب ، فناسب هنا التعريف بإمام المذهب ، وعلى هذا سيكون الكلام في هذا التمهيد محصورًا في الفقرتين الآتيتين :

أولاً : الإمام مالك .

ثانيًا : المذهب المالكي .

أولاً : الإمام مالك

١ــ اسمه ونسبه :

هو إمام دار الهجرة أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي ، وأصبح قبيلة من حمير بن سبأ الأكبر ، وهو عبد شمس بن يعرب بن يشجب بن قحطان[١] .

٢ــ مولده :

ذكر القاضي عياض أن مولده كان في سنة ٩٣هـ في المدينة النبوية .

قال : « والأشهر فيما روي من ذلك قول يحيى بن بكير : إن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة »[٢] .

٣ــ طلبه للعلم :

قال الذهبي : « طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة ، وتأهّل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة ، وحدّث عنه جماعة وهو صبيٌّ شابٌّ طريٌّ ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك ، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد ، وإلى أن مات رحمه الله »[٣] .

وأما حديثه عن طلبه للعلم وتحمله للمشقة في ذلك فيقول : « كنت آتي نافعًا نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس إلى خروجه ، فإذا خرج أدعه ساعةً كأني لم أرده ثم أتعرّض له فأسلّم عليه ، حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال

---

(١) انظر ترتيب المدارك (١٠٥/١) ، السير للذهبي (٤٨/١) ، الانتقاء لابن عبدالبر (٩-١١) ، التمهيد (٨٩/١-٩٠) .

(٢) ترتيب المدارك (١١٨/١) . وذكر الذهبي في السير (٤٩/٨) قول القاضي عياض في سنة مولد الإمام ورجّحه .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٥/٨) .

ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ، ثم أجلس عنه ، وكان فيه حدّة ، وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل »[(١)] .

وقد بلغ من حرصه على الطلب أنه سعى إليه حتى في يوم العيد ، قال : « شهدت العيد فقلت : هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعتُه يقول لجاريته : انظري من على الباب ، فنظرت فسمعتُها تقول : مولاك الأشقر مالك ، قال : أدخليه . فدخلتُ ، فقال : ما أراك بعد انصرفت إلى منـــزلك ؟ قلت : لا . قال : هل أكلتَ شيئًا ؟ قلت : لا . قال : فاطعم ، قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تُحدّثني ، فحدّثني سبعة عشر حديثًا »[(٢)] .

٤ـــ منـــزلته العلمية وثناء الناس عليه :

خرّج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال : « **ليضربنّ الناس أكباد الإبل في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة** »[(٣)] .

قال سفيان بن عيينة : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس .

وقال القاضي عياض : « وهذا هو الصحيح عن سفيان ، رواه عنه الثقات والأئمة : ابن مهدي ، وابن معين ، وذؤيب بن عمامة ، وابن المديني ، والزبير بن بكار ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ؛ كلّهم سمع سفيان يفسّره بمالك ، أو يقول :

---

(١) ترتيب المدارك (١٣٢/١) .

(٢) ترتيب المدارك (١٣٤/١) .

(٣) خرجه الإمام أحمد (٢٩٩/٢) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن حبان (٢٣٠٨) ، والحاكم (٩١/١) ، والبيهقي (٣٨٦/١) . قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد (١٣٥/١٥-١٣٧ رقم ٧٩٦٧) : إسناده صحيح .

أظنه ، أو : أحسبه ، أو : أراه ، أو : كانوا يرونه))[١] .

وأورد الذهبي قول أبي عبدالله الحاكم – وذكر سادة من أئمة التابعين ، كابن المسيب ، ومن بعده في المدينة – : ((فما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره حتى انقرضوا وخلا عصرهم ، ثم ذكر شيوخ مالك المشهورين – إلى أن قال – : وكلهم يفتي بالمدينة ، ولم يتفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الإبل حتى خلا هذا العصر ، فلم يقع بهم التأويل في ((**عالم المدينة**)) .

ثم حدث بعدهم مالك ، فكان مفتيها ، فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق ، واعترفوا له ، وروت الأئمة عنه ممّن كان أقدم منه سنًّا))[٢] .

وقال الذهبي : ((ولم يكن بالمدينة عالم بعد التابعين يشبه مالكاً في العلم والفقه والجلالة والحفظ))[٣] .

وقد أثنى على مالك عدد من أئمة الإسلام :

قال الشافعي : ((إذا جاءك الأثر عن مالك فشدّ به يدك)) .

وقال : ((إذا جاء الخبر فمالك النجم[٤])) .

وقال : ((إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك ، لحفظه وإتقانه وصيانته ، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك))[٥] .

وقال ابن المبارك : ((لو قيل لي : اختر للأمة إماماً ، اخترت لها مالكاً)) .

---

(١) ترتيب المدارك (٧١/١) .

(٢) السير (٦١/٨) .

(٣) السير (٥٨/٨) .

(٤) قال الزواوي : ((يريد بقوله : فمالك النجم ، يعني قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ والله أعلم)) .

(٥) الانتقاء (٢٣–٢٤) ، الحلية (٢٢/٦) ، ترتيب المدارك (١٤٩/١) .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في الحديث والفقه ، ومن مثل مالك متبع لآثار من مضى ؟ مع عقل وأدب »[1] .

وقال يحيى بن معين : « كان مالك من حجج الله على خلقه »[2] .

وقال أبو الحسن الدارقطني : « لا نعلم أحداً تقدّم أو تأخّر اجتمع له ما اجتمع لمالك »[3] .

وقال النسائي : « ما من أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس ، ولا أحد أمنّ عليّ بالحديث منه »[4] .

٥ــ صفاته :

قال زياد بن يونس : « كان - والله - مالك من أعظم الخلق مروءة ، وأكثرهم صمتًا »[5] .

وقال الحارث بن مسكين : « رحم الله مالكًا ، ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة ، أمر له بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل منـــزلاً غير المنـــزل الذي كان فيه ، ولا استفاد منه غلة ولا صنعة ولا تجارة »[6] .

وكان رحمه الله كثير العبادة والصلاة ، كثير العمل في السر .

قال ابن الماجشون : « والله ما علمناه إلاّ بصلاح وعفاف »[7] .

---

(١) ترتيب المدارك (١/١٥٤) .

(٢) الانتقاء (٣١) ، السير (٨/٩٤) .

(٣) ترتيب المدارك (١/١٧٧) .

(٤) الانتقاء (٣١) .

(٥) ترتيب المدارك (١/١٢٧) .

(٦) ترتيب المدارك (٢/٥٧) .

(٧) مناقب مالك للزواوي (١٣٧) .

وقال ابن وهب : « قيل لأخت مالك بن أنس : ما كان شغل مالك بن أنس في بيته ؟ قالت : المصحف والتلاوة »[1] .

وقال ابن المبارك : « رأيت مالكًا فرأيته من الخاشعين ، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه ، وذلك أني كثيرًا ما كنتُ أسمعه يقول : من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه فينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية »[2] .

وقال أبو بكر الأوسي : « كان مالك كثير القراءة طويل البكاء »[3] .

إلى غير ذلك مما يطول ذكره عن هذا الإمام ، ولعل فيما أوردته ما يكفي لإظهار فضله وعلوّ منــزلته رحمه الله .

٦ـــ وفاته :

توفي الإمام مالك رحمه الله تعالى في شهر ربيع الأول سنة ١٧٩هـــ وعمره ست وثمانون سنةً ، ودُفن بالبقيع[4] .

---

(١) مناقب مالك للزواوي (١٣٨) .

(٢) ترتيب المدارك ٢/٥١) .

(٣) ترتيب المدارك (٢/٥٣) .

(٤) انظر : التمهيد (١/٩٢) ، ترتيب المدارك (٢/١٤٦) ، السير (٨/١٣٠-١٣٥) .

ثانيًا : المذهب المالكي

نشأته وكيفية انتشاره :

نشأ الإمام مالك في المدينة النبوية ، وأخذ العلم وتلقّى الرواية عن علمائها ، ولم يخرج منها إلاّ إلى الحج ، فساد جميع أقرانه ، وفاق أهل زمانه ، فسمّي : عالم المدينة ، وإمام دار الهجرة ، واشتهر خبره في الأمصار ، وانتشر في سائر الأقطار ، وضربت إليه أكباد الإبل ، وارتحل الناس إليه من كل مصر ، وأتوه من كل قطر .

فروى عنه أهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل العراق ، وأهل خراسان ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والأندلس(١) .

مما كان له أكبر الأثر في انتشار مذهبه في الأمصار .

« وقد خلص علم فقهاء المدينة إلى مالك بن أنس رحمه الله ، وكانت زكانة رأيه وصلابة دينه وقوة نقده قد هيأت له بتوفيق الله تعالى ذلك المقام الجليل ، مقام الضبط والتصحيح والتحرير »(٢) .

وقد كانت هذه الشخصية التي اتسم بها مالك من عنايته بالحديث وروايته مع حرصه على الفقه والاستنباط آثارها في دروسه وتلاميذه الذين اعتنوا بسماعاتهم من الإمام مالك ودوّنوها ، كما فعل ابن وهب ، فقد ألف « في سماعه من مالك ثلاثين كتابًا »(٣) ، « ولم يكن مالك يتكلم بشيء إلاّ كتبه ابن وهب »(٤) .

قال القاضي عياض : « غلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر ، وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس ، وصقِلّية ، والمغرب الأقصى ، إلى بلاد من

---

(١) مناقب الإمام مالك للزواوي (٤٩) .

(٢) كشف المغطا لابن عاشور (٨) .

(٣) ترتيب المدارك (٣/٢٤٢) .

(٤) ترتيب المدارك (٣/٢٣٢) .

أسلم من السودان ، وظهر ببغداد ظهوراً كثيراً ، وضعف بها بعد أربعمائة سنة ، وظهر بنيسابور وكان بها وبغيرها أئمة ومدرّسون))[١] .

وكان دور التلامذة الذين قدموا على مالك كبيراً في نشر مذهبه ، ففي مصر انتشر علم مالك في حياته ، فكانت بعد الحجاز من أول البلاد التي انتشر فيها علم مالك ، وكثر بها تلاميذه حتى صدر العلم عنهم من بعده ، كابن القاسم[٢] ، وأشهب[٣] ، وابن وهب[٤] ، وأصبغ[٥] ، وغيرهم من المصريين .

بل إن المدوّنة - التي تعدّ مرجعاً مهمًّا لمسائل الإمام مالك وفتاويه - صدرت عن ابن القاسم بمصر ، وأخذها عنه أولاً أسد بن الفرات ، ثم أخذها منقّحة من بعده سحنون[٦] .

---

(١) ترتيب المدارك (١/٦٥) .

(٢) هو عبدالرحمن بن القاسم العتقي ، يكنى أبا عبدالله ، أحد أشهر أصحاب مالك ، فقيه جمع بين الزهد والعلم ، وهو ناشر مذهب مالك في مصر ، أملى الأسدية (المدونة) فكانت الكتاب للمذهب شرقًا وغربًا ، وروايته للموطأ صحيحة . مات سنة ١٩١هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٣/٢٤٤-٢٦١) ، والديباج (٢٣٩) .

(٣) هو أشهب بن عبدالعزيز ، أبو عمرو ، ويقال : اسمه مسكين وأشهب لقب ، روى عن مالك والليث ، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين ، كان فقيهًا نبيلاً ، حسن النظر ، وله مدونة تسمى مدونة أشهب ، مات سنة ٢٠٤هـ ، وقيل : ٢٠٣هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٣/٢٦٢-٢٧١) ، والديباج (١٦٢) .

(٤) هو عبدالله بن وهب ، أبو محمّد القرشي ، روى عن مالك والليث ... نحو أربعمائة رجل من شيوخ المحدثين بمصر والحجاز والعراق . مات سنة ١٩٧هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٣/٢٢٨-٢٤٣) ، الديباج (٢١٤) .

(٥) هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع ، رحل إلى المدينة ليسمع من مالك ، فدخلها يوم مات ، صحب ابن القاسم وأشهب وابن وهب وتفقه بهم ، وكان فقيهًا نظارًا ، من أعلم خلق الله كلهم برأي مالك . مات سنة ٢٢٥هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٤/١٧-٢٢) ، والديباج (١٥٨) .

(٦) مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه لمحمد أبو زهرة (٢٨٣) . ط. دار الفكر - القاهرة .

وفي إفريقية وبلاد المغرب فقد حلّ المذهب المالكي محل مذهب أبي حنيفة على يد ابن زياد ، والبهلول بن راشد من تلامذة الإمام ، وأسد بن الفرات ، وسحنون من تلامذة ابن القاسم .

بينما كان زياد بن عبدالرحمن الملقّب بشبطون(1) ، وقرعوس بن العباس(2) ، والغازي بن قيس(3) ، ومن بعدهم : يحيى بن يحيى المصمودي(4) صاحب الرواية المشهورة للموطأ ، وعبدالملك بن حبيب(5) مؤلف الواضحة : قد نشروا المذهب

---

(١) زياد بن عبدالصمد اللخمي ، المعروف بزياد شبطون ، يكنى أبا عبدالله ، سمع من مالك الموطأ وروى عن الليث ، وهو فقيه أهل الأندلس على مذهب مالك ، وأول من أدخل مذهب مالك الأندلس ، له عن مالك في الفتاوى كتاب سماع معروف بسماع زياد . مات سنة ١٩٣هـ أو ١٩٤هـ ، وقيل : ٢٠٤هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٣/١١٦-١٢٢) ، وجذوة المقتبس (٢١٨-٢١٩) .

(٢) قرعوس بن العباس بن قرعوس بن حميد ، ويقال : عبيد ، بن منصور بن محمّد بن يوسف الثقفي ، من أهل قرطبة ، سمع من مالك ومن الثوري وابن جريج والليث وغيرهم . كان فاضلاً ورعًا عالمًا بمذهب مالك وأصحابه ، ولا علم له بالحديث . مات ٢٢٠هـ .

انظر : الديباج (٣٢٥) ، وجذوة المقتبس (٣٣٣) .

(٣) هو أبو محمّد الغازي بن قيس الأموي القرطبي ، الفقيه المحدّث ، سمع من مالك الموطأ ، ومن ابن جريج والأوزاعي وغيرهم . وهو أول من أدخل الموطأ وقراءة نافع للأندلس . وكان عالمًا فاضلاً ديّنًا ثقةً مأمونًا . مات سنة ١٩٩هـ .

انظر : الديباج (٣١٤) ، وشجرة النور (١/٦٣) ، وترتيب المدارك (٣/١١٤) .

(٤) هو يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى بن كثير المصمودي ، جليل القدر ، عالي الدرجة في الحديث ، ولي القضاء في مواضع عديدة ، سمع الموطأ من حديث الليث وغيره . مات سنة ٣٦٧هـ .

انظر الديباج (٤٣٤) .

(٥) هو عبدالملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي ، أبو مروان ، فقيه مشهور ، متصرف في فنون من الآداب وسائر المعاني ، كثير الحديث والمشايخ ، ويقال : إنه أدرك مالكًا في آخر عمره ، من تصانيفه : الواضحة في الفقه ، والجامع ، وتفسير الموطأ ، وغيرها . مات سنة ٢٣٩هـ .

انظر : بغية الملتمس (٣٧٦) ، والديباج (٢٥٢) .

بدعم من السلطان ؛ إذ « أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان الناس جميعاً بإلزامهم بمذهب مالك ، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشر السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله تعالى »[1] .

وفي المشرق امتدّ مذهب مالك إلى جهات الحجاز واليمن على يد أبي قرة القاضي[2] ، ومحمد بن صدقة الفدكي[3] ، وغيرهم ، ومن ثم أتباعهم .

وفي العراق استقرّ بالبصرة على يد ابن مهدي ، والقعنبي ، وغيرهم . وقد كان لأصحاب مالك الأثر الكبير في ازدهار المذهب هناك ، ولعل المالكيين المشارقة هم الذين وضعوا الأسس الأولى للمذهب ، وأصوله التي بنى عليها المغاربة فيما بعد .

وفي خراسان وما وراء العراق دخلها المذهب على يد يحيى بن يحيى التميمي[4] ، وعبدالله بن المبارك .

---

(١) ترتيب المدارك (١/٢٦-٢٧) .

(٢) هو موسى بن قرة بن طارق السكسكي ، أبو قرة لقب له ، روى عن مالك ما لا يحصى ، منها الموطأ . وله المبسوط ، أثنى عليه ابن حنبل خيرًا .

انظر : ترتيب المدارك (٣/١٩٦) ، والديباج (٤٢١) .

(٣) هو محمّد بن صدقة الفدكي ، أبو عبدالله ، كان يسكن ناحية المدينة ، وسمع من مالك . وله عن مالك مسائل كثيرة وحديث . انظر ترتيب المدارك (٣/٣٥١) .

(٤) هو يحيى بن يحيى بن بكير بن عبدالرحمن التميمي ، الحنظلي ، مولى لهم ، لازم مالكًا مدةً للاقتداء به ، وعدّه ابن عبدالبر في الفقهاء من أصحاب مالك ، وكان ثقةً مأمونًا مرضيًّا . قال ابن حنبل : ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثله ، وذكر من فضله وإتقانه أمرًا عظيمًا . مات سنة ٢٢٦هـ .

انظر ترتيب المدارك (٣/٢١٦) .

وكان في الشّام من أصحاب مالك : الوليد بن مسلم[1] وأبو مسهر[2] .

وهذا يبيِّن مدى انتشار المذهب المالكي في غالب الأمصار .

تقرير العقيدة والدفاع عنها عند الإمام مالك :

إنَّ المتأمّل لأقوال الإمام مالك يجد عنايته الكبيرة بمسائل العقيدة ، فقد بيّن أن أصل التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة .

قال الشافعي : سئل مالك عن الكلام والتوحيد فقال : « محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علّم أمته الاستنجاء ولم يعلّمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : " **أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله** " ، فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد »[3] .

فبين أن حقيقة التوحيد عنده رحمه الله إفراد الله تعالى بالعبادة ، وذلك معنى كلمة « لا إله إلاّ الله » ، أي : لا مستحق للعبادة إلاّ الله تعالى .

وقد ذكر في موطّئه تحت عنوان : « كتاب البيعة » حديث أميمة بنت رقية : أنها قالت : « أتيت رسول الله في نسوة بايعنه على الإسلام ، فقلن : يا رسول الله ! نبايعك ألاّ نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي

---

(١) الوليد بن مسلم بن أبي السائب ، أبو العباس ، مولى بني أمية ، دمشقي ، صنف التصانيف والتواريخ وعني بهذا الشأن أتم عناية . قال ابن حنبل : ما رأيت في الشاميين أعقل منه . مات سنة ١٩٥هـ ، وقيل : ١٩٤هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢١٩/١٥) ، والتذكرة (٣٠٢/١) .

(٢) أبو مسهر عبدالأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي ، شيخ أهل الشام وعالمهم ، روى عن مالك الموطأ وغيره من المسائل ، وكان ممن امتحنه المأمون وأكرهه على أن يقول : القرآن مخلوق ! قال ابن حنبل : رحم الله أبا مسهر ما كان أثبته . مات سنة ٢١٨هـ .

انظر : ترتيب المدارك (٢٢١/٣) ، والتذكرة (٣٨١/١) .

(٣) السير (٢٦/١٠) .

ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف . فقال رسول الله ﷺ : ((**فيما استطعتنّ وأطقتنّ**)) . قالت : فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، هلمّ نبايعك يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : ((**إنّي لا أصافح النساء ؛ إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة** – أو : **مثل قولي لامرأة واحدة** –))(١) .

فإيراد مالك رحمه الله لهذا الحديث الذي فيه البيعة على التوحيد وعدم الشرك يدلنا على عنايته رحمه الله بأمر التوحيد .

وكذا إيراده حديث الفطرة .

وبما أن الخوض في الدين بالكلام قد وقع ، فإن الإمام مالكًا رحمه الله من أشدّ الأئمة تمسّكاً بالسنة ، واقتفاءً لآثار الصحابة ﷺ ، والتابعين ، ومن أشدّهم تحذيراً من الخوض في الدين بالكلام ، وعلم الكلام ، وأصحاب الأهواء الذين يرون أن الدين لا يعرف معرفة حقيقية إلاّ بالكلام والجدل .

قال أبو طالب المكي : ((كان مالك رحمه الله أبعد الناس من مذاهب المتكلّمين ، وأشدّ نقضاً للعراقيين ، وألزمهم لسنة السالفين من الصحابة والتابعين))(٢) .

وقال أشهب بن عبدالعزيز : سمعت مالك بن أنس يقول : إياكم والبدع! قيل : يا أبا عبدالله ! ما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون(٣) .

وجاء في الاعتصام للشاطبي :

((وقال مالك : قبض رسول الله ﷺ وقد تمّ هذا الأمر واستكمل ، وينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ، ولا يتبع الرأي ، فإنه من اتبع الرأي جاءه رجل

---

(١) موطأ مالك (٧٤٩/٢) . ط. دار الحديث – القاهرة .

(٢) ترتيب المدارك (٣٩/٢) ، السير (١٠٦/٨) .

(٣) مناقب مالك للزواوي (١٤٧) .

أقوى في الرأي منه فاتبعه ، فكلما غلبه رجل اتبعه أرى أن هذا بعد لم يتمّ))[1] .

فقد حصر الإمام مالك الدين في الكتاب والسنة فقط ، واتباع سلف الأمة في ذلك ، وذكر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها .

ولا شكّ أنّ هذا من الإمام مالك ليبيّن الجهد الكبير للحفاظ على صفاء الدين ونقائه من لوثات البدع .

ومن ذلك هجر مالك لأهل البدع والأهواء ، ونهيه عن مجالستهم ، أو مكالمتهم والسلام عليهم ، أو الصلاة خلفهم ، أو عيادة مرضاهم .

قال معن بن عيسى : ((إن رجلاً بالمدينة يقال له : أبو الجويرية ، يرى الإرجاء ، فقال مالك : لا تناكحوه !))[2] .

وقال في الإباضية القدرية : ((لا يصلى على موتاهم ، ولا تتبع جنائزهم ، ولا تعاد مرضاهم))[3] .

وقال أيضاً : ((بئس القوم أهل الأهواء ! لا تسلّم عليهم))[4] .

وذلك لأنه يرى أنّ البدعة أشدّ خطرًا وأعظم جرمًا من ارتكاب الكبائر ، ولذا قال : ((إنّ العبد لو ارتكب جميع الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئًا لرجونا له أرفع المنازل ؛ لأنّ كل ذنب بين العبد وبين ربه هو منه على رجاء ، وصاحب البدعة ليس هو منها على رجاء ، إنما يهوى به في نار جهنّم !))[5] .

ومما يبيّن عنايته بمسائل الاعتقاد أيضاً مقالته المشهورة التي أصبحت من القواعد

---

(١) الاعتصام (٢/١٥٥-١٥٦) . ط. دار المعرفة - بيروت ١٤٠٢هـ .

(٢) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/٧٢٤-٧٢٥) .

(٣) المدونة (١/١٨٢ ، ٢/٤٨) .

(٤) شرح السنة للبغوي (١/٢٢٩) ، فتح الباري (١١/٤٠) .

(٥) ترتيب المدارك (٢/٤٩) ، والاعتصام (٢/٢٤٨) .

عند أهل السنة في الصفات .

فحين جاءه رجل فقال له : يا أبا عبدالله ! ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ : كيف استوى ؟ قال مالك : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »[١] .

وعلى كل حال ؛ فجهود الإمام مالك وأئمة مذهبه في مسائل العقيدة عموماً ، وتوحيد العبادة خصوصاً كثيرة جدًّا ، وسوف أورد منها ما يتعلّق بالموضوع في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

---

(١) عقيدة السلف للصابوني (١٧-١٩ رقم ٢٥ و ٢٦) ، والجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٢٣) .

الباب الأول

التوحيد

وفيه فصلان

□ الفصل الأول : معنى التوحيد ، وفيه أربعة مباحث :

➢ **المبحث الأول** : التوحيد في اللغة والشرع .

➢ **المبحث الثاني** : معنى « لا إله إلاّ الله » .

➢ **المبحث الثالث** : شروط « لا إله إلاّ الله » .

➢ **المبحث الرابع** : التوحيد أول دعوة الرسل .

□ الفصل الثاني : توحيد المعرفة ، وفيه مبحثان :

➢ **المبحث الأول** : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

➢ **المبحث الثاني** : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

الفصل الأول

معنى التوحيد

وفيه أربعة مباحث :

- **المبحث الأول** : التوحيد في اللغة والشرع .
- **المبحث الثاني** : معنى ((لا إلــه إلاّ الله)) .
- **المبحث الثالث** : شروط ((لا إله إلاّ الله)) .
- **المبحث الرابع** : التوحيد أوّل دعوة الرسل .

المبحث الأول

التوحيد في اللغة والشرع

كلمة (التوحيد) مصدر : وحّد يوحّد توحيداً ، ومادة (وحّد) في اللغة تدور حول انفراد الشيء بذاته ، أو بصفاته ، أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه .

وإذا عدّي بالتضعيف فقيل : وحَّد الشيء توحيداً ، معناه : إما جعله واحداً ، أو نسبه إلى الوحدانية(١) .

والتوحيد : الإيمان بالله وحده لا شريك له .

قال أبو القاسم التيمي(٢) : « التوحيد على وزن التفعيل ، وهو مصدر : وحّدته توحيداً ... ومعنى وحّدته : جعلته متفرّداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته . والتشديد فيه للمبالغة ؛ أي : بالغت في وصفه بذلك »(٣) .

قال الله تعالى – حكاية عن الكفار – : ﴿ أجعل الآلهة إلهًا وحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾(٤) .

---

(١) انظر : " الصحاح للجوهري (٢/٥٤٧) ط . دار العلم للملايين – بيروت ، ومعجم مقاييس اللغة (٦/٩٠) مادة (وحد) . ط. دار الجيل – بيروت .

(٢) هو إسماعيل بن محمّد بن الفضل بن العلي بن أحمد ، القرشي التيمي الطلحي ، الأصبهاني ، الملقب بقوام السنة . قال عنه الذهبي : « الإمام العلامة الحافظ ، شيخ الإسلام » . مات سنة ٥٣٥ . سير أعلام النبلاء (٢٠/٨٠) . وانظر تذكرة الحفاظ (٤/١٢٧٧) ، والمنتظم (١٠/٩٠) .

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/٣٠٥) للتيمي .

(٤) سورة ص : ٥ .

وقال الجرجاني[١] : ((التوحيد في اللغة : الحكم بأن الشيء واحد ، والعلم بأنه واحد))[٢] .

وقال ابن الأثير[٣] : ((في أسماء الله تعالى (الواحد) : هو الفرد الذي لم يزل وحده ، ولم يكن معه آخر))[٤].

وقال الأزهري[٥] : ((أما اسم الله جل ثناؤه (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره ؛ لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد ، أي : فرد ؛ لأن أحداً صفة من صفات الله التي استأثر بها ، فلا يشركه فيها شيء ... والواحد في صفة الله معناه : أنه لا ثاني له ، يجوز أن ينعت الشيء بأنه

---

(١) هو علي بن محمّد الجرجاني ، المعروف بالشريف الجرجاني ، الحنفي ، فيلسوف ، من كبار العلماء بالعربية ، له نحو خمسين مصنفًا ، منها : "التعريفات" ، وشرح "مواقف" الإيجي ، ورسالة في فن أصول الحديث ، وحاشية على الكشاف . وكانت وفاته بشيراز سنة ٨١٦هـ .
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٣٢٨/٥) ، والأعلام للزركلي (٧/٥) .

(٢) كتاب التعريفات (٦٩) . ط دار الكتب العلمية – بيروت ، ط. الأولى ١٤٠٣هـ.

(٣) هو مجد الدين ، أبو السعادات المبارك بن محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني ، الجزري ثم الموصلي ، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤هـ ، قرأ في الحديث والعلم والأدب . قال الذهبي : " القاضي الرئيس العلامة البارع الأوحد " . صنف جامع الأصول ، والنهاية ، وشرحًا لمسند الشافعي . وكان ورعًا عاقلاً بهيًّا ذا بر وإحسان ، توفي سنة ٦٠٦هـ بالموصل ، وله ٦٣ سنةً .
انظر : السير (٤٨٨/٢١) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤١/٤) .

(٤) النهاية في غريب الحديث (١٥٩/٥) .

(٥) هو أبو منصور محمّد بن أحمد بن منصور الأزهري ، الهروي ، الأديب الشافعي ، أحد أئمة اللغة والأدب ، ولد في مدينة هراة بخراسان عام ٢٨٢هـ ، ونسبه إلى جده الأزهر ، عني بالفقه واشتهر به ، ثم غلب عليه التبحر في العربية فرحل في طلبها ، وله غريب اللغة ، وتفسير القرآن ، وغريب الألفاظ . مات سنة ٣٧٠هـ بمدينة هراة .
انظر : معجم الأدباء (١٦٤/١٧) ، الأعلام (٣١١/٥) .

واحد ، فأما أحد فلا يوصف به غير الله بخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه))[1] .

والحاصل : أن التوحيد في اللغة : الجزم بالشيء أنه واحد . تقول العرب : واحد وأحد ووحيد ، أي : منفرد ، فالله تعالى واحد ، أي : منفرد عن الأنداد والأشكال في جميع الأحوال .

فقولهم : ((وحّدت الله)) من باب : عظّمت الله وكبّرته ، أي : علمته عظيماً كبيراً[2] .

---

(١) تهذيب اللغة (١٩٧/٥) للأزهري . ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة .

(٢) الحجة في بيان المحجة (٣٠٥/١) لقوام السنة . ط. دار الراية ، ط. الأولى - الرياض ١٤١١هـ .

التوحيد في الشرع :

إن معرفة التوحيد أمر بالغ الأهمية ؛ إذ به يتحقق الدخول في الإسلام ، ولذا كان السلف ﷺ من أعرف الناس بمعنى التوحيد الشرعي .

ومما يبين ذلك ما نقله القرطبي[1] عن ابن المنذر من حكاية الإجماع في ذلك . قال :

« وترجم ابن المنذر في كتاب الإشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمّد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام – وهو بالغ صحيح العقل – أنه مسلم ، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدًّا ، ويجب عليه ما يجب على المرتد »[2] .

فمـــا نقله القرطبي رحمه الله عن ابن المنذر من دعوى الإجماع مما يبين أن علماء المالكية اعتنوا بالتوحيد ، وعرّفوه ، وبيّنوا معناه كما نقل عن السلف ، ولم يخالفوا في ذلك .

ومعنى التوحيد الذي دلت عليه النصوص الشرعية : هو أن الإقرار بشهادة أن

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ، المفسر ، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا ، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف ، من كتبه : الجامع لأحكام القرآن ، عشرون جزءًا ، يُعرف بتفسير القرطبي ، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، والتذكار في أفضل الأذكار ، والتذكرة بأحوال الموت وأحوال الآخرة ، مات سنة ٦٧١هـ .
انظر : الديباج (٤٠٦) ، ونفح الطيب (٢/ ٢١٠) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٢) ، والإجماع (١٥٤) لابن المنذر . دار طيبة .

لا إله إلاّ الله أصل التوحيد ؛ كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحدا لا إله إلاّ هو سبحانه عما يشركون ﴾[(١)] ، وجعل النبي ﷺ الدخول في الإسلام متوقفاً على الإقرار بالشهادة ؛ كما في قوله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، وأني رسول الله ...** »[(٢)] .

ودرج على هذا سلف الأمة جيلا بعد جيل ، وسلكه العلماء في بيان معنى التوحيد ، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلاّ الله[٣] .

وفي هذا المبحث سأنقل كلام المالكية في بيان معنى التوحيد في الشرع ، مراعيا التسلسل التاريخي في الغالب[(٤)] ، وقد أقدم بعض الأقوال ؛ لقوتها ودلالتها على المعنى المقصود ، وإن تأخّر القائل بها ، مبتدئا بإمام المذهب الإمام مالك ، وهكذا ...

---

(١) سورة التوبة : ٣١ .

(٢) الحديث خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم ﴾ برقم (٢٥) ، فتح الباري (١/٧٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، برقم (٣٢) ، صحيح مسلم (١/٥١) .

(٣) ولا يكفي مجرَّد الإقرار ، بل لا بدّ من تحقيق معنى « لا إله إلاّ الله » ، كما قال ﷺ : « من قال لا إله إلاّ الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله حرم مالُه ودمه وحسابه على الله ﷻ » .

ولهذا لا تنفع هذه الكلمة بمجرّد التلفظ بها ، ولا بمعرفة المعنى ، ولا بالإقرار بذلك ، ولا بعدم الإشراك بالله ، بل لا بدّ أن يُضاف إلى كل ما سبق الكفر بما يُعبد من دون الله ، فإن شكّ أو توقف لم يحرم ماله ودمُه .

وقد أشار بعض المالكية إلى هذا المعنى في كلامهم عن شروط « لا إله إلاّ الله » ، ويأتي .

(٤) وذلك بحسب سنة الوفاة لكل علم .

ومن ذلك ما جاء عن الإمام مالك في بيان المعنى الشرعي للتوحيد :

١ــ قال المزني[١] : سمعت الشافعي[٢] يقول : سئل مالك عن الكلام والتوحيد ، فقال : محال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ، ولم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله**)) . فما عصم به الدم والمال حقيقة التوحيد[٣] .

٢ــ وبيّن الإمام مالك في كلامه عن المجزئ من الرقاب في الكفارات أنه لا بد أن تكون الرقبة مؤمنة، وذلك بالإقرار بالشهادتين[٤] ، فقال :

((لا يجوز في شيء من الكفارات في العتق إلاّ مؤمنة)) .

وروى مالك بسنده عن ابن مسعود ﷺ : أن رجلا من الأنصار أتى إلى

---

(١) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن مسلم المزني ، صاحب الإمام الشافعي ، من أهل مصر ، كان عالمًا زاهدًا ، مجتهدًا مناظرًا ، محجاجًا غواصًا على المعاني الدقيقة ، صنف كتبًا كثيرة في مذهب الشافعي ، منها : الجامع الصغير ، ومختصر المختصر ، والمنثور ، وكتاب الوثائق . مات سنة ٢٦٤هــ . انظر : طبقات فقهاء الشافعية لابن قاضي شهبة (٢٧/١) ، وفيات الأعيان (٢١٧/١) .

(٢) هو محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبدالله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، إليه نسبة الشافعية كافة . قال الذهبي : الإمام ، عالم العصر ، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، صنف التصانيف ودوّن العلم ، وردّ على الأئمة متبّعًا الأثر ، وصنف في أصول الفقه وفروعه ، وبعُد صيته ، وتكاثر عليه الطلبة . برع في الشعر واللغة وأيام العرب ، ثم أقبل على الفقه والحديث ، وأفتى وهو ابن عشرين سنة ، وكان ذكيًا مفرطًا ، وله كتاب الأم في الفقه في سبع مجلدات ، والمسند في الحديث ، وأحكام القرآن ، والرسالة في أصول الفقه . مات سنة ٢٠٤هــ . انظر : السير (٥/١٠) ، والأعلام (٢٦/٦) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٦/١٠) .

(٤) المدونة (٧٥/٣) ، وفي الموطأ (٧٧٨/٢) : باب ما لا يجوز في العتق في الرقاب الواجبة .

رسول الله ﷺ بوليدة سوداء ، فقال : يا رسول الله ! إن عليّ رقبة مؤمنة ، فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : ((**أتشهدين أن لا إله إلاّ الله ؟**)) . فقالت : نعم . قال : ((**أتشهدين أن محمدًا رسول الله ؟**)) قالت : نعم . قال : ((**أفتؤمنين بالبعث بعد الموت ؟**)) . قالت : نعم . قال : ((**أعتقها**))[1] .

فرواية مالك لهذا الحديث تبين أن الإقرار بالشهادتين مما يصدق به وصف الإيمان وينبئ عن حقيقة التوحيد .

٣ـــ قال ابن القاسم : ((وسمعت مالكاً قال : بلغني أن رجلاً من المسلمين في بعض مغازي النبي ﷺ حمل على رجل من المشركين ، فلما علاه بالسيف قال المشرك : لا إله إلاّ الله ! فقال الرجل : إنما تتعوذ بها من القتل ، فقتله . فأتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال له رسول الله ﷺ : ((**كيف لك بلا إله إلاّ الله ؟!**)). فقال : يا رسول الله ! إنما كان يتعوذ بها من القتل . فما زال يعيدها على النبي ﷺ ، والنبي يعيد : ((**فكيف لك بلا إله إلاّ الله ؟!**)) ، فقال الرجل : وددت أني أسلمت في ذلك اليوم ، وأنه بطل ما كان من عملي قبل ذلك ، وأني استأنفت من ذلك اليوم[2]))[3] .

فرواية ابن القاسم عن مالك تبين أن الإقرار بالشهادتين يكفي لعصمة دم المشرك ، وهو يبين معنى التوحيد ؛ إذ به يدخل في الإسلام ويقبل منه .

---

(١) الحديث رواه مسلم برواية أخرى ، وفيها : أن النبي ﷺ سأل الجارية بقوله : " **أين الله ؟** " . قالت : في السماء .. كتاب المساجد (٥٣٧) (١/٣٨١-٣٨٢) .

(٢) وهو حديث بعث النبي ﷺ أسامة ﷺ إلى الحرقات من جهينة : خرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب بعث أسامة بن زيد إلى حرقات جهينة ، برقم (٤٢٦٩) ، فتح الباري (٧/٥١٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلاّ الله ، برقم (٩٦) صحيح مسلم (١/٩٦) .

(٣) البيان والتحصيل (١٧/٢١٦) . ط. دار الغرب ، ط. الأولى ١٤٠٨هـــ لبنان .

٤ـ ذكر الشافعي عمّن أخذ عنه - مثل مالك وغيره - في بيان السنة التي كانوا عليها قوله :

« القول في السنة التي أنا عليها ، ورأيت أصحابنا عليها ؛ أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم ، مثل سفيان[١] ، ومالك ، وغيرهم : الإقرار بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ... »[٢] .

وبهذا يتبين لنا التوحيد الشرعي لدى الإمام مالك رحمه الله ، وهو : الإقرار بشهادة أن لا إله إلاّ الله .

٥ـ وابن القاسم في هذا كمالك رحمه الله ؛ فقد روى عن مالك أنه سأله :

« قلت : كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية حل وطؤها والصلاة عليها ؟ قال : قال مالك : إذا شهدت أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ... »[٣] .

٦ـ وذكر أيضاً في مسألة صبيان المشركين ، فيما قاله سحنون[٤] :

---

(١) هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبدالله الثوري ، الكوفي ، كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته ، وهو أحد الأئمة المجتهدين . قال ابن المبارك : لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري . مات سنة ١٦١هـ .
انظر : طبقات ابن سعد (٣٧١/٦) ، وفيات الأعيان (٣٨٦/٢) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٦٥) .

(٣) المدونة (١٧٩/١) .

(٤) هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ، الملقب بسحنون ، قاض فقيه ، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب ، وانتشرت إمامته في المشرق والمغرب ، وسلم له الإمامة أهل عصره واجتمعوا على فضله وتقديمه ، ومناقبه كثيرة . روى المدونة عن ابن القاسم عن الإمام مالك . مات سنة ٢٤٠هـ .
انظر : ترتيب المدارك (٤٥/٤) ، والأعلام (٥/٤) .

« قلت لابن القاسم : أرأيت من نزل بهم أهل الشرك بساحلنا ، فباعوهم منا وهم صبيان[1] ، فماتوا قبل أن يتكلموا بالإسلام بعد ما اشتريناهم ؛ هل تحفظ من مالك فيهم شيئاً ؟ قال : نعم ؛ لا يصلى عليهم حتى يجيبوا إلى الإسلام »[2] .

٧ــ وذكر يحيى بن يحيى الليثي[3] الرواية عن مالك فيما يجزئ من الرقاب ، فذكر حديث الجارية ، مما يبين رأيه فيما يصدق به وصف الإيمان والتوحيد[4] .

٨ــ وأما سحنون فقد ذكر ابن رشد[5] مذهبه في اشتراط الإجابة . فقال :

---

(١) المراد بالصبي والله أعلم : صغير السن الذي لم يبلغ ، لحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عند البخاري : " أنّ رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني " . قال نافع : فقدمت على عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة فحدثته الحديث فقال : إن هذا الحد بين الصغير والكبير ، وكتب لعماله : أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة . فتح الباري (٢٧٦/٥) .

وفي رواية الترمذي قال : " هذا حد ما بين الذرية والمقاتلة " . عارضة الأحوذي (٢٠٤/٧) . ط. دار الفكر .

(٢) المدونة (١٧٩/١) .

(٣) هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي ، أبو محمّد ، من مصمودة طنجة ، سمع يحيى مالكًا والليث ، وحج ، إليه انتهت الرياسة في العلم بالأندلس ، وكان مالك يعجبه سمت يحيى وعقله ، وسماه العاقل ، وكان ثقة عاقلاً حسن الهدي والسمت ، يشبه سمته سمت مالك . مات سنة ٢٣٤هـ ، وقيل : ٢٣٣هـ ، والله أعلم .

انظر : ترتيب المدارك (٣٧٩/٣) ، والديباج (٤٣١) .

(٤) موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي (٣٢٩/٢-٣٣١) . دار الغرب - ط. الثانية بيروت ١٤١٧هـ.

(٥) هو محمّد بن أحمد بن رشد (الجد) ، فقيه الأندلس والمغرب ، وقاضي الجماعة بقرطبة ، معترف له بصحة النظر وجودة التأليف ، بصيرًا بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم ، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية ، كثير التصنيف ، ألف كتابه : البيان والتحصيل في شرح كتاب العتبي المستخرج من كتاب الأسمعة ، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلّدًا ، وكتابه المقدمات ، =

« ومذهب القاسم ، وروايته عن مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه »[1] .

ثم قال : « وهو مذهب سحنون » .

فتبين معنى الإجابة عندهم ؛ وهو الإقرار بالشهادة ، وبها يحكم بالدخول في الإسلام ، وهو معنى التوحيد الشرعي .

٩ــ وذكر ابن رشد : « مذهب القاسم وروايته عن مالك : أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه حتى يجيب إليه »[2].

وقد سبق[3] روايته حديث الجارية ، ومعنى الإجابة : الإقرار بالشهادتين للدخول في الإسلام .

فروايته وعدم اعتراضه يدل على أنه يرى ذلك[4] ، وهو معنى التوحيد .

١٠ــ وذكر ابن عبد البر[5] أن الإقرار بالشهادتين شرط للخروج من الكفر ،

= وكتاب اختصار الكتب المبسوطة . قال القاضي عياض : وكانت الرحلة إليه للتفقه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ .

انظر : الغنية (٥٤) . ط. دار الغرب - بيروت ، ط. الأولى ١٤٠٢هـ ، وبغية الملتمس للضبي (٥١).

(١) البيان والتحصيل (٢/٢١٣-٢١٤) .

(٢) البيان والتحصيل (٢/٢١٣-٢١٤) .

(٣) انظر ص ٣١ .

(٤) ذكر ابن رشد رأي الباجي في مسألة أول واجب ، ثم تعقبه وردّ عليه ، مما يبين أنه يتعقب ما لا يراه . انظر المقدمات الممهدات (١/٥٨) .

(٥) يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبدالبر النمري ، الحافظ شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها في وقته ، وأحفظ من كان بها لسنة مشهورة ، علا ذكره في الأقطار ، ورحل إليه الناس وسمعوا منه ، ألف تواليف كثيرة مفيدة ، منها : كتاب التمهيد ، وهو عشرون مجلدًا ، وكتاب الاستذكار لمذاهب =

فعند حديث الجارية ، واشتراط الإيمان في العتق . قال :

((وفي حديث مالك هذا من الفقه أن من شرط الشهادة التي بها يخرج من الكفر إلى الإيمان مع الإقرار بأن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله : الإقرار بالبعث بعد الموت))[1] .

فنص على أنه لا بد للدخول في الإسلام من الإقرار بالشهادة .

١١ـــ وقال أبو الوليد الباجي[2] عند شرحه لحديث الجارية :

((وذلك يقتضي أنه حكم بكونها مؤمنة ، دون أن يسألها عن نظر واستدلال ، وكذلك كل من أتى ليؤمن أخذنا عليه الشهادتين ، فإذا أقرّ بهما حكمنا بإيمانه ، و لم نسأله عن نظره واستدلاله))[3] .

= علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار ، وكتاب الاستيعاب ، وغيرها . مات سنة ٤٦٣هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١٢٨/٨) ، والديباج (٤٤٠) .

(١) فتح البر بالترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (٣٨/٢) ط. مجموعة النفائس الدولية – مكتبة الرياض الحديثة ، ط. الأولى ١٤١٦هـ . وانظر : الاستذكار (١٧٠/٢٣-١٧١) ، مؤسسة الرسالة ط. الأولى ١٤١٤هـ .

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي ، رحل إلى المشرق نحو ثلاثة عشر عامًا ، وجل قدره بالمشرق والأندلس ، كان فقيهًا نظّارًا محققًا محدّثًا متكلّمًا أصوليًّا فصيحًا شاعرًا حسن التأليف ، وكان وقورًا بهيًّا مهيبًا جيد القريحة ، حسن الإشارة ، له من التصانيف : كتاب المنتقى في شرح الموطأ ، عشرين مجلدًا ، وكتاب المهذب في اختصار المدونة ، وإحكام الفصول في أحكام الأصول ، وكتاب الإشارة في الأصول ، وكتاب الحدود ، وغيرها . مات سنة ٤٧٤هـ ، وقيل : ٤٩٤هـ .

انظر : ترتيب المدارك (١١٧/٨) ، والديباج (١٩٧) .

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٢٧٤/٦) ط. الأولى – مطبعة السعادة ، مصر ١٣٣٢هـ .

فجعل الدخول في الإسلام متوقفا على الإقرار بالشهادتين ، وهو معنى التوحيد .

١٢ــ وقال الطرطوشي[١] :

« اعلموا - أرشدكم الله تعالى - أن (لا إله إلاّ الله) هي العروة الوثقى ، ومركب النجاة ، وسفينة نوح ؛ من عدل عنها هلك ، ومن ركبها خلص ونجا ، وهي قطب الإسلام ، وقاعدة الأديان ، وما خلق الجن والإنس إلاّ ليعبدوه بها »[٢].

ثم ذكر الأحاديث مبتدئاً بحديث : « **أمرت أن أقاتل الناس ...** » ، ثم قال :

١٣ــ « وحسبك شرفاً وإجلالاً لهذه الكلمة : أن النبي ﷺ قال : « **لقّنوا موتاكم : لا إله إلاّ الله** »[٣] . » .

فمفتاح الدخول في الإسلام (لا إله إلاّ الله) ، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى (لا إله إلاّ الله) » [٤] .

فذكر أن كلمة التوحيد هي « لا إله إلاّ الله »، وأنها مفتاح الدخول في الإسلام ، ولا يصح التوحيد إلاّ بها ، مما يجلي المعنى الشرعي للتوحيد .

---

(١) هو أبو بكر بن محمّد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي ، الطرطوشي ، الفقيه الزاهد ، رحل إلى المشرق وتفقه على الشاشي الشافعي والجرجاني ، وسكن الشام مدة ودرس بها . له من التصانيف : سراج الملوك ، وكتاب بر الوالدين ، وكتاب الحوادث والبدع . مات سنة ٥٢٠هـ . انظر : السير (١٩/٤٩٠) ، وفيات الأعيان (٤/٢٦٢) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥) ط. الأولى ١٤٠٩هــ ، دار الفكر المعاصر . بيروت - لبنان .

(٣) الحديث خرجه مسلم في كتاب الجنائز ، باب تلقين الموتى لا إله إلاّ الله ، برقم (٩١٦) (٢/٦٣١) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

١٤ـــ وأما أسد بن الفرات[1] فقد أنكر على بشر المريسي[2] تأليفه كتاباً في التوحيد ، مبيناً معنى التوحيد الشرعي .

جاء في ترجمته : « وكان رحمه الله تعالى يكفّر بشراً المريسي ، ويتكلم فيه بأقبح الكلام ، وبلغه أنه وضع كتاباً وسماه بـــ « كتاب التوحيد » ... فقال أسد : أوجهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر فيه كتاباً ؟! هذه نبوة ادّعاها ! »[3] .

فهذا يبيّن أن أسداً رحمه الله أراد التوحيد الشرعي ؛ إذ إنّ الناس لا يجهلون الشهادتين .

١٥ـــ وعرّف الباقلاني[4] التوحيد بقوله :

---

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، مولى بني سليم ، قاضي القيروان ، وأحد القادة الفاتحين ، أصله من خراسان ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث ، فنشأ بتونس ، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث ، لزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية وقدم بها إلى القيروان ، وسمعها منه خلق كثير مع الموطأ ، وانتشرت إمامته ، كان شجاعًا حازمًا صاحب رأي ، استعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه ، وهو أول من فتح صقيلية ، ومات بها من جراحات أصابته سنة ٢١٣هـــ .
انظر : رياض النفوس (٢٦٤/١) ، والديباج (١٦١) ، والأعلام (٢٩٨/١) .

(٢) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم ، البغدادي المريسي ، نظر في الكلام فغلب عليه ، وانسلخ من الورع والتقوى ، وجرد القول بخلق القرآن ودعا إليه ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقته أهل العلم ، وكفره عدة . مات سنة ٢١٨هـــ ، وقيل : ٢١٩هـــ .
انظر : السير (١٩٩/١٠) ، وتاريخ بغداد (٦١/٧) .

(٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية (٢٦٤/١) .

(٤) هو القاضي أبو بكر محمّد بن الطيب بن محمّد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني ، البصري المتكلم المشهور ، كان على مذهب الأشعري ، مؤيّدًا اعتقاده وطريقته ، انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته ، وكان موصوفًا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب ، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره . مات سنة ٤٠٣هـــ .
انظر : السير (١٩٠/١٧) ، ووفيات الأعيان (٢٧١/٤) .

« التوحيد له : هو الإقرار بأنه ثابت موجود ، وإله واحد فرد[1] معبود ، ليس كمثله شيء ، على ما قرر به قوله تعالى : ﴿ وإلهكُم إلهٌ واحِدٌ لا إلهَ إلاّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ليسَ كمِثْلِه شَيْءٌ وهُو السَّمِيعُ البَصِير ﴾[3] »[4].

فتعريفه يجلي المعنى الشرعي ؛ إذ نص على أن التوحيد هو الإقرار بالشهادة ، كما في الآية الكريمة التي استدل بها .

١٦ــ وبنحو ذلك قال أبو عمرو الداني[5] في بيان معنى التوحيد الشرعي[6].

١٧ــ وأما ابن نصر البغدادي[7] فقد بين أن المرتد إذا تاب تقبل توبته ، واستدل

---

(١) إطلاق وصف الفرد على الله ﷻ لم يرد . قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد ﴾ . وجاء في حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلاّ أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، فقال : " **والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى** " . قال الترمذي : حديث صحيح . السنن (٣٤٧٥) في الدعوات ، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٣) سورة الشورى : ١١ .

(٤) الإنصاف للباقلاني (٢٣) . ط. الثانية ، مؤسسة الخانجي ١٣٨٢هــ .

(٥) هو الحافظ المجوّد المقرئ الحاذق ، عالم الأندلس ، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأندلسي القرطبي ، ثم الداني . قال الحميدي : هو محدث مكثر ، ومقرئ متقدم ، سمع بالأندلس والمشرق . وقال ابن بشكوال : كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن رواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه ، وله معرفة بالحديث وطرقه ، وأسماء رجاله ونقلته ، وكان حسن الخط ، جيد الضبط ، من أهل الذكاء والحفظ والتفنن في العلم ، دينًا فاضلاً ورعًا سنّيًا ، مات سنة ٤٤٤هــ .
انظر : السير (٧٧/١٨) ، ومعجم الأدباء (١٢٤/١٢) .

(٦) انظر الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة والاعتقادات وأصول الديانات (٢٣) .

(٧) هو عبدالوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي ، أبو محمّد ، قاض من فقهاء المالكية . قال ابن فرحون : كان حسن النظر ، جيد العبارة ، نظّارًا ناصرًا للمذهب ، ثقة حجة ، له نظم ومعرفة =

بآيات من الكتاب ، وبقوله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ...** »[1] .

فجعل الإقرار بالشهادة يكفي لعصمة الدم والرجوع مرّة أخرى إلى الإسلام بعد الردّة ، وهذا يجلي المعنى الشرعي للتوحيد .

١٨ــ وأما ابن بطال[2] فعند شرحه لحديث عبادة : أن النبي ﷺ قال : « **من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . ثم قال : اللهم اغفر لي – أو دعا – ؛ استجيب له ، فإن توضّأ قبلت صلاته** »[3] . قال :

« وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد

= بالأدب ، ولي قضاء بغداد ، ورحل إلى الشام ، ثم توجه إلى مصر فعلت شهرته ، توفي فيها . له كتاب التلقين ، وعيون المسائل ، وكتاب المعرفة على مذهب عالم المدينة . مات سنة ٤٢٢هـ .
انظر : الديباج (٢٦١) ، والأعلام (١٨٤/٤) .

(١) المعونة على مذهب عالم المدينة (٢٩٥/٢) . دار الكتب العلمية – بيروت . ط. الأولى ١٤١٨هـ .

(٢) هو علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري ، القرطبي ثم البلنسي ، ويعرف باللجام ، عالم بالحديث ، له شرح لصحيح البخاري ، والاعتصام في الحديث ، وكتاب في الزهد والرقائق . قال الذهبي : كان من كبار المالكية . مات سنة ٤٤٩هـ .
انظر : السير (٤٧/١٨) ، والأعلام (٢٨٥/٤) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب فضل من تعار من الليل ، برقم (١١٥٤) فتح الباري (٣٩/٣) ، والترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل برقم (٣٤١٤) (٤٨٠/٥) ، وأبو داود في باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل برقم (٥٠٦٠) سنن أبي داود (٧١١) ، والدارمي في باب ما يقول إذا انتبه من نومه برقم (٢٦٩٠) (٢٠٢/٢) .

له ، والربوبية ، والإذعان له بالملك ، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى »[1] .

فذكر التوحيد ، وأنه : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وهو معنى التوحيد الشرعي .

١٩ــ وعند شرحه حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس ...** » ، قال :

« فثبت أن الإسلام لا يكون إلاّ بالمعاني التي تدل على الدخول في الإسلام ؛ وهو الإقرار بالشهادتين ، وترك سائر الملل » .

٢٠ــ وفي شرحه لحديث سيّد الاستغفار ، وعند قوله في الحديث : « **وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت** »[2] قال :

« يريد العهد الذي أخذه الله على عباده ؛ حيث أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ فأقرّوا له بالربوبية ، وأذعنوا له بالوحدانية ، وبالوعد ما قال على لسان نبيه : أن من مات لا يشرك بالله شيئاً ، وأدّى ما افترض عليه أن يدخله الجنة ... »[3] .

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/١٤٧-١٤٨) .

(٢) عن شداد بن أوس أنّ رسول الله ﷺ قال : " **سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوءُ لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت . من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة** " .

أما سبب تسميته بسيد الاستغفار فكما قال الطيبي : " لما كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها ، استعير له اسم السيد ، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور " . فتح الباري (١١/٩٩) .

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/٧٦) .

فمراده بالوحدانية : توحيد العبادة ؛ لأمرين :

أ ـــ تقدمه توحيد الربوبية .

ب ـــ وكذلك ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ : ((**يُقالُ للرَّجُل من أهل النار يوم القيامة : أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنتَ مُفتدياً ؟**)) . قال : ((**فيقول : نعم !**)) . قال : ((**فيقول : قد أردتُ منك أهونَ من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم ألاّ تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلاّ أن تشركَ بي شيئاً**))[(1)] .

٢١ـــ وبين أن حقن الدم بالأذان ، لأجل ما فيه من الشهادة بالتوحيد ، فقال :

((إنما يحقن الدم بالأذان لأن فيه الشهادة بالتوحيد لله ، والإقرار بالرسول)) [(2)] .

٢٢ـــ وبين سبب هروب الشيطان عند سماع الأذان ، فقال :

((إنما يهرب – والله أعلم – من اتفاق الكل على الإعلان بشهادة التوحيد ، وإقامة الشريعة ، كما يفعل يوم عرفة لما يرى من الكل على شهادة التوحيد لله تعالى ، وتنـــزل الرحمة عليهم ، ييئس من أن يردهم عما أعلنوا من ذلك ، وأيقن بالخيبة ، بما تفضل الله عليهم من ثواب ذلك))[(3)] .

فنص على أن التوحيد هو شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وبه تحقن الدماء ، مما يجلي المعنى الشرعي .

---

(١) خرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠٢/٣) برقم (١٢٢٨٩) ، والبخاري في باب أحاديث الأنبياء ، الفتح (٣٦٣/٦) برقم (٣٣٣٤) ، ومسلم في باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢١٦٠/٤) برقم (٢٨٠٥) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٣٩/٢) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٢٣٤/٢) .

٢٣ــ وقال المازري[١] عند شرحه حديث : « **لقنوا موتاكم لا إله إلاّ الله** »[٢]:

« إن الشيطان يتعرض للإنسان ليفسد اعتقاده ، فيحتاج إلى مذكّر ومنبّه له على التوحيد .

ويحتمل أن يريد ﷺ ليكون ذلك آخر كلامه ، فيحصل له ما وعد به ﷺ في الحديث الآخر : « **من كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله ، وجبت له الجنة** »[٣] »[٤] .

فنص على أن « لا إله إلاّ الله » هي التوحيد الذي يحتاجه المؤمن عند فراقه الدنيا .

٢٤ــ وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون ﴾[٥] قال ابن عطية[٦] : « لا إله إلاّ الله : هي كلمة الحق ، والعروة

---

(١) هو أبو عبدالله محمّد بن علي بن عمر بن محمّد التميمي المازري ، الفقيه المالكي المحدث ، أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث ، اطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب ، وغير ذلك ، وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب والفقه ، شرحَ صحيح مسلم شرحًا جيّدًا سماه المعلم بفوائد مسلم ، وشرح كتاب التلقين لابن نصر . مات سنة ٥٣٦هـ .
انظر : الديباج (٣٧٤) ، ووفيات الأعيان (٤/٢٨٥) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦ .

(٣) خرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦٣) من حديث معاذ ﷺ ، والبزار في مسنده (٧/٧٧) برقم (٢٦٢٥) . والحديث صحيح ، فصالح بن أبي غريب قال عنه ابن حجر : مقبول ، ووثقه ابن حبان ، وباقي رجال الإسناد ثقات ، كما ذكره الأرناؤوط في حاشية مسند الإمام أحمد (٥/٣٦٣) .

(٤) المعلم بفوائد مسلم (١/٣٢٣) . ط. الثانية ١٩٩٢م - دار الغرب الإسلامي .

(٥) سورة الصافات : ٣٥ .

(٦) هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي ، أبو محمّد ، مفسّر فقيه ، أندلسي من أهل غرناطة ، كان فقيهًا عالمًا في التفسير والأحكام والحديث والنحو واللغة والأدب ، له نظم ونثر ، وكان غاية في الدهاء والذكاء ، وكان يكثر الغزوات ، وله : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، في عشر مجلدات . مات سنة ٥٤٢هـ . انظر : الديباج (٢٧٥) ، والأعلام (٣/٢٨٢) .

الوثقى)) . ثم استدل بحديث أبي طالب ، وقول النبي ﷺ له : ((**أي عم! قل : لا إله إلاّ الله ؛ أحاج لك بها عند الله**))[1] ، ثم قال :

((وبفرضه عليه الصلاة والسلام قول : لا إله إلاّ الله ، جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ، ويخضعوا لها))[2] .

فبين أن لا إله إلاّ الله هي كلمة الحق والعروة الوثقى ، ومراده بذلك التوحيد ، ويبيّن ذلك أنه ذكر أنها التي يتم تلقين الموتى بها عند الموت ، لمخالفة الكفرة الذين لم يوحّدوا الله ﷻ و لم يعبدوه .

٢٥ــ وأما ابن العربي[3] فعند شرحه حديث : ((**لو يعلم الناس ما في النداء ...**))[4] قال :

((أما فضل النداء فمعلوم ، وأصوله أربعة : أحدها : ما فيه من توحيد الله تعالى وتعظيمه ، والشهادة لرسوله ، والدعاء لعبادته))[5] .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ برقم (٤٦٧٥) ، الفتح (٣٤١/٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النــزع وهو الغرغرة ، برقم (٢٤) (٥٤/١) .

(٢) المحرر الوجيز (٣٥٠/١٢) . ط. القطرية الأولى – الدوحة ١٤٠٢هـــ .

(٣) أبو بكر محمّد بن عبدالله بن محمّد المعافري ، الإشبيلي المالكي ، قاض من حفاظ الحديث ، كان فصيحًا أديبًا شاعرًا ، كثير الخير ، مليح المجلس . صنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، ومنها : عارضة الأحوذي في شرح الترمذي ، وأحكام القرآن ، والعواصم من القواصم ، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس ، وغيرها .
انظر : الديباج (٣٧٦) ، والأعلام (٢٣٠/٦) .

(٤) خرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأذان ، باب الاستهام في الأذان . الفتح (٩٦/٢) برقم (٦١٥) ، ومسلم في كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها (٣٢٣/١) برقم (٤٣٧) .

(٥) القبس (١٩٨/١) ط. دار الغرب الإسلامي – ط. الأولى ١٩٩٢م ، بيروت . لبنان .

٢٦ــ وقال - في معرض كلامه عن التوحيد - :

« وبهذا المعنى وقع البيان في قوله ﷺ لأبيّ بن كعب : « **أي آية في القرآن أعظم ؟** » . قال : ﴿ الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم ﴾ . قال : « **ليهنك العلم يا أبا المنذر !** »[1] .

وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها ، كما صار قوله ﷺ : (**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلاّ الله ...**) الحديث[2] . أفضل الذكر لأنها كلمات حوت جميع علوم التوحيد ... فإن الله ﷻ جمع التوحيد كله في آية الكرسي ... »[3] .

٢٧ــ وفي حديثه عن المجزئ من الرقاب في العتق ، بعد استشهاده بحديث الجارية وقول النبي ﷺ فيه : « **أتشهدين أن لا إله إلاّ الله ؟** » قال :

« بيّن ﷺ شرط الإيمان ، وحقيقة الإيمان ... » . ثم قال :

« ويثبت الإيمان بما أثبته النبي ﷺ ، وهي شهادة الحق : لا إله إلاّ الله محمّد

---

(١) خرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٦/١) برقم (٨١٠) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٢/٥) برقم (٢١٢٧٨) .

(٢) خرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب في دعاء يوم عرفة (٥٧٢/٥) برقم (٣٥٨٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٤/٤) برقم (٨٣٩١) ، وعبدالرزاق في مصنفه (٣٧٨/٤) برقم (٨١٢٥) .
قال الألباني رحمه الله بعد إيراده شواهد للحديث : " وجملة القول أنّ الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد " . اهـ السلسلة الصحيحة (٨/٤) برقم (١٥٠٣) ، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦/٢) . فالحديث حسن لغيره .

(٣) القبس (٢٣٢/١-٢٣٣) . تحقيق د. محمّد عبدالله ولد كريم ، ط. دار الغرب الإسلامي ، ط. الأولى ١٩٩٢م - بيروت ، لبنان .

رسول الله ... »[1] .

فسمى ما في النداء – من قول المؤذن : أشهد أن لا إله إلاّ الله – توحيداً ، وبين أنها حقيقة الإيمان وشرطه ، مما يجلي معنى التوحيد الشرعي .

٢٨ــ وذكر القاضي عياض[2] أن عصمة الدم تحصل بقول : لا إله إلاّ الله ، فقال :

« اختصاص عصمة النفس والمال بمن قال : لا إله إلاّ الله ، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان .. فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى بعصمته بقول : لا إله إلاّ الله ، إذ كان يقولها في كفره »[3] .

وبين عند حديث : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلاّ الله ...** »[4] أهمية التوحيد ، فقال :

٢٩ــ « وقد نبه ﷺ على أفضلها بالتوحيد المتعين على كل مسلم ، الذي لا يصح شيء من هذه الشعب إلاّ بعد صحته »[5] .

---

(١) القبس (٩٦٦/٣) .

(٢) هو القاضي عياض بن موسى بن عمرون ، اليحصبي السبتي ، أبو الفضل ، عالم المغرب ، إمام أهل الحديث في وقته ، كان عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، بصيرًا بالأحكام ، عاقدًا للشروط ، حافظًا لمذهب مالك رحمه الله ، شاعرًا مجيدًا ، خطيبًا بليغًا ، صبورًا حليمًا ، جميل العشرة ، جوادًا ، سمحًا كثير الصدقة ، صلبًا في الحق . من تصانيفه : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، والغنية ، وترتيب المدارك ، وإكمال المعلم في شرح صحيح مسلم ، وشرح حديث أم زرع ، وغيرها . مات مسمومًا سنة ٥٤٤هـ . انظر : الديباج (٢٧٠) ، والأعلام (٩٩/٥) .

(٣) إكمال المعلم (٢٤٦/١) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٦٣/١) برقم (٣٥) . وروى بعضه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان . الفتح (٥١/١) برقم (٩) .

(٥) إكمال المعلم (٢٧٢/١) .

فما ذكره يبين اهتمامه ببيان معنى التوحيد ، فقد جعل عصمة الدم تتوقف على التوحيد ، وأن « لا إله إلاّ الله » هي التوحيد الذي عليه تتوقف صحة شعب الإيمان .

٣٠ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾ قال القرافي[١] :

« لما حذّر تعالى من كتمان الحق ، بيّن أنّ أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد » .

وذكر أبو العباس القرطبي[٢] أن كلمة التوحيد هي : لا إله إلاّ الله ، وبها يحكم بالإسلام .

٣١ــ قال عند حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله** » :

« ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط ؛ حكم له بحكم الإسلام ... » .

---

(١) هو أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن ، شهاب الدين الصنهاجي ، القرافي ، أحد الأعلام المشهورين ، انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك ، كان بارعًا في الفقه والأصول والعلوم العقلية ، أخذ الكثير من علومه على يد الشيخ عز الدين الشافعي الملقب بسلطان العلماء ، صنف كتاب الذخيرة في الفقه من أجلّ كتب المالكية ، وكتاب القواعد ، وكتاب شرح التهذيب ، وكتاب الانتقاد في الاعتقاد . مات سنة ٦٨٤هـ .

انظر : الديباج (١٢٨) ، والأعلام (١/٩٤) .

(٢) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم ، أبو العباس الأنصاري القرطبي ، فقيه مالكي من رجال الحديث ، وكان من العلماء المعروفين في الحديث والفقه والعربية ، وغير ذلك . له شرح على صحيح مسلم أحسن فيه وأجاد ، سماه المفهم ، واختصر صحيحي البخاري ومسلم . مات سنة ٦٥٦هـ .

انظر : الديباج (١٣٠) ، والأعلام (١/١٨٦) .

٣٢ـــ « ... ثم النطق بالشهادتين يدل على الدخول في الدين ، والتصديق بكل ما تضمنه »[١] .

ونحو ذلك ما ذكره عند حديث عمرو بن العاص ، وفيه : « **وإن أفضل ما نُعِدُّ : شهادة أن لا إله إلاّ الله** »[٢] ، بقوله :

٣٣ـــ « أي : أفضل ما نتخذه عُدَّةً للقاء الله تعالى : الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده ، وتصديق رسوله ﷺ ، والنطق بذلك ... ويتأكّد أمر النطق بالشهادتين عند الموت ، ليكون ذلك خاتمة أمره ، وآخر كلامه »[٣] .

٣٤ـــ وذكر عند حديث وفد عبد القيس ، وفيه : قال : « **آمركم بالإيمان بالله وحده** » . قال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ...** »[٤] ، قال :

« إنما قصد إلى ذكر الأركان الأربع ، التي هي : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، ثم ظهر أنهم أهل غزو وجهاد ، فبين لهم وجوب أداء الخمس ... »[٥] .

فجعل التوحيد هو شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وهو معنى التوحيد في الشرع .

---

(١) المفهم (١/١٨٧-١٨٨) . ط. دار ابن كثير - بيروت ، ط. الأولى ١٤١٧هـــ .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١/١١٢) برقم (١٢١) .

(٣) المفهم (١/٣٢٨) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان . الفتح (١/١٢٩) برقم (٥٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (١/٤٦) برقم (١٧) .

(٥) المفهم (١/١٧٥) .

٣٥ــ أما ابن أبي جمرة[١] ؛ فقد ذكر أن التوحيد هو قول : لا إله إلاّ الله ، عند شرحه حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ...** » ، قال :

« فيه دليل لقول من يقول بأن الكفار ليس[٢] مخاطبين بفروع الشريعة ؛ لأنه ﷺ أخبر أن القتال إنما يكون على التوحيد دون الفروع ، والتوحيد ما ذكر من قوله : لا إله إلاّ الله »[٣] .

٣٦ــ وذكر أنه لا بد من الإقرار بكلمة التوحيد وإعلانها ، فقد ترجم للحديث بعنوان :

« حديث قتال المشركين حتى يعلنوا بكلمة التوحيد » . ثم قال عند رواية : « **حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله** » : « على مقتضى ما جئتُ به وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الجلال والكمال ، ونفي الشريك والضد »[٤] .

فنص على أن كلمة التوحيد هي الإقرار بــ « لا إله إلاّ الله » ، ولا بد من إعلانها ، وهو معنى التوحيد في الشرع .

---

(١) هو عبدالله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة ، الأزدي الأندلسي ، أبو محمّد ، من العلماء بالحديث ، مالكي أصله من الأندلس ، ووفاته بمصر . مؤلف مختصر البخاري ، وشرحه بهجة النفوس ، والمرائي الحسان في الحديث والرؤيا . مات سنة ٦٩٥هــ . انظر : نيل الابتهاج (٢١٦) ، والأعلام (٨٩/٤) .

(٢) كذا في الأصل ، والصواب : ليسوا .

(٣) بهجة النفوس (١٣٢/٣) .

(٤) المرجع نفسه (١٣٢/٣) .

٣٧ـــ أما ابن جزي[١] ؛ فقد بين أن الرسل متفقة على التوحيد الذي هو : لا إله إلاّ الله .

فعند قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾[٢] قال :

« رد على المشركين ، والمعنى : هذا الكتاب الذي معي ، والكتب التي من قبلي ليس منها ما يقتضي الإشراك بالله ، بل كلها متفقة على التوحيد » .

٣٨ـــ ثم إنه أفصح عن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، فقال عند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[٣] :

« الآية رد على المشركين ، والمعنى : أن كل رسول إنما أتى بلا إله إلاّ الله »[٤] .

فنص على التوحيد الذي جاءت به الرسل ؛ وهو لا إله إلاّ الله .

٣٩ـــ وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[٥] بقوله :

« المقصود الأعظم من هذه الآية : الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عُبد من دونه ،

---

(١) هو أحمد بن محمّد بن عبدالله بن جزي الكلبي ، ويكنى أبا جعفر ، فقيه من العلماء بالأصول واللغة ، كان من أهل الفضل والنـــزاهة ، من كتبه : القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، والتسهيل في علوم التنـــزيل ، ووسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم ، وغيرها . مات ٧٤١هـــ .

انظر : الدرر الكامنة (١/٢٩٤) ، والديباج (١٥) ، والأعلام (٥/٣٢٥) .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٤ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٤) التسهيل لعلوم التنـــزيل (٣/٥٢-٥٣) . ط. دار الكتب الحديثة – القاهرة .

(٥) سورة البقرة : ٢١ .

بقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾[1] ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلاّ الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام الذي قاعدته التوحيد »[2] .

٤٠ـــ وأما الزرقاني[3] فعند شرحه لحديث الجارية ، وفيه قوله ﷺ : « **أتشهدين أن لا إله إلاّ الله ؟ ...** » ، قال :

« وفيه أنه لا بد مع الشهادتين من الإقرار بالبعث ... والمعنى : أنه لا يحكم بالإسلام إلاّ بالإقرار بالشهادتين ، وكذا الإقرار بالبعث »[4] .

٤١ـــ وذكر محمّد بن يحيى المختار[5] عند حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ...** » الحديث[6] :

« أي : إلى أن يقرّوا لله تعالى بالوحدانية ، أي : التفرد بالألوهية ، ولمحمد ﷺ

---

(١) سورة البقرة : ٢٢ .

(٢) التسهيل (١/٧٠) .

(٣) هو محمّد بن عبدالباقي بن يوسف الأزهري المالكي ، أبو عبدالله ، خاتمة المحدثين بالديار المصرية . قال المرادي : الناسك النحرير الفقيه العلامة ، من كتبه : تلخيص المقاصد الحسنة ، وشرح البيقونية ، وشرح موطأ الإمام مالك . مات سنة ١١٢٢هـ .
انظر : سلك الدرر (٤/٣٢) ، والأعلام (٦/١٨٤) .

(٤) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٤/٨٦) . ط. دار المعرفة – بيروت ١٤٠١هـ .

(٥) هو محمّد بن يحيى بن محمّد المختار بن الطالب بن عبدالله الشنقيطي الولاتي ، عالم بالحديث من علماء المالكية ، من كتبه : إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك ، وفتح الودود على مراقي الصعود ، وشرح البخاري .
انظر : شجرة النور (٤٣٥) ، والأعلام (٧/١٤٢) .

(٦) سبق تخريجه ص ٢٩ .

بالرسالة من عند الله تعالى))[1] .

ومراده أن الكف عن قتال الناس متوقف على الإقرار بالشهادتين ، وهو معنى التوحيد ، وكذا جعل معنى الوحدانية : الإقرار بإفراد الله بالعبادة .

٤٢ـــ وعرف محمّد الأمين الشنقيطي[2] التوحيد ، وحدّ ضابطه ، فقال :

((توحيده جلّ وعلا في عبادته ، وضابط هذا النوع من التوحيد : هو تحقيق معنى لا إله إلاّ الله))[3] .

٤٣ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون ﴾[4] ، قال :

((ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله ، الذي تضمنته كلمة لا إله إلاّ الله ، جاء موضّحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[5]، وقوله تعالى :

---

(١) نور الحق الصبيح في شرح بعض أحاديث الجامع الصحيح (٧٧٠) . ط. دار عالم الكتب – الرياض .

(٢) هو العلامة محمّد الأمين بن المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي ، كان عالمًا عاملاً ورعًا ، اعتنى بالتفسير ، ولد وتعلم بشنقيط (موريتانيا) ، ودرس بها ، ثم حج في (١٣٦٧) واستقرّ مدرّسًا في المدينة المنورة ، ثم الرياض ، وأخيرًا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . من كتبه : أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ، وغيرها . مات سنة ١٣٩٣هـ .
انظر : مقدمة أضواء البيان (١/١٩-٢١) بقلم عطية محمّد سالم ، والأعلام (٦/٤٥) .

(٣) أضواء البيان (٣/٤١٠) .

(٤) سورة الزخرف : ٤٥ .

(٥) سورة النحل : ٣٦ .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[1] ، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته))[2] .

فنص على أنّ التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلاّ الله ، وهو معنى التوحيد في الشرع .

٤٤ـــ وذكر ابن باديس[3] عند قوله تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذمومًا مخذولاً ﴾[4] :

أنّ ((هذا هو أساس الدين كله ، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ، ولا تقبل الأعمال إلاّ به ، وما أرسل الله رسولاً إلاّ داعياً إليه ، ومذكّراً بحججه ، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة : لا إله إلاّ الله))[5].

فذكر أن ((لا إله إلاّ الله)) هي دعوة جميع الرسل ، والرسل دعوا إلى عبادة الله وحده ، كما قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) أضواء البيان (٧/٢٥٤) .

(٣) هو عبدالحميد بن محمّد بن المصطفى بن مكي بن باديس ، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، أصدر مجلة الشهاب ، وكان شديد الحملات على الاستعمار ، له تفسير القرآن الكريم ، اشتغل به تدريسًا زهاء ١٤ عامًا ، وعرف باسم مجالس التذكير . مات سنة ١٣٥٩هـــ .
انظر الأعلام (٣/٢٨٩) .

(٤) سورة الإسراء : ٢٢ .

(٥) تفسير ابن باديس (٦٢) . ط. دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان . ط. الأولى ١٤١٦هـــ .

(٦) سورة النحل : ٣٦ .

لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[1] .

وهذا يبيّن المعنى الشرعي للتوحيد .

٤٥ــ وبين محمّد المكي الناصري[2] أن قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾[3] يشير إلى عقيدة التوحيد الخالص[4] ، ففسر معنى الآية : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو ﴾ : أنه التوحيد .

٤٦ــ أما محمّد بن أحمد الشهير بميارة[5] ، فقد ذكر عند نظم ابن عاشر[6] عن الشهادتين :

قواعد الإسلام خَمس واجبات وهي الشهادتان شرط الباقيات

« ولما كانت بقية القواعد الأربع المذكورة بعدها مبنيّةً عليها ، ولا يصحّ شيء منها إلاّ بعد وجودها ، كما يصرح به في قوله بعد : وهي الشهادتان شرط الباقيات

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) هو محمّد المكي الناصري ، رئيس رابطة العلماء وعضو مجلس الوصاية ، عضو الأكاديمية الملكية بالمغرب ، أسس حزب الوحدة المغربي وترأسه ، ثم حله بعد أن أحرزت المغرب استقلالها . وكان خطيبًا لأكبر مساجد المغرب ، وانتخب أمينًا عامًّا لرابطة علماء المغرب ، وله من الكتب : الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية ، والتيسير في أحاديث التفسير . انظر الأعلام (٢/١٤٥) .

(٣) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (١/٩٩) .

(٥) هو محمّد بن أحمد بن محمّد ، أبو عبدالله ، ميارة ، فقيه مالكي ، من أهل فاس ، من كتبه : الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام ، والدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين. مات سنة ١٠٧٢هـ . انظر الأعلام (٦/١١) .

(٦) هو عبدالواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأندلسي ، فقيه ، له نظم ، نشأ وتوفي في فاس ، له تصانيف منها : المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ، ومنظومة في فقه المالكية ، وتنبيه الخلان في علم رسم القرآن ، وفتح المنان في شرح مورد الظمآن . مات سنة ١٠٤٠هـ . انظر الأعلام (٤/١٧٥) .

سماها : أم القواعد ، أي : شرطاً شرعيًّا لصحة بقية القواعد))[1] .

٤٧ــ وعند كلامه على كلمة التوحيد قال :

((وجعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام ، ولم يقبل من أحد الإيمان إلاّ بها))[2] .

فبين معنى التوحيد ؛ إذ به يحكم للناس بالإسلام .

٤٩ــ وقال ابن الحاج [3] بعد إيراده حديث : ((**لقّنوا موتاكم لا إله إلاّ الله**)):

((فليلقنه كلمتي التوحيد برفق ، وذلك بأن يقول : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله))[4] .

ففسّر كلمة التوحيد بأنه قول : لا إله إلاّ الله ، وهو المعنى الشرعي .

---

(١) الدر الثمين والمورد المعين لميارة (/٢١) . ط. دار الفكر .

(٢) الدر الثمين والمورد المعين (١/٥١) .

(٣) هو محمّد بن محمّد بن الحاج ، أبو عبدالله العبدري ، الفاسي ، نزيل مصر ، لزم الشيخ أبا محمّد بن أبي جمرة وانتفع بذلك ، جمع كتابًا سماه : المدخل ، قال عنه ابن حجر : " كثير الفوائد ، كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها ، وأكثرها مما ينكر ، وله : شموس الأنوار وكنوز الأسرار ، وبلوغ القصد والمنى في خواص أسماء الله الحسنى . مات سنة ٧٣٧هـ .

انظر : الدرر الكامنة (٤/٣٥٥) ، والأعلام (٧/٣٥) .

(٤) المدخل (٣/٢٢٩) . ط. دار الفكر ١٤٠١هـ .

المبحث الثاني

معنى كلمة التوحيد

كلمة التوحيد هي أصل الدين وأساسه ، وكلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة ، والجنة والنار ، وهي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام حتى نبينا محمّد ﷺ . وهي كلمة التقوى ، والعروة الوثقى .

وقد تظاهرت النصوص من الكتاب والسنة لبيان معنى توحيد العبادة :

قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون ﴾[١] ، فلم يقروا بهذه الكلمة ، وذلك لأنهم يعلمون معناها ، إذ لو كان مجرد قول لا يلزم منه نبذ جميع المعبودات سوى الله ﷻ لقالوها ، ولذا أخبر الله تعالى واصفاً حال المشركين بقولهم : ﴿ أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب ﴾[٢] فعلموا ما يراد من هذه الكلمة ، فلم ينطقوا بها .

وجميع الأنبياء إنما دعوا لعبادة الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[٣] . وقد ردّ قوم هود ما دعا إليه نبيهم هود بقولهم : ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾[٤] ، فعلموا ما أراد من دعوتهم ، من ترك كل ما يعبده هؤلاء وآباؤهم من قبل ، إلى عبادة الله وحده ، وما ذاك إلاّ أنهم علموا معنى كلمة التوحيد وما يراد منها .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله

---

(١) سورة الصافات : ٣٥ .

(٢) سورة ص : ٥ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٤) سورة الأعراف : ٧٠ .

هو العلي الكبير ﴾[1] . فبيّن الله تعالى أن الذي يعبد هؤلاء المشركون من دونه سبحانه – من الأصنام والأوثان – هو الباطل الذي يضمحل ويفنى ، وأن عبادته ﷻ وحده هي الحق ؛ لأن كل من دونه متذلل منقاد[2] .

وقد تقدم معنى التوحيد في الشرع ، وأنه الإقرار بشهادة أن لا إله إلاّ الله .

وسيتم الكلام في هذا الفصل عن معنى « لا إله إلاّ الله » عند المالكية ، وقبل عرض أقوالهم أذكر معنى الألوهية في اللغة .

قال في ترتيب القاموس : فالألوهية لفظ منسوب إلى الإله ، والإله كفعال بمعنى مألوه ، وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متّخذه ، فالإله – على هذا – هو المعبود[3] .

وهذا التفسير للإله بأنه المعبود هو الحق الذي جاء به الكتاب والسنة .

قال تعالى – حاكيا قول كفار قريش – : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

وهو الذي سار عليه بعض أئمة المالكية ؛ يتضح ذلك من خلال عرض أقوالهم في بيان معنى « لا إله إلاّ الله » .

فقد جاء عن الإمام مالك أنه فسر الإله بالمعبود ، فعند قول الله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[4] :

١ـــ قال المخزومي : سمعت مالكاً يقول : « لا يرى شيئا إلاّ عبده » .

فهذا من مالك رحمه الله تفسير للإله بأنه المعبود[5] .

يبين ذلك تفسير عكرمة للآية ، حيث قال :

« أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه ويستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً

---

(١) سورة لقمان : ٣٠ .

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٢٣/١٠) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط (١٧٣/١) . ط. دار الفكر ، الطبعة الثالثة .

(٤) سورة الجاثية : ٢٣ .

(٥) القبس لابن العربي (١٠٨١/٣) .

وهويه اتخذه إلهاً))[1] .

وقال محمّد الأمين :

((إيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية : أن الواجب الذي يلزم العمل به هو أن يكون جميع أفعال المكلف مطابقا لما أمره به معبوده جل وعلا ، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه ، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقـــه من العبادة والطاعة إلى هواه ، وإذن فكونه اتخـــذ إلهه هواه في غاية الوضوح)) [2] .

فسمى الإله بالمعبود ، وذكر أن هذا هو قول العلماء في تفسير الآية .

٢ـــ وأما أبو محمّد بن عبد البصري[3] فقد بين أن الخلق يقرّون بربوبية الخالق ، وإنما جحدوا معرفة توحيد العبادة ، فقال :

((الخلق يقرون بربوبيته ، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به ، على ألسنة السفراء ...))[4] .

فقوله : ((التوحيد الذي تعبدهم به)) أي : أن يفردوه تعالى بالعبادة ، وهو معنى ((لا إله إلاّ الله)) في مثل قوله عن نوح وهود وصالح وشعيب : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

وهذا معنى ((لا إله إلاّ الله)) ، والذي ذكر الله عن سائر رسله في قوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/١٦٦-١٦٧) . وقد قال ابن جرير في (٢٦٢/١١) : أفرأيت – يا محمّد – من اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما هوى من شيء دون إله الحق .

(٢) أضواء البيان (٦/٣٣٠) .

(٣) هو القاسم بن عبد البصري ، كان من العلماء الأجلاء على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في وقته علمًا وعملاً . قال المناوي : كان جوادًا سخيًّا صوفيًّا وفيًّا . وكان يحظى بتقدير واحترام العلماء والمشايخ . مات سنة ٥٨٠هـــ .

انظر : طبقات المناوي الكبرى (١/٦٩٢) ، والسهروردي حياته وتصوفه د. عائشة المناعي (٣٩) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٨/٥٠٩) .

٣ـــ أما الباقلاني فقد سبق[١] ذكر تعريفه للتوحيد ، وفيه :

« ... وإله واحد فرد معبود ، على ما قرر به قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾ »[٢] .

٤ـــ وقال – مبينا معنى التوحيد : « فليس معه إله سواه ، ولا يستحق العبادة إلاّ إياه ، فلا شبيه له ، ولا نظير . ونريد بذلك أن ليس معه من يستحق الإلهية سواه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ [٣] ومعناه : لا إله إلاّ الله »[٤] .

فنص على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده ، واستدل بهذه الآية التي يخبر الله تعالى فيها عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ، مما يظهر معنى « لا إله إلاّ الله » .

٥ـــ وأما ابن بطال فبين معنى « لا إله إلاّ الله » ، حيث قال :

« فدعاهم الرسول إلى الإقرار بالوحدانية ، وخلع ما دونه من الأوثان ، فمن أقر منهم بذلك كان في الظاهر داخلاً في صبغة الإسلام ... »[٥] .

فقوله : « خلع ما دونه من الأوثان » تفسير للقسم الأول من كلمة التوحيد « لا إله » ، وقوله : « إلى الإقرار بالوحدانية » تفسير للقسم الثاني « إلاّ الله » .

٦ـــ أما ابن عبد البر فقد ذكر أن المعنى الصحيح المجتمع عليه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ... ﴾ : أنه المعبود من أهل السماء وأهل الأرض .

قال في رده على الجهمية : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله .. ﴾[٦] :

« فوجب حمل الآيات على المعنى الصحيح المجتمع عليه ، وذلك أنه في السماء إله

---

(١) انظر ص ٣٨ .

(٢) الإنصاف للباقلاني (٢٣) .

(٣) سورة النساء : ١٧١ .

(٤) الإنصاف (٣٣-٣٤) .

(٥) شرح صحيح البخاري (١٢١/٥) .

(٦) سورة الزخرف : ٨٤ .

معبود من أهل السماء ، وفي الأرض إله : معبود من أهل الأرض » .

قال : « وكذلك قال أهل العلم بالتفسير »[1] .

٧ـــ وبعد أن ذكر أبو الوليد الباجي تعدُّد المعبودات بيّن أنّ محمدًا ﷺ فيما جاء به دعا إلى عبادة الله وحده وترك ما سواه ، فقال :

« وعبدت المجوس نيرانها ، والثنوية نورها وظلامها ، والعرب أصنامها وأوثانها ، وادعوا لله الصاحبة والأولاد ، وجعلوا له الإشراك والأنداد ، فابتعثه الله من خير الأمم ، وهم بنو إسماعيل ، وهم قريش ... فقام فيهم يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان »[2] .

ثم ذكر أن جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد ، إذ هو المعبود بحق .

يتضح ذلك من قوله : « ودعوهم إلى عبادة الرحمن » ، وهو معنى « إلاّ الله »، وما ذكره من تعدد المعبودات الباطلة تفسير « لا إله » ، فالرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد .

فظهر بذلك معنى كلمة التوحيد : لا إله إلاّ الله .

٨ـــ وقال الطرطوشي :

« فإذا قلت : لا إله إلاّ الله ، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته ، مع الإقرار بأنه الإله وحده »[3] .

فبين تحريم الشرك في عبادة الله ، والإقرار بالله وحده ، الذي يستحق العبادة وحده .

وهذا نص في أن معنى « لا إله إلاّ الله » نفي العبادة عما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، يبيّن ذلك قوله :

---

(١) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (١١/٢) .

(٢) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٨٠-٨١) . ط. البحوث العلمية - الثانية ١٤٠٧هـــ .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٧٨) .

٩ــ « واعلم أنه إنما شرف لفظ التهليل على سائر الأذكار ، لأنها كلمة كاملة كنهها نفي وإثبات ، تتضمن نفي كل ما سوى الله إلهاً ، وإثباته سبحانه إلهاً »[١] .

١٠ــ وبين أيضاً أن الله عز وجل دعا لتوحيده وعبادته ، فبعد إيراده قول الله عز وجل : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً ﴾[٢] ، قال :

« أي : أفردوه بالتوحيد » .

١١ــ ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾[٣]، فقال : « ما يصنع بكم ، وأي مقدار لكم لولا توحيدكم وعبادتكم لله تعالى »[٤] .

فبين أهمية اقتران العبادة بالتوحيد ، وهو معنى « لا إله إلاّ الله » ، أي : إفراد الله تعالى بالعبادة .

١٢ــ وذكر قول الله تعالى : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾[٥] ، ثم قال : « أي : لا ندعو من دون الله تعالى ربًّا ولا نعبده »[٦] .

ففي قوله ذلك توحيد الله تعالى ، وإفراده سبحانه بالعبادة وحده ، وهذا يبن عنايته واهتمامه رحمه الله ببيان هذا النوع من التوحيد ، وإظهار معناه ، إذ في قوله : « لا ندعو من دون الله ربًّا » أي : لا نتخذ ربًّا سوى الله نعبده ، وإنما ندعو الله تعالى ونعبده وحده ، وهذا معنى « لا إله إلاّ الله » .

١٣ــ وأما ابن رشد ، فقال رحمه الله : « وأنه أوجب على عباده أن يؤمنوا به وحده ، ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه قال في كتابه الذي أنزل على

(١) الدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي (١٩٦) .

(٢) سورة الجن ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الفرقان : ٧٧ .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٣٦) .

(٥) سورة الأنعام : ٧١ .

(٦) الدعاء المأثور وآدابه (٣٣) .

رسوله : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾[1]))[2] .

وما ذكره ظاهر في بيان أن معنى ((لا إله إلاّ الله)) : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وهو ما أراده بقوله : ((أن يؤمنوا به وحده)) .

١٤ـــ وقال ابن عطية – عند قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنى تصرفون ﴾[3] : ((أي المستوجب للعبادة والألوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق ... وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منـــزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله ...))[4] .

١٥ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذي يُنَزِّلُ الغيثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ ﴾[5] قال :

((هذا تعديد نعمة الله تعالى ، الدالة على وحدانيته ، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه من الأنداد))[6] .

١٦ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ ، قال :

((في الآية نهي عن عبادة الأصنام والشياطين ، وكل مدعو من دون الله تعالى))[7] .

وهذا يبين أن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد وحده ، وهو معنى التوحيد.

١٧ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ... ﴾[8] بين أنه في حال توحيد الله تعالى ودعائه دون من سواه – من الآلهة والأنداد – تكفرون

---

(١) سورة الفتح : ١٣ .

(٢) البيان والتحصيل (٢٥/١) .

(٣) سورة يونس : ٣٢ .

(٤) المحرر الوجيز (١١٨/٣) .

(٥) سورة الشورى : ٢٨ .

(٦) المحرر الوجيز (١٧١/١٣) .

(٧) المحرر الوجيز (١٨٢/٥) .

(٨) سورة غافر : ١٢ .

بذلك ، أي : إذا أفرد الله تعالى بالدعاء والعبادة ، وهذا يجلي معنى ((لا إله إلاّ الله)).

قال : ((معناه : بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد))(١) .

١٨ــ وفسر العبادة بالتوحيد ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾(٢) ، قال : ((معناه : وحدوه وخضوه بالعبادة))(٣) .

١٩ــ أما ابن العربي فقد فسر الإله أنه المعبود ، وأن العبادة هي الحكمة التي خلق لأجلها الجن والإنس ، فعند قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾(٤) قال : ((هذه الآية هي أصل في التوحيد ، ويتعلق بها مسائل ، ومنها : بيان معنى الإله)) .

٢٠ــ قال : ((الإله : هو المعبود ، وهي الفائدة التي خلق لأجلها الخلق : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾(٥)))(٦) .

٢١ــ ثم بين استحقاق الله للعبودية ، والتحذير من الشرك في عبادته ، لانفراده بالإلهية والربوبية والملك ، فقال :

((وفي قوله : ﴿ إله واحد ﴾ ، فوصف نفسه بالإلهية ما يقتضي استحقاق العبودية ، فدل على أن صلاح التوحيد مرتبط بصلاح العبودية ، وأن فسادها مرتبط بفسادها ، والمعنى: أن العبادة مرتبطة بالتوحيد ، فإن صلح قبلت العبادة ، وإلا فلا)).

وعند الآية نفسها قال : ((وفيها : التحذير من الرياء في عبادته ، والشرك به ، لانفراده بالألوهية والربوبية والملك ...))(٧) .

فبين رحمه الله انفراد الله تعالى بالعبادة ، وأنه المستحق لها ، وحذر من الشرك في

---

(١) المحرر الوجيز (٤/٥٥٠) .

(٢) سورة البقرة : ٢١ .

(٣) المحرر الوجيز (١/١٠٥) .

(٤) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٦) قانون التأويل للقاضي ابن العربي (٣٠٠) . ط. دار الغرب .

(٧) ذكره المحقق عن ابن العربي في معرفة قانون التأويل (٥٠/ب) – نسخة الإسكوريال (٢٩٧) .

عبادته تعالى ؛ لأن الله تعالى منفرد بها ، وهو معنى « لا إله إلاّ الله » .

ولا يزال حديثه عن المسائل في هذه الآية ، فقد ذكر أن المعبود هو الله وحده لا شريك له ، الرحمن الرحيم .

٢٢ــ وبين معنى النفي والإثبات في قول « لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له » ، فقال :

« لا إله إلاّ الله : نفي لكل إله سواه بجميع المعاني ، وقوله : « وحده » تأكيد للنفي من كل وجه . « لا شريك له » إشارة إلى نفي أن يكون هو جعله معيناً أو ظهيراً »[1] .

ففي قوله : « نفي لكل إله سواه » يبينه تفسيره للإله بالمعبود فيما تقدم ، فمعنى نفي الإله عنده : نفي المعبود سوى الله تعالى .

٢٣ــ وأما القاضي عياض فعند شرحه لكلمة التوحيد التي تضمنها الأذان قال :

« وصرح بإثبات الوحدانية والإلهية ، ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه ، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد »[2] .

فمراده بالإثبات : إثبات الوحدانية في قوله « إلاّ الله » ، ومراده بالنفي : نفي الإلهية عما سوى الله .

٢٤ــ وأما القرافي فقد بين أنّ معنى النفي تقدير صفة مضمرة ، فقال :

« وليس المراد من النفي نفي المعبود كيف كان ، لوجود المعبودين في الوجود ، كالكواكب والأصنام ، بل ثم صفة مضمرة ؛ تقديره : لا معبود مستحق للعبادة إلاّ الله ، ومن لم يضمر هذه الصفة لزمه أن يكون تشهده كذباً »[3] .

---

(١) القبس (٢/٤٠٧) .

(٢) إكمال المعلم (٢/٢٥٣-٢٥٤) .

(٣) نقله في مواهب الجليل (١/٤٣٩) .

فهذا التقدير الذي ذكره يبين عنايته واهتمامه ببيان معنى : لا إله إلاّ الله[1] .

٢٥ــ وذكر أيضا أن الله تعالى واحد في ذاته لا نظير له ، ولا شريك ، وأن العبادة حق الله تعالى ، ولا يستحقها غيره سبحانه ، فقال :

« في ذكر مسائل في العقيدة بالله ﷻ : ... وأنه واحد في ذاته لا نظير له ، ولا شريك ، ولا يستحق العبادة غيره سبحانه »[2] .

وما أجمله هنا في شأن العبادة ، فصّله في موضع آخر ، فقال :

« الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالإجماع ، فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها ، والصوم على اختلاف رتبه في الفرض والنفل والنذر ، فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى ، وكذلك الحج ونحو ذلك ، وكذلك الخلق والرزق والإماتة والإحياء ... فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى ، وتوحده بهذه الأمور ... وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والألوهية ... »[3] .

فما أجمل هذا البيان وأبدعه وأتمه لمعنى « لا إله إلاّ الله » ، أي : لا معبود بحق إلاّ الله .

٢٦ــ وذكر مثل هذا المعنى الصفتي[4] في تفسير « لا إله إلاّ الله » بقوله :

« جملة (لا إله إلاّ الله) خبر ، ومعناه الحقيقي : لا معبود بحق إلاّ الله ، ويلزم من ذلك كونه مستغنياً عما عداه ، ومفتقراً إليه كل ما سواه »[5] .

---

(١) وتقدير الصفة المضمرة التي ذكرها هو الصواب ، قال البقاعي : لا إله إلاّ الله ، أي : انتفى انتفاءً عظيماً أن يكون معبودٌ بحق غير الملك الأعظم . فتح المجيد (٦٨) .

(٢) الذخيرة للقرافي (١٣/٢٣٢) .

(٣) الفروق للقرافي (٣/٤٨) . ط. دار الكتب العلمية .

(٤) هو يوسف بن إسماعيل الصفتي المصري المالكي ، فقيه نحوي واعظ ، تصانيفه : حاشية على الجواهر الزكية في حل ألفاظ العشماوية لابن تركي في الفقه ، ونزهة الأرواح في بعض أوصاف الجنة دار الأفراح . مات سنة ١١٩٣هــ . انظر معجم المؤلفين (١٣/٢٧٤) .

(٥) حاشية سنية وتحقيقات بهية (٦) . ط. الحلبي ١٣٦٧هــ .

٢٧ــ وبين أبو عبد الله القرطبي رحمه الله معنى « لا إله إلاّ الله » : لا معبود إلاّ الله ، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة ، قال – عند قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾[1] – : « قوله : لا إله إلاّ هو : نفي وإثبات ، أولها كفر ، وآخرها إيمان ، ومعناه : لا معبود إلاّ الله »[2] .

٢٨ــ وقال – عند قوله تعالى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾[3] – :

« ﴿ أنا ربكم ﴾ أي : إلهكم وحدي . ﴿ فاعبدون ﴾ أي : أفردوني بالعبادة »[4] .

٢٩ــ وذكر أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له ، فلا يعبد معه غيره ، قال – عند قوله تعالى : ﴿ وما من إله إلاّ الله الواحد القهار ﴾[5] – :

« ﴿ وما من إله ﴾ أي : معبود . ﴿ إلاّ الله الواحد القهار ﴾ : الذي لا شريك له »[6] .

وعند قوله تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾[7] قال :

« أي : لا تعبد معه غيره ، فإنه لا إله إلاّ هو ، نفي لكل معبود ، وإثبات لعبادته »[8] .

فما ذكره رحمه الله غاية في بيان معنى « لا إله إلاّ الله » ، حيث بين معنى النفي والإثبات ، وأنه لا معبود إلاّ الله وحده ، الذي يجب أن يفرد بالعبادة .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٣ .

(٢) تفسير القرطبي (٢/١٩١) .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٤) تفسير القرطبي (١١/٣٣٨) .

(٥) سورة ص : ٦٥ .

(٦) تفسير القرطبي (١٥/٢٢٤) .

(٧) سورة القصص : ٨٨ .

(٨) تفسير القرطبي (١٣/٣٢٢) .

٣٠ــ وأما أبو العباس القرطبي رحمه الله ، فقد بين معنى « لا إله إلاّ الله » ، وأنها تعني عبادة الله وحده دون ما سواه ، قال – عند شرحه حديث : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ...** » -:

« قد روي من طرق ، ففي بعضها : « **شهادة أن لا إله إلاّ الله** » ، وفي بعضها : « **على أن تعبد الله وتكفر بما دونه** »[١] ، فالأولى نقل للفظ ، والأخرى نقل بالمعنى ، والأصل نقل اللفظ ، وهو المتفق عليه »[٢] .

فالرواية الثانية كالمفسرة للأولى ، ومعناها ظاهر في بيان كلمة التوحيد .

٣١ــ وقال في تعريفه للوتر :

« إن الوتر يراد به التوحيد ، فيكون المعنى : أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحد ، ويجب التوحيد ، أي : أن يوحد ، ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه »[٣] .

٣٢ــ وعند شرحه حديث : « **أنت إلهي ، لا إله إلاّ أنت** » قال :

« أي : لا معبود غيرك ، ولا معروف بهذه المعرفة سواك »[٤] .

٣٣ــ وقال في موضع آخر :

« من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية ، ولا في الخلق ، ولا في العبادة ؛ دخل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ، الفتح (٤٩/١) برقم (٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان بهذه الرواية أيضًا ، وهي قوله ﷺ : " **على أن يعبد الله ويكفر بما دونه** " (٤٥/١) برقم (١٦) تحت باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام .

(٢) المفهم (١٦٩/١) .

(٣) المفهم (١٨/٧) .

(٤) المفهم (٣٩٩/٢) .

الجنة))[1] .

٣٤ــ وعند شرحه لحديث : ((**وجهت وجهي ...**)) :

(((**حنيفا**) أي : مائلاً عن جميع المعبودات سوى الله تعالى . (**نسكي**) أي : ما أتنسك به من القرب والعبادات))[2] .

٣٥ــ وأما الشاطبي رحمه الله فقد ذكر أن الله ﷻ هو المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له في ذلك ، قال – بعد إيراده قول الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدين ألا لله الدين الخالص ... ﴾ الآية[3] – :

((وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى كلها دالة على أن المقصود التعبد لله ، وإنما أوتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك ﴾[4] ، وقال : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو فهل أنتم مسلمون ﴾[5] ، وقال : ﴿ هو الحيُّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾[6] . ومثله سائر المواضع التي

---

(١) المفهم (٢٩٠/١) . والحديث خرجه مسلم عن ابن عباس فيما يقوله ﷺ في قيام الليل ، ونصه : " **اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلاّ أنت** " . في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (٥٣٢/١) رقم (٧٦٩) . وخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ ، الفتح (٣٧١/١٣) برقم (٧٣٨٥) .

(٢) المفهم (٤٠٠/٢) .

(٣) سورة الزمر : ٣ .

(٤) سورة محمّد : ١٩ .

(٥) سورة هود : ١٤ .

(٦) سورة غافر : ٦٥ .

نص فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقب بطلب التعبد لله وحده ... »[١] .

والآية التي أورد نص في التوحيد ، وقد فسّرها الشاطبي بما يدل على أن معنى « لا إله إلاّ الله » : لا معبود بحق إلاّ الله .

٣٦ــ وأما ابن أبي جمرة الأندلسي فقد ذكر عند شرحه حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ...** » أنه يفيد الإقرار بالوحدانية ، ونفي الشريك ... قال :

« يعني : على مقتضى ما جئت به ، وما جاء ﷺ به هو الإقرار بالوحدانية على ما هي عليه من الخلال والكمال ، ونفي الشريك والضدّ والصاحبة ... »[٢] .

٣٧ــ وذكر أن حقيقة التوحيد هي عبادة الله تعالى وحده ، وألا يشرك به شيئاً ، فعند شرحه حديث معاذ رضي الله عنه : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فقال : « **يا معاذ !** » . قلت : لبيك وسعديك . ثم قال مثله ثلاثاً : « **هل تدري ما حق الله على عباده ؟** » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً** » . ثم سار ساعةً فقال : « **يا معاذ !** » . قلت : لبيك وسعديك . قال : « **وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟** » . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق العباد على الله أن لا يعذّبهم** »[٣] . قال :

« وأشار بقوله ﷺ : (**أن يعبدوه**) إلى امتثال الحكمة في الأمر بالنهي ... وأشار بقوله : (**ولا يشركوا به شيئاً**) إلى حقيقة التوحيد »[٤] .

وذكر أن كل ما يعبد من دون الله من جملة الطواغيت .

---

(١) الموافقات (١/٥٥-٥٦) . ط. دار المعرفة – بيروت ، لبنان ١٤١٥هـ . ط. الأولى .

(٢) بهجة النفوس (٣/١٣٢) . ط. دار الجيل – بيروت ، لبنان . الطبعة الثالثة .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب إرداف الرجل خلف الرجل . (١٠/٤١٢ رقم ٥٩٦٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/٣٤٣ رقم ٣٠).

(٤) بهجة النفوس (٣/١٢١) .

٣٨ـــ فعند حديث أبي هريرة ﷺ ، ومنه : « **من كان يعبد شيئاً فليتبعه** » ، قال :

« ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم عمم بذكر الطواغيت دليل على أن كل ما يعبد من دون الله كائناً ما كان من جملة الطواغيت ... »[١] .

فحقيقة التوحيد : هي عدم الشرك ، وبطلان عبادة ما سوى الله ، وهذا يدل على أن معنى « لا إله إلاّ الله » : لا معبود بحق إلاّ الله .

وذكر التتائي[٢] أن الله ﷻ هو المعبود المستحق للعبادة وحده .

٣٩ـــ قال - عند شرحه قول ابن أبي زيد في مقدمة رسالته في باب الوحدانية ، وقوله : « وأن الله واحد » - :

« إذ معناه : لا معبود يستحق العبادة غيره ، ولا إله إلاّ هو »[٣] .

وهذا نص في أن معنى « لا إله إلاّ الله » : نفي شريك معبود معه ﷻ ، ومن هنا قال - في شرحه للرسالة عند قوله : « لا إله غيره » - :

« توكيد ومبالغة في ثبوت الوحدانية ونفي إله آخر ، إذ صيغة الإثبات والنفي أبلغ في نفي الكمية المتصلة والمنفصلة »[٤] .

٤٠ـــ وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

---

(١) بهجة النفوس (٢/٢٣) .

(٢) هو محمّد بن إبراهيم بن خليل التتائي الفقيه الفرضي ، كان موصوفًا بدين وعفة وصيانة وفضل وتواضع ، وهو من كبار القضاة في الديار المصرية ، من كتبه : فتح الجليل - شرح به مختصر خليل في الفقه - ، وتنوير المقالة في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وخطط السداد والرشد نظم مقدمة ابن رشد . مات سنة ٩٤٢هـــ .

انظر : نيل الابتهاج (٥٨٨) ، وشجرة النور (٢٧٢) ، والأعلام (٥/٣٠٢) .

(٣) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/١٥٣) . تحقيق وتعليق وتخريج د. محمّد عايش عبدالعال ، ط. الأولى ١٤٠٩هـــ .

(٤) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١/١٥٤) .

سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ﴾[1] بقوله :

« ودعاهم ﷺ إلى توحيد الله ، وترك ما عبدوه من دونه ، كالمسيح ، والأحبار والرهبان »[2] .

فبين أن التوحيد هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو معنى التوحيد .

٤١ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[3] قال :

« وهذا برهان على وحدانية الله تعالى ، والضمير في قوله : ﴿ فيهما ﴾ للسموات والأرض ، و ﴿ إلاّ الله ﴾ صفة للآلهة ، و ﴿ إلاّ ﴾ بمعنى غير .

فاقتضى الكلام أمرين :

أحدهما : نفي كثرة الآلهة ، ووجوب أن يكون الإله واحداً .

الثاني : أن يكون ذلك الواحد هو الله دون غيره ، ودل على ذلك قوله : ﴿ إلاّ الله ﴾ »[4] .

٤٣ـــ وأما الحطاب[5] فقد فسر الإله بالمعبود ، قال :

« والإله : المعبود »[6] .

ثم نقل قول القرافي السابق ذكره مقرًّا له ، المتضمن بيان النفي ، وأنه ليس نفياً

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) التسهيل (١/١٩٥) .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٢ .

(٤) ابن جزيّ ومنهجه في التفسير (١/٥٢١) . ط. دار القلم ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـــ . دمشق .

(٥) هو محمّد بن محمّد بن عبدالرحمن الرعيني المغربي ، أبو عبدالله ، المعروف بالحطاب ، كان متقنًا محصلاً نقادًا ، عارفًا بالتفسير ووجوهه ، فرضيًّا . من كتبه : هداية السالك المحتاج – في مناسك الحج –، ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل ، ست مجلدات في فقه المالكية ، وشرح نظم نظائر رسالة القيرواني لابن غازي ، وغيرها . مات سنة ٩٥٤هـــ .

انظر : نيل الابتهاج (٥٩٢) ، والأعلام (٧/٥٨) .

(٦) مواهب الجليل للمغربي (١/٤٣٩) . ط. دار الفكر – الثانية ، بيروت ١٣٩٨هـــ .

للمعبود كيف كان لوجود المعبودين ، كالكواكب ... بل ثم صفة مضمرة تقديرها : لا معبود مستحق للعبادة إلاّ الله[1] .

وأورد أيضاً قول القرطبي أبي العباس المشتمل بيان مسائل العقيدة في الأذان ، قال :

« لأنه بدأ بالأكبرية ، وهي وجود الله تعالى ووجوبه وكماله ، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشريك »[2] .

وبذلك يتضح معنى التوحيد ، إذ فسر الإله بالمعبود بحق ، وأقرّ ما تضمنته الشهادة من التوحيد لله تعالى ، ونفي الشريك ، فظهر مراده من أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده ، وبطلان عبادة ما سواه .

٤٤ــ وسئل زروق[3] عن معنى « لا إله إلاّ الله » ، فقال :

« الإله أطلقته العرب على كل معبود بحق أو باطل ، فجاء الشرع فنفى ما سواه ، وهو : لا إله إلاّ الله ، أي : لا معبود بحق إلاّ الله ، لأنه لا مستحق للاتصاف بالكمالات سواه »[4] .

وفي هذا القول نص صريح في أن معنى كلمة التوحيد : نفي المعبودات سوى الله تعالى ، وإثبات العبادة له وحده دون شريك .

---

(١) انظر ص٥١ .

(٢) المفهم للقرطبي (١٤/٢) ، ومواهب الجليل (٤٩٣/١) .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمّد بن عيسى الرفسي الفاسي ، زروق ، فقيه محدث ، أخذ عن أئمة المشرق والمغرب ، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير ، منها : شرح مختصر خليل ، والنصيحة الكافية لمن خصة الله بالعافية ، والقواعد في التصوف ، والجنة للمعتصم من البدع بالسنة ، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وغيرها . مات سنة ٨٩٩هـــ .

انظر : شجرة النور (٢٦٧) ، والأعلام (٩١/١) .

(٤) النوازل لأبي الحسن العلمي (٢٩٧/٣) . ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٩هـــ .

٤٦ــ وبيّن التلمساني الفاسي[1] معنى « لا إله إلاّ الله » ، فقال :

« إنما يسلط النفي في كلمة الشهادة على كل ما يفرضه العقل من عدد كل إله معبود بالحق خاصة ، لا على الآلهة المعبودة بباطل ، إذ النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان . والمعبود بباطل لا عبرة بألوهيته ، لأنه لا يستحق عبادة »[2] .

٤٧ــ وفسر ابن عرضون[3] قول التلمساني ، فقال :

« جواب المفتي صريح في أن النفي لا يتسلط على المعبود بباطل ، فلا معنى للتردد في ذلك ، وقد قال : لأن النفي إنما يقع على ما لم يكن لا على ما كان ، والذي لم يكن هو المعبود بحق غير مولانا جل وعز ، فهذا هو المنفي الذي يتسلط النفي عليه .

وأما المعبود بباطل فها هو موجود ، ولكن لا غبرة بألوهيته وبتسميته إلهاً ، فإذا قلت : لا رجل في الدار إلاّ زيد ، فقد خبرت بنفي حقيقة الرجل من الدار غير زيد ، ولو سمي القلم أو المعراض بالرجل ، فلا ينتفي من الدار وجود القلم وإن سمي بالرجل »[4] .

وكلام التلمساني وابن عرضون نحو من كلام زروق الذي مضى .

٤٨ــ وقد أقر هذه الأقوال صاحب كتاب النوازل بإيراده هذه النقول عند بيانه معنى « لا إله إلاّ الله » .

---

(١) أبو عبدالله محمّد بن عبدالرحمن بن جلال التلمساني ، مفتي فاس وشيخ الجماعة بها ، فقيه عالم قدوة مفضال ، مات سنة ٩٨١هــ . انظر شجرة النور (٢٨٥) .

(٢) النوازل (٣/٢٩٥) .

(٣) هو أحمد بن الحسن بن عرضون ، أبو العباس ، قاض من فقهاء المالكية ، مغربي من أهل شفشاون ، له كتب ، منها : اللائق لعلم الوثائق – فقه – ، وآداب الزواج وتربية الولدان . مات سنة ٩٩٢هــ . انظر الأعلام (١/١١٠) .

(٤) النوازل (٣/٢٩٥) .

٤٩ـ وبنفس المعنى نقل ميارة قول ابن عاشر مقرًّا له ، فقال :

((لا شك أنها مشتملة على نفي وإثبات ، فالنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جل وعز ، والمثبت من تلك الحقيقة فرد واحد ، وهو مولانا جلّ وعزّ . وأتى بإلاّ لقصد حقيقة الإله عليه ﷻ ، بمعنى : أنه لا يحكم أن توجد تلك الحقيقة لغيره تعالى عقلاً ولا شرعاً ...)) .

ثم ذكر أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة ، فقال :

((لا مستحق للعبودية له موجود أو في الوجود إلاّ الفرد الذي هو خالق العالم جلّ وعزّ ... وهو صريح في أن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدُّد المعبود بحق))[(١)] .

٥٠ـ وقال أبو القاسم الفجيجي[(٢)] :

((ومعـــنى لا إلـــه إلاّ	الله جــل الــربّ نعم المولى
مـــا في الوجــود من إله يعبد	بـــالحق إلاّ الله فرد صمد
وهـــي رد خـــطأ المعــتقد	أن إلــه الحـــق ذو تعــدد

فصرح أيضا بأن المنفي هو ما قد يتوهم من تعدد المعبود بحق ، وأما المعبود بباطل فلم يتعرض له ، إذ هو موجود فلا يصح نفيه))[(٣)] .

---

(١) الدر الثمين والمورد المعين (٥٣/١) . ط. الحلبي – مصر ، ط. الأخيرة ١٣٧٣هـ .

(٢) هو أبو القاسم بن محمّد بن عبدالجبار الفجيجي ، فقيه مغربي محدّث ، تولى الإفتاء والقضاء ، واشتغل بالتدريس ، وامتاز بالشجاعة والفروسية واستعمال آلات الحرب ومباشرتها بنفسه ، شارك في معركة وادي المخازن التي سحق فيها الجيش المغربي الجيش البرتغالي ، مات سنة ١٠١١هـ .
انظر : أعلام المغرب العربي (١٤٣/٢) ، وموسوعة أعلام المغرب (١١٦٢/٣) .

(٣) الدر الثمين (٥٤) .

٥١ـــ وقد نظم هذا المعنى الأجهوري[١] ، فقال :

وكـــلـــمة التوحيد مفهوماً تفيد — نفـــي الإله عن سوى الله المجيد
كـــذاك للســـبكي والقـــرافي — تفيـــد بالمـــنطوق ذا يـــا وافي
مبـــناه الاســـتثناء من النفي يفيد — ضده لا السكوت عنه يا رشيد
أي أن ما استثـــنى فيه ما حصـــل — ضد الذي منه الثني بلا زلل[٢]

٥٢ـــ وقال الهبطي[٣] في جواب له عن معنى « لا إله إلاّ الله » :

« اعلم – هداك الله للتحقيق ، وسلك بك سواء الطريق – أنها على الجملة دون التفصيل ، خبر عن نفي الألوهية عن غير الله ، أي : عدمها في حق غيره عدم استحالة ، بحيث لا تقبل الوجود بوجه ولا بحال[٤] ، والمقصود بإثباتها لله وجودها له ... »[٥] .

(١) هو علي بن محمّد بن عبدالرحمن بن علي ، أبو الإرشاد ، نور الدين الأجهوري المصري المالكي ، عالم أديب مشارك في الفقه والكلام والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والمنطق وغيرها ، من كتبه : مواهب الجليل في تحرير ما حواه مختصر خليل ، وشرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية ، والنور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج ، وشرح رسالة ابن أبي زيد ، وغيرها . مات سنة ١٠٦٦هـــ. انظر : معجم المؤلفين (٧/٢٠٧) ، والأعلام (٥/١٣) .

(٢) فضائل شهر رمضان للأجهوري (٢٤٦-٢٤٧) . ط. دار القاضي عياض – القاهرة .

(٣) هو عبدالله بن محمّد الهبطي ، أبو محمّد ، من كبار الزهاد في المغرب ، أصله من صنهاجة طنجة ، ولما استولى السلطان محمّد الشيخ على ملك المغرب بفاس دعاه إليه ففاوضه في أمر الدين والأمة ، وكان السلطان يطيعه ويجله ، صنف كتبًا أكبرها : الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة ، وله منظومة في فقه مالك ، وأجوبة في مسائل من التوحيد . مات سنة ٩٦٣هـــ . انظر الأعلام (٤/١٢٨) .

(٤) الصواب ما ذكره الله ﷻ من تسمية ما عُبد من دونه آلهة ، قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ ، والعرب أطلقوا الإله على كل معبود ، فجاء الشرع بالكلمة العاصمة بنفي ما سوى الله إلهًا بحق ، أي : لا معبود حق إلاّ الله تعالى .

(٥) النوازل (٣/٢٩٨) .

٥٣ــ وذكر النفراوي[(١)] عند شرحه لجمل الأذان ، وعند قوله : « أشهد أن لا إله إلاّ الله ... » :

« قوله : أي أتحقق وأذعن أن لا معبود بحق سواه » .

فبين أن معنى كلمة التوحيد : إفراد الله تعالى بالعبادة ، ومن هنا فسر الإخلاص الوارد في قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[(٢)] بقوله :

« الإخلاص : إفراد المعبود بالعبادة »[(٣)] .

٥٥ــ وأما محمّد بن يحيى المختار ، فقال - عند شرحه حديث ابن عمر : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله ...** »[(٤)] - :

« أي : لا إله معبود على الحق إلاّ الله ﷻ »[(٥)] .

وعند قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[(٦)] قال :

« أي منقادون إلى العمل بمقتضى الشهادة ، وهو اختصاص الله تعالى بالوحدانية والعبادة ، وعدم إشراك شيء به ... »[(٧)] .

---

(١) هو أحمد بن غنيم أو غانم بن سالم بن مهنا ، شهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي ، فقيه من بلدة نفرى بمصر ، وكان ذا علم وفضل وذكاء ، له كتب ، منها : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ورسالة في التعليق على البسملة . مات سنة ١١٢٦هـ ، وقيل : ١١٢٠هـ .
انظر : سلك الدرر (١٤٨/١) ، والأعلام (١٩٢/١) .

(٢) سورة البينة : ٥ .

(٣) الفواكه الدواني (١٤٤/١) .

(٤) سبق تخريجه ص ٦٦ .

(٥) نور الحق الصبيح (٤١/١) . ط. دار عالم الكتب - الرياض .

(٦) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٧) نور الحق الصبيح (٣٥/١) .

فما ذكره رحمه الله يجلي معنى التوحيد ، وأن معناه عنده : لا معبود بحق إلاّ الله.

٥٦ــ وأما الميلي فقد فسّر الإله بالمعبود ، قال :

((فإذا كانت العبادة هي الانقياد والخضوع على وجه التقرّب ، فإن الإله هو المعبود تلك العبادة ، فمن قصرها على الله فقد وحّده ، وعبد عبادة شرعية ، ومن وجد هذا المعنى في نفسه لغير الله فقد اتخذ ذلك الغير إلهاً ، وكانت عبادته شركية ، سواء سماه إلهاً أم لم يسمّه إلهاً ، وسواء عبّر عن المعنى الذي في نفسه بالعبادة أم عبر عنه بعبارة أخرى ، فإن تسمية الشيء بغير اسمه لا يبطل حقيقته ، ولا يغيّر حكمه))(١) .

٥٧ــ وقال أيضاً :

((يدخل المرء في الإسلام بقوله : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، ومعنى الجملة الأولى : أنه لا يعترف لغير الله بقوة غيبية تخضع لها روحه ، فلا يخضع لسواه ولا يعبد إلاّ إياه . ومعنى الجملة الثانية : أن لا يعبد بهواه ، ولا بهوى أحد من أهل المنزلة والجاه ، وإنما يعبد بما جاء به الرسول .

فمحصل الجملتين : أن لا يعبد إلاّ الله وأن لا يعبده إلاّ بما شرعه على لسان رسوله . وعلى هذين الأصلين انبنى الإسلام))(٢) .

فبين أن العبادة حق الله تعالى وحده ، وصرفها لغيره شركٌ ، وهو معنى ((لا إله إلاّ الله)) .

٥٨ــ وأكّد هذا المعنى بقوله :

((وهذه أركان الإسلام الخمسة إنما شرعت - كسائر العبادات - للاحتفاظ بالتوحيد ، والابتعاد عن الوثنية ، فلم يكتف بالشهادتين بالتوحيد المجرد ، حتى صرح بنفي التعدد ، وحصر التشريع في شخص المرسل بالتبليغ .

ولم يقتصر في الصلاة على افتتاحها بالتكبير الذي فيه تعريض باطّراح الأوثان ،

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره (٩٠) للميلي .

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (٣٢) للميلي .

حتى خللت به وكرّر فيها مخاطبة ربّ العالمين بإياك نعبد وإياك نستعين ، وزكاة المرء شعار غناه ، ودليل اعترافه للربّ بجليل نعماه ، وأنه لا دخل فيها للأصنام وكل ما سواه .

والصوم يذر فيه الصائم شهوته وطعامه وشرابه من أجل مولاه ، ويراقبه وهو صائم ، ولو انفرد بمحل سكناه .

والحج فاتحة الإحرام المصحوب بالتلبية المتكررة في كل حال ، وهي صريحة في حياطة التوحيد بنكران الشريك » .

ثم نقل قول أبي إسحاق الشاطبي في الموافقات : « نحن نعلم أن النطق بالشهادتين والصلاة وغيرها من العبادات إنما شرعت للتقرب بها إلى الله ، والرجوع إليه ، وإفراده بالتعظيم والإجلال ، ومطابقة القلب للجوارح في الطاعة والانقياد »[1] .

٥٩ـ وأما ابن عاشور[2] فقد بيّن معنى « لا إله إلاّ الله » في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد ... ﴾[3] ، فقال :

« والإله في كلام العرب هو المعبود ، ولذلك تعددت الآلهة عندهم ، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبدوه ، وهو إطلاق ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله ؛ لأن عبادة من لا يغني عن نفسه ولا عن عابده شيئاً عبث وغلط ، فوصف الإله هنا بالواحد ؛ لأنه في نفس الأمر هو المعبود بحق ، فليس إطلاق الإله على المعبود بحق

---

(١) رسالة الشرك (٢٠) .

(٢) هو محمّد الطاهر بن عاشور ، رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، له مصنفات مطبوعة ، من أشهرها : التحرير والتنوير – في تفسير القرآن – ، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام ، والوقف وآثاره في الإسلام ، وموجز البلاغة . مات سنة ١٣٩٣هـ . انظر الأعلام (١٧٤/٦) .

(٣) سورة البقرة : ١٦٣ .

نقلاً في لغة الإسلام ، ولكنه تحقيق للحقّ))(1) .

فبين بهذا الكلام المستقيم أن العبادة وإن صرفت لغير الله ظلماً وجهلاً ، فإنها لا اعتداد بها ، وإنما العبرة بعبادة المستحق ، بأن يعبد وحده ، وهذه هي حقيقة كلمة التوحيد .

٦٠ــ وذكر أيضا أن ما ورد في القرآن من إطلاق لفظ (الآلهة) على أصنامهم فهو في مقام التغليظ لزعمهم ، نحو : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾(2) ، قال :

((والقرينة هو الجمع ، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالإفراد على المعبود بغير حق))(3) .

٦١ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ قال :

((وفرع فيما أوحى إليهم أمره إياهم بعبادته على الإعلان بأن لا إله غيره ، فكان استحقاق العبادة خاصًّا به تعالى))(4) .

وعند قوله تعالى : ﴿ آللّه خير أم ما يشركون ﴾ قال :

((أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده))(5) .

وبهذا يتبيّن أن العبادة حق الله وحده ، وهو معنى التوحيد .

---

(1) التحرير والتنوير (٧٤/٢) . ومراده : أن الشرع لم ينقل كلمة المعبود من حقيقتها اللغوية إلى حقيقة شرعية جديدة ، كما هو الحال في (الوضوء) ، (الصلاة) ... ، وإنما هي إحقاق للحق في هذه الكلمة (الإله) ، وإطلاقها على المستحق لها وحده .

(2) سورة الأحقاف : ٢٨ .

(3) التحرير والتنوير (٧٤/٢) .

(4) التحرير والتنوير (٤٩/١٧) .

(5) التحرير والتنوير (١٨/٢٠) .

٦٢ــ وبيّن الشيخ محمّد بن الأمين رحمه الله معنى ((لا إله إلاّ الله)) ، فقال :

((معناها : لا معبود بحقّ إلاّ الله))[١] .

٦٣ــ وقال في كلام كالشرح لهذا المعنى الموجز : ((إن توحيد الألوهية هو معنى كلمة (لا إله إلاّ الله) ، وهي بلا شكّ متضمنة لجميع الشرائع))[٢] .

٦٤ــ وقال : ((إن الركن الأكبر - الذي هو توحيد الله بأنواعه ، المستلزم إفراده بالعبادة وحده - هو منتهى التحرر من الرقّ والعبودية للمخلوقين ، ومن جملتهم النفس والهوى والشيطان ...))[٣] .

٦٥ــ وذكر أن التوحيد مبني على أصلين ، هما : النفي والإثبات في ((لا إله إلاّ الله)) ، قال :

((فهو مبني على أصلين ، هما : النفي والإثبات في ((لا إله إلاّ الله)) ، فمعنى النفي منها : خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما كانت ، ومعنى الإثبات منها : هو إفراده جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرع أن يعبد به . قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٤]))[٥] .

وزاد المعنى السابق توضيحاً ، حيث بيّن أن الدين الإسلامي قائم على هذه الكلمة ، فقال - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾[٦] - :

((إن حصر الوحي في آية الأنبياء هذه في توحيد العبادة حصر له في أصله

---

(١) أضواء البيان (٤/٥٠٨ ، ٦/٢٧٣) ، ومعارج الصعود (١٤٣) .

(٢) معارج الصعود (٤٠) للشيخ محمّد الأمين . ط. دار المجتمع ، ط. الأولى ١٤٠٨هــ .

(٣) نهج التشريع الإسلامي للشنقيطي (١١) . ط. الجامعة الإسلامية - ط. الأولى .

(٤) سورة النحل : ٣٦ .

(٥) المعين والزاد - جمع سيد الأمين بن المامي الجكني (٦٥) . ط. الأولى ١٣٩٦هــ .

(٦) سورة الأنبياء : ١٠٨ .

الأعظم ، الذي يرجع إليه جميع الفروع ، لأن شرائع الأنبياء كلهم داخلة في ضمن معنى « لا إله إلاّ الله » ؛ لأن معناها : خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية »[1] .

فتفسير الشيخ رحمه الله لمعنى « لا إله إلاّ الله » هو الصواب الذي سار عليه بعض علماء المالكية ، كما ذكرت في هذا المبحث .

وفيه تبين مدى عناية أئمة المالكية وعلمائهم رحمهم الله تعالى بكلمة التوحيد ، وبيان معناها عندهم ، فـ « لا إله إلاّ الله » معناها عندهم : لا معبود بحق إلاّ الله تعالى ، أو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وهو الحق الذي تدل عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وسار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسطّره أئمة المالكية ، وذلك من خلال النصوص التي تم نقلها عنهم رحمهم الله تعالى في هذا المبحث .

---

(١) أضواء البيان (٨/٣) .

المبحث الثالث

شروط « لا إله إلا الله »

تحدث علماء المالكية عن شروط للشهادة ، وأفردوها بالذكر مقترنة بأدلتها الكاشفة عنها ، أذكرها فيما يلي بنصوص مختلفة لعلمائهم تكشف عن اهتمامهم بها . من ذلك أنهم تكلموا عن مسألة مهمة في هذا الباب :

وهي : ما إذا نطق غير المسلم بكلمة التوحيد ، فينظر إن كان من أهل الأوثان والمشركين ومن لا يوحد ، فإنه يقبل منه ذلك الإقرار بالتوحيد ؛ لأنه لم يكن يقر به .

وإن كان من أهل الكتاب ممن يقرّ بالتوحيد ، فلا يكتفى بعصمته بقوله : لا إله إلاّ الله .

وقد بيّن الإمام مالك رحمه الله ذلك في كلامه على ثبوت حدّ الردّة ، فلم يكتف رحمه الله بمجرد التشهد والإقرار بالنبي ﷺ ، ومعرفة الفرائض ، بل لا بد من ثبوت الإسلام عنده ، وتطبيقه لشرائعه وأحكامه .

١ـــ قال ابن القاسم :

« سمعت مالكاً يقول : لا يقتل على الارتداد إلاّ من ثبت عليه أنه كان على الإسلام ، يعرف ذلك منه طائعاً يصلّي ، مقرًّا بالإسلام »[١] .

٢ـــ وذكر أصبغ أن ابن وهب قال بمثل ما قال مالك[٢] .

٣ـــ وبين هذا المعنى ابن رشد بقوله :

« وجه ما ذهب إليه ابن وهب ومالك فيما حكى ابن القاسم ، من أنه لا يستتاب ولا يقتل حتى يصلي : اتباع ظاهر قول النبي ﷺ : « **من بدّل دينه فاضربوا عنقه** » ؛ لأنه لا يستحق أحد التسمية بأنه على دين الإسلام إلاّ بالتمادي على فعل

---

(١) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

شرائعه ، من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، لقول النبي ﷺ : ((**بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا**))(١) .

ومعنى قولهم : إن المحكوم له بالإسلام لا يكتفى في حقه بالتشهد للحكم بإسلامه حتى يحقق الناطق لها ما يترتب عليها من شرائع الإسلام الظاهرة، كالصلاة والزكاة ، كما قال تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾(٢) .

٤ـــ ونقل ابن بطال عن المهلب(٣) قولاً على سبيل الإقرار أنه لا يعصم الدم والمال إلاّ هذه الدعائم الخمس وإدامتها ، فعند شرح حديث : ((**بني الإسلام على خمس ...**)) قال ابن بطال :

((قال المهلب : فهذه الخمس هي دعائم الإسلام ، التي بها ثباته ، وعليها اعتماده ، وبإدامتها يعصم الدم والمال ، ألا ترى قوله ﷺ : ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله**)) ؟))(٤) .

٥ـــ وذكر ابن رشد أنه لا بد مع الإقرار بالتزام سائر قواعد الإسلام ، قال – في مغنى قوله : ((**حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله**)) – :

((أي : حتى يسلموا ، فيقولوا : لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويلتزموا

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/٤٣٤-٤٣٥) .

(٢) سورة التوبة : ٥ .

(٣) هو المهلب بن أحمد بن أبي صفرة أسيد بن عبدالله ، الأسدي الأندلسي ، مصنف شرح صحيح البخاري ، كان أحد الأئمة الفصحاء الموصوفين بالذكاء ، وله كلام في شرح الموطأ . مات بالأندلس عام ٤٣٥هـــ .

انظر : السير (١٧/٥٧٩) ، وبغية الملتمس (٤٧١) .

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/٥٩) .

سائر قواعد الإسلام))[1] .

٦ـــ ولحظ هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله ، فقال : ((اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال : لا إله إلاّ الله ، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركو العرب ، وأهل الأوثان ، ومن لا يوحّد ، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه ، فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله : لا إله إلاّ الله ، إذ كان يقولها في كفره ، وهي من اعتقاده ، ولذلك جاء في الحديث الآخر : ((**وأني رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة**))[2]))[3] .

٧ـــ وذكر ابن عبد البر أن الكافر إذا قال : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، غير جادٍّ ، فإن ذلك لا يدخله في الإسلام ، قال :

((وكل كافر قال : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، لاعباً غير راغب في الإسلام ، فإن ذلك لا يوجب عليه الدخول في الإسلام إذا أباه ، وإنما يدخل في الإسلام الراغب الطائع غير المكره))[4] .

٨ـــ وبمثل ذلك ما نقله المواق[5] من :

((أنّ نطق الكافر بالشهادتين ، ووقف على شرائع الإسلام وحدوده ، ثم التزمها إسلامه[6] ، وإن أبى من التزامها لم يقبل منه إسلامه ، ولم يكره على التزامها ، وترك

---

(١) البيان والتحصيل (١٧/٢٣٠) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله (١/٥١) برقم (٢١) ، والبخاري في كتاب الإيمان ، باب ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ . الفتح (١/٧٥) برقم (٢٥) .

(٣) إكمال المعلم (١/٢٤٦) .

(٤) الكافي لابن عبد البر (٢/١٠٩٣) . مكتبة الرياض الحديثة ، ط. الأولى ١٣٩٨هـ .

(٥) هو محمّد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدوي الغرناطي ، أبو عبدالله المواق ، فقيه كان عالم غرناطة وفقيهها وإمامها وصالحها ، المتحلي بالوقار ، وخاتمة علماء الأندلس الكبار ، له : التاج والإكليل في شرح مختصر خليل ، وسنن المهتدين في مقامات الدين . مات سنة ٨٩٧هـ .
انظر : شجرة النور (٢٦٢) ، ونيل الابتهاج (٢/٥٦١) .

(٦) كذا في النص ، والمعنى : حكم بإسلامه .

على دينه ، و لم يعدّ مرتدًّا))[1] .

٩ـــ وقال الصاوي[2] : ((ولا بد في تقرير الإسلام من الوقوف على الدعائم والتزامه الأحكام بعد نطقه بالشهادتين ، فمن نطق بهما ثم رجع قبل أن يقف على الدعائم فلا يكون مرتدًّا))[3] .

١٠ـــ وقال الخرشي[4] : ((ولا يتقرر الإسلام إلاّ بالنطق بالشهادتين مع التزام أحكامهما))[5] .

١١-١٢ـــ ونظيره ما ذكره الأزهري[6] والدسوقي[7] .

وخلاصة القول : أن عصمة الدم والمال لا تتحقق إلاّ بالتزام شرائع الإسلام وأحكامه من الكافر الكتابي ، ولا يكتفى بالإقرار فقط ، بل لا بد من أن يتبع ذلك العمل بشرائع الإسلام وأحكامه ، فذكرهم تلك التفصيلات بما يدل على اهتمام هؤلاء الأئمة رحمهم الله بهذه الكلمة العظيمة ، وما يلزم لها .

فإذا كان غير المسلم مطالباً بالعمل بمقتضى ((لا إله إلاّ الله)) إذا أسلم ليقبل إسلامه ، فلا شكّ ولا ريب أن المسلم الأصلي من باب أولى .

(١) مواهب الجليل (٨/٣٧٠) . دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٦هـــ .

(٢) هو أحمد بن محمّد الخلوتي ، الشهير بالصاوي ، فقيه مالكي ، نسبته إلى " حباء الحجر " في إقليم الغربية بمصر . من كتبه : حاشية تفسير الجلالين ، وبلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير للشيخ أحمد الدردير، والفرائد السنية شرح همزية البوصيري. مات سنة ١٢٤١هـــ. انظر الأعلام (١/٢٤٦).

(٣) بلغة السالك (٤/٢٢٤) .

(٤) هو محمّد بن عبدالله الخرشي المالكي ، أبو عبدالله ، أول من تولى مشيخة الأزهر ، كان فقيهًا فاضلاً ورعًا ، متفق على فضله وحسن سيرته ، من كتبه : الشرح الكبير على متن خليل - في فقه المالكية - ومنتهى الرغبة في حل ألفاظ النخبة لابن حجر في مصطلح الحديث ، والفرائد السنية شرح المقدمة السنوسية في التوحيد . مات سنة ١١٠١هـــ .

انظر : سلك الدرر (٢/٦٢) ، والأعلام (٦/٢٤٠) .

(٥) الخرشي على مختصر خليل (٨/٦٢) .

(٦) انظر جواهر الإكليل (٢/٢٧٧) .

(٧) انظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤/٣٠١) .

ومن هنا جاء الردّ من علماء المالكية رحمهم الله تعالى على من تمسّك بالأحاديث المطلقة في فضل « لا إله إلاّ الله » ، وبينوا أن « لا إله إلاّ الله » لها مستلزمات وشروطًا ، ولا بد من العمل بمقتضاها .

١٣ــ وفي هذا يقول ابن القاسم :

« قلنا لمالك : الإيمان قول وعمل ، أو قول بلا عمل ؟ قال مالك : بل قول وعمل »[١] .

١٤ــ وقال أشهب بن عبد العزيز - مبيّنًا قول مالك في كون العمل من الإيمان واستدلاله بما ورد في القرآن الكريم - : « قال مالك : أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم أمروا بالبيت الحرام ، فقال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾[٢] يعني : صلاتكم إلى بيت المقدس » .

١٥ــ قال مالك : « وإني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة : إن الصلاة ليست من الإيمان »[٣] .

---

(١) البيان والتحصيل (٥٨٥/١٨) .

الإيمان قول وعمل واعتقاد ، وقد ورد هذا القول عن ابن مسعود ، وحذيفة ، والإمام الشافعي ، والإمام أحمد ، وهو قول الثوري ، والأوزاعي ، والحسن ، ومعمر بن راشد ، وابن جريج ، وسفيان بن عيينة ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وابن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم من السلف . بل ذكر الحافظ أن اللالكائي روى في كتاب السنة بسند صحيح عن البخاري قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص . [الشريعة للآجري (١١٨) ، السنة للالكائي (٨٤٨/٤-٨٤٩) ، التمهيد لابن عبدالبر (٢٥٣/٩) ، حلية الأولياء لأبي نعيم (١١٥/٩) ، مناقب الشافعي للبيهقي (٣٨٥/١) ، فتح الباري (٤٧/١)] . وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١٧٣/١-١٧٤) .

وحكى الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء ، كالشافعي ، والبغوي ، وابن عبدالبر . [شرح السنة للبغوي (٣٨/١-٣٩) ، التمهيد (٢٣٨/٩) ، جامع العلوم والحكم لابن رجب (٦٢/١)] .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

(٣) ترتيب المدارك (٤٣/٢) .

وقال أبو سلمة الخزاعي[1] : ((قال مالك : الإيمان المعرفة والإقرار والعمل))[2].

ففي كلام مالك في هذه النصوص بيان ثلاثة شروط :

أولها : علم الناطق بلا إله إلاّ الله ، ومعناها وهو ما أراد بالمعرفة .

والثاني : نطق لسانه بكلمة التوحيد ، وهو مراده بالإقرار .

والثالث : العمل بمقتضى هذه الشهادة ، وذلك بالائتمار بما أمر الله به فعلاً ، وترك ما نهى عنه .

وأشار ابن بطال رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري إلى أن لا إله إلاّ الله لا بد لها من حق وفرض ، وذلك فيما نقله عن السلف ، قال :

١٦ـــ ((سأل هشام بن عبدالملك[3] الزهري[4] فقال : حدثنا بحديث النبي ﷺ : ((**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، وإن زنى وإن سرق**))[5] .

فقال الزهري : ((أين يذهب بك يا أمير المؤمنين ؟! إن كان هذا قبل الأمر

---

(١) منصور بن سلمة بن عبد العزيز ، أبو سلمة الخزاعي ، البغدادي ، ثقة ثبت حافظ ، ت ٢١٠هـــ . التقريب (٥٤٧) .

(٢) رواه الخلال في السنة (رقم ١٠٠٦) ، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٨٠٦/٢ رقم ١٠٩٦) ، واللالكائي في شرح السنة (٨٤٨/٤ رقم ١٥٨٧) .

(٣) هو هشام بن عبدالملك بن مروان ، من ملوك الدولة الأموية في الشام ، كان حسن السياسة ، يقظًا في أمره ، يباشر الأعمال بنفسه . مات سنة ١٢٥هـــ .

انظر : الأعلام (٨٦/٨) ، والسير (٣٥١/٥) .

(٤) هو أبو بكر محمّد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب الزهري ، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين بالمدينة ، رأى عشرة من الصحابة ﷺ ، وروى عن جماعة من الأئمة . مات سنة ١٢٤هـــ ، وقيل : ١٢٣هـــ . والله أعلم .

انظر : السير (٣٢٦/٥) ، ووفيات الأعيان (١٧٧/٤) .

(٥) خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله . الفتح (١٠٩/٣) برقم (١٢٣٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ، ومن مات مشركًا دخل النار (٩٤/١) برقم (٩٤) .

والنهي))[1] .

وأورد أثر الحسن[2] ، قال : ذكر الطبري[3] بسنده قال : قيل للحسن : من قال : لا إله إلاّ الله ، دخل الجنة ؟ فقال : ((من قال : لا إله إلاّ الله ، فأدّى حقّها وفرضيتها ؛ دخل الجنة))[4] .

١٧ــ وكذا أورد قول وهب بن منبه[5] : ((إن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك))[6] ، ثم قال :

((فإنما أراد بالأسنان القواعد التي بني الإسلام عليها ، التي هي كمال الإيمان ودعائمه))[7] .

١٨ــ وعقّب ابن العربي على قول وهب بن منبه : ((لا إله إلاّ الله مفتاح له

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٠٨/١) .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، من سادات التابعين وكبرائهم ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة . قال الذهبي : كان سيد أهل زمانه علمًا وعملاً . مات سنة ١١٠هـــ .
انظر : السير (٥٦٣/٤) ، ووفيات الأعيان (٦٩/٢) .

(٣) هو محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ، أبو جعفر الطبري ، أحمد أئمة العلماء ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، وكان حافظًا لكتاب الله ، عالمًا بالقراءات ، بصيرًا بالمعاني ، فقيهًا في أحكام القرآن ، عالمًا بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم . له تاريخ الأمم والملوك ، وكتاب التفسير ، وكتاب تهذيب الآثار ، وغيرها . مات سنة ٣١٠هـــ .
انظر : تاريخ بغداد (١٥٩/٢) ، وطبقات المفسيرين (١٠٦/٢) .

(٤) أورده ابن سعد في الطبقات (١٤٠/٧) ، والذهبي في السير (٥٨٤/٤) .

(٥) هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار ، أبو عبدالله الأنباري اليماني ، تابعي ثقة ، وكان على قضاء صنعاء . قيل : مكث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا . مات سنة ١١٤ هـــ ، وقيل : ١١٣هـــ .
انظر : طبقات ابن سعد (٥٤٣/٥) ، والسير (٥٤٤/٤) .

(٦) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الجنائز ، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله (١٠٩/٣) برقم (١٢٣٦) ، ووصله في التاريخ ، وأبو نعيم في الحلية .

(٧) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٣٧/٣) .

أسنان ، إن جئت بالمفتاح بأسنانه فتح لك ، وإلا لم يفتح » بقوله :

« وقول وهب بن منبه صحيح ، فإن الأسنان إذا كملت في المفتاح فتح من غير ريب ، وإن زالت الأسنان أو بعضها كان الشك في حال الفتح والفاتح والمفتوح »[1].

وذكر الشنقيطي[2] عند حديث عتبان ﷺ[3] : أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ أنكر على محمود بن الربيع ﷺ تحديثه بحديث عتبان لما يقتضيه ظاهره من أن النار محرمة على جميع الموحدين ، وأحاديث الشفاعة دالة على أن بعضهم يعذب ، قال :

« ولكن للعلماء أجوبة عن ذلك ؛ منها : أن ذلك فيمن قال الكلمة ، وأدى حقها وفرضيتها ، فيكون الامتثال والانتهاء مدرجين تحت الشهادتين »[4] .

وبعد هذا البيان االشافي من أئمة المالكية ، نذكر أقوالهم في الشروط التي لا بد لقائل « لا إله إلاّ الله » من تحقيقها ، ومنها :

---

(١) عارضة الأحوذي (١٠/١٠٥) .

(٢) هو محمّد الخضر بن عبدالله بن أحمد ابن مايابي الجكني الشنقيطي ، مفتي المالكية بالمدينة المنورة ، ولد وتفقه بشنقيط ، وهاجر إلى المدينة فتولى الإفتاء بها ، كان حافظًا لأغلب الكتب الستة ، ومختصر خليل وشروحه وحواشيه ، وموطأ مالك . من كتبه : كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا البخاري ، وغيره . مات سنة ١٣٥٤هـ .

انظر ترجمته في كوثر المعاني لابن أحمد الأمين (١/٧) ، والأعلام (٦/١١٣) .

(٣) الحديث عن عتبان : أن النبي ﷺ قال : « **إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلاّ الله ، يبتغي بذلك وجه الله ﷻ** » : أخرجه البخاري (١/٥١٨) برقم (٤٢٤) كتاب الصلاة ، باب إذا دخل بيتا يصلي حيث يشاء ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (١/٤٥٥) برقم (٣٣) .

(٤) كوثر المعاني الدراري للشنقيطي (٧/١١٢) .

الشرط الأول : وجوب نطق اللسان مقروناً بتصديق القلب

١٩ــ قال ابن العربي :

((قال مالك – في الكافر يوجد عند الدرب فيقول جئتُ مستأمنًا أطلب الأمان – : هذه أمور مشكلة ، وأرى أن يردّ إلى مأمنه ولا يُحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت له ، فلا بد أن يظهر منه ما يدلّ على أن الاعتقاد الفاسد قد تبدل باعتقاد صحيح ، يدل عليه قوله ، ولا يكفي فيه أن يقول : أنا مسلم ، ولا أنا مؤمن ، ولا أنا أصلي ، حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله : " **أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله** "))[1] .

فصرّح رحمه الله بشرط الإقرار .

٢٠ــ قال ابن القاسم :

((سمعت مالكاً يقول – في النصراني يصحب القوم ، فيصلّي بهم أياماً ، ثم يتبين لهم أمره – : إنهم يعيدون كل صلاتهم في الوقت وفي غيره .

قيل لمالك : أفيقتل بما أظهر من الإسلام عليه ، ومن إخفاء الكفر ؟ قال : لا أرى ذلك عليه))[2] .

وقد تقدّم قول مالك في النصراني يتشهد[3] ، ولا يكون التشهد إلاّ بالنطق بكلمة التوحيد ، وهنا لم يعتد مالك رحمه الله بإظهار الإسلام من هذا النصراني ؛ لأنه لم يكن مقروناً بتصديق القلب ، فأمرهم بإعادة الصلاة ، فجمع بين النطق وتصديق القلب .

٢١ــ ورأي سحنون في ذلك كمالك في إعادة الصلاة ، إلاّ أنه فرق من حيث القتل بين من يفعله خائفاً يداري عن نفسه وماله فلا سبيل عليه ، أو يفعله وهو

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) . ط. دار المعرفة – بيروت ، لبنان .

(٢) البيان والتحصيل (٤٢٦/١٦-٤٢٧) .

(٣) انظر قول مالك ص٣٤ .

آمن[١] .

٢٢ــ قال مالك في الرجل يقول : كفر بالله أو أشرك بالله ثم يحنث : « إنه ليس عليه كفارة ، وليس بكافر ولا مشرك حتى يكون قلبه مضمرًا على الشرك والكفر ، ويستغفر الله ولا يعد إلى شيء من ذلك ، وبئس ما صنع ! »[٢] .

فعلق الحكم بحصول الشرك والكفر على ما انعقد عليه القلب ، وعليه فلا يحكم بالإسلام إلاّ بالنطق المنعقد عليه القلب .

٢٣ــ قال ابن أبي زيد القيرواني[٣] في خطبة رسالته :

« باب ما تنطق به الألسنة ، وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات ومن ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان : أن الله واحد لا إله غيره ، ولا شبيه ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا والد له ، ولا صاحبة له ، ولا شريك له ... »[٤] .

فقرن بين النطق باللسان والإيمان بالقلب لحصول الإسلام المعتدّ به .

٢٤ــ وأما الباقلاني ، فقد ذكر أن القلب هو محل التصديق ، والإقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، وجميعها متلازمة . قال :

« واعلم أن محل التصديق القلب ، وهو أن يصدق القلب بأن الله واحد ، وأن الرسول حق ، وأن جميع ما جاء به الرسول حق ، وما يوجد من اللسان – وهو الإقرار – ، وما يوجد من الجوارح – وهو العمل – ، فإنما ذلك عبارة عما في القلب

---

(١) البيان والتحصيل (١٦/٤٢٦-٤٢٧) .

(٢) الموطأ (٢/٣٨٠) .

(٣) هو الإمام العلامة القدوة الفقيه ، عالم أهل المغرب ، أبو محمّد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ، المالكي ، ويقال له : مالك الصغير ، وكان أحد من برز في العلم والعمل ، حاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحل إليه من الأقطار ، ونجُب أصحابه ، وكثر الآخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وملأ البلاد من تواليفه . من كتبه : النوادر والزيادات ، واختصر المدونة ، وكتاب الرسالة ، وكتاب الثقة بالله والتوكل عليه ، وكتاب إعجاز القرآن، وكتاب العتبية على الأبواب، ورسالة في التوحيد، وغيرها . مات سنة ٣٨٦هـ . انظر : السير (١٠/١٧) ، وشجرة النور (٩٦/١) .

(٤) رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٧) . ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ط. الثالثة ١٤١٥هـ .

ودليل عليه »[1] .

٢٥ـــ وقال :

« ونطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر »[2].

٢٦ـــ وبين أن الإقرار بدون تصديق القلب لا ينفع في الآخرة ، قال :

« فلو أقرّ بلسانه ، وعمل بأركانه ، ولم يصدق بقلبه ؛ نفعه ذلك في أحكام الدنيا ، ولم ينفعه في الآخرة ، وقد بين ذلك ﷺ حيث قال : « **يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الإيمان في قلبه** »[3] »[4] .

وبيّن بطلان قول الكرامية[5] والمرجئة[6] في قولهم : إن الإيمان إقرار باللسان ، وإن كان مجرّداً !

٢٧ـــ فعند قوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾[7] قال :

« هذه الآية حجة على الكرامية - ومن وافقهم من المرجئة - في قولهم : إن

(١) الإنصاف للباقلاني (٥٥) .

(٢) الإنصاف للباقلاني (٥٥-٥٦) .

(٣) خرجه الإمام أحمد (٤/٤٢١) برقم (١٩٧٧٦) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب الغيبة برقم (٤٨٨٠) ، والبيهقي في السنن (١٠/٤١٨) برقم (٢١١٦٤) . قال الأرناؤوط : إسناده حسن . المسند (٤/٤٢١) .

(٤) الإنصاف (٥٥-٥٦) .

(٥) هم أتباع محمّد بن كرام السجستاني المبتدع ، اشتهر عنهم القول بأن الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب ، فمن نطق بلسانه ولم يعترف بقلبه فهو مؤمن ! وزعموا أنّ المنافقين كانوا مؤمنين بالحقيقة ! ويرى بعض مصنفي كتب المقالات إدراجهم ضمن فرق المرجئة .

انظر : عقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/٢٧٥) ، ومنهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل (٤٤١) .

(٦) المرجئة هم من يقول بالإرجاء ، أي بمعنى التأخير ، ومن ذلك قولهم عن الإيمان : إنه تصديق القلب ! وبذلك لم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان ، وكذا قولهم : إنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإنه لا يجوز الاستثناء في الإيمان ! وهذا النوع من الإرجاء هو الذي بدّعه السلف .

انظر : منهج الشهرستاني (٤٨١) ، عقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/٢٧١) ، وكتاب القدرية والمرجئة نشأتها وأصولها وموقف السلف منها د. ناصر العقل (٧٨) .

(٧) سورة الحجرات : ١٤ .

الإيمان إقرار اللسان دون عقد القلب ، وقد ردّ الله قولهم في موضع آخر من كتابه : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾[١] ، ولم يقل : كتب في ألسنتهم))[٢] .

٢٨ـــ ونقل ابن بطال قول شيخه المهلب :

((الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان ، الذي لا ينفع عند الله غيره ، ألا ترى قول الله للأعراب الذين قالوا : آمنا بألسنتهم دون تصديق قلوبهم : ﴿ قل لم تؤمنوا ﴾ ، فنفى عنهم الإيمان لما عري من عقد القلب بقوله : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾))[٣] .

فبين أن عقد القلب المصدق لإقرار اللسان هو المتعين ، ولا ينفع عند الله غيره .

٢٩ـــ وعند شرحه حديث أنس رضي الله عنه قال ﷺ : ((**يخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله ، وفي قلبه وزن بُرّة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلاّ الله ، وفي قلبه وزن ذرّة من خير**))[٤] قال ابن بطال :

((الأمة مجمعة على أن قول : لا إله إلاّ الله ، هو صريح الإيمان ، والتصديق الذي شبه بالذرة عمل القلب أيضاً)) .

وأكّد هذا المعنى بما نقله عن بعض العلماء :

((يحتمل أن تكون الذرة والشعيرة والبرة التي في القلب كلها من التصديق ، لأن قول : ((لا إله إلاّ الله)) باللسان لا يتم إلاّ بتصديق القلب))[٥] .

وهذا يجلي شرط الإقرار بلا إله إلاّ الله ، وهو تصديق القلب .

٣٠ـــ وفي باب : ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى ، علق

---

(١) سورة المجادلة : ٢٢ .

(٢) الإنصاف : ٥٦ .

(٣) شرح صحيح البخاري (١/٨٠) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/١٠٣) برقم (٤٤) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منـــزلة (١/١٨٢) برقم (١٩٣) .

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/١٠٢-١٠٣) .

على هذا الباب قائلاً :

« غرضه في هذا الباب الرد على من زعم من المرجئة أن الإيمان قول باللسان دون عقد القلب ، ألا ترى أنه ﷺ لم يقتصر على قوله : « **الأعمال بالنيات** » حتى أكد ذلك ببيان آخر ، فقال : « **من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ...** » الحديث »[(١)] .

٣١ـــ وقال مبطلاً قول المرجئة في الإيمان : إنه الإقرار باللسان دون عقد القلب :

« من أقوى ما يرد به عليهم : إجماع الأمة على إكفار المنافقين ، وإن كانوا قد أظهروا الشهادتين . قال تعالى : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ﴾[(٢)] »[(٣)] .

فما ذكره رحمه الله يبين ما يلزم من قال : لا إله إلاّ الله ، من عقد القلب عليها ، وأنه الذي ينفع عند الله ﷻ .

٣٢ـــ وذكر ابن عبد البر أن النية لا تكفي للدخول في الإسلام ، بل لا بد أن تقترن بكلمة التوحيد .

فبعد إيراده قول ابن القاسم إجازته للكافر أن يغتسل قبل إظهار الشهادة بلسانه إذا اعتقد الإسلام بقلبه ، قال : « وهو قول ضعيف في النظر ، مخالف للأثر ، وذلك أن أحداً لا يكون بالنية مسلماً دون القول ، حتى يلفظ شهادة الإيمان وكلمة الإسلام ، ويكون قلبه مصدقا للسانه في ذلك ، فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد شهادة الحق ، فكذلك لا يكون متطهّراً ولا مصلياً حتى ينطق بالشهادة ، وإنما تعتقده الأفئدة من الإسلام والإيمان ما تنطق به الألسنة ، والإيمان عندنا الإقرار باللسان والتصديق بالقلب ، وإنما بعث رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى أن يقولوا :

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/١٢٠) .

(٢) سورة التوبة : ٨٤ .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/٨٠-٨١) .

لا إله إلاّ الله ، وقال ﷺ : « **من قال : لا إله إلاّ الله ، صادقاً من قلبه دخل الجنة** »[(١)] ، وقال للسوداء : « **أتشهدين أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ؟** » . والآثار بهذا المعنى كثيرة جدًّا ، وهذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان : أنه قول باللسان ، وتصديق بالقلب ، ويزكو بالعمل . قال الله ﷻ : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[(٢)] »[(٣)] .

٣٣ـــ وذكر ابن رشد أن مجرد قول القائل : « لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له » باللسان دون اعتقاد في القلب لا يحقق الإيمان ، قال :

« فمن قال بلسانه : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، و لم يعتقد تصديق ذلك بقلبه ، فليس بمؤمن »[(٤)] .

٣٤ـــ وردّ المازري احتجاج غلاة المرجئة بحديث ابن الدخشم ، ومنه قول النبي ﷺ : « **أليس يشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ؟** » . فقالوا : إنه يقول ذلك وما هو في قلبه ! فقال ﷺ : « **لا يشهد أحد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله فيدخل النار** »[(٥)] . وقالوا : إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب ، فقال رحمه الله :

« معناه : أنه لم يصح عن النبي ﷺ ما حكوا عنه ، من أن ذلك ليس في قلبه ، والحجة في قول النبي ﷺ ، وهو لم يقل ذلك و لم يشهد به عليه »[(٦)] .

---

(١) نص الحديث المخرج في الصحيحين عن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال : " **ما من أحد يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلاّ حرّمه الله على النار** " . البخاري في العلم ، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (٢٢٦/١) برقم (١٢٨) ، ومسلم في الإيمان ، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٦١/١) برقم (٣٢) .

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

(٣) الكافي (١٥٢/١-١٥٣) .

(٤) البيان والتحصيل (٥٨٦/١٨) .

(٥) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٦١/١) برقم (٣٣) .

(٦) المعلم بفوائد مسلم (١٩٦/١) . ط. دار الغرب الإسلامي – ط. الثانية ١٩٩٢م .

٣٥ـــ وقال أيضا :

((وقد قيد في حديث آخر بقوله : ((**غير شاكّ فيهما**))[١] ، وهذا أيضاً يؤكد ما قلناه))[٢] .

فرده رحمه الله على المرجئة في ذلك يبين اهتمامه الشديد في بيان ما يلزم قائل لا إله إلاّ الله ، من التصديق القلبي ، وأنها لا تنفع بدونه .

٣٦ـــ وقال – عند شرحه حديث : ((**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله ...**))[٣] – :

((وفسّر مجرّد الإيمان الذي هو التصديق ، والذي محله القلب ، وفسّر الإسلام الذي هو العمل الظاهر من شهادة اللسان ، وأعمال البدن ، والذي بمجموعهما يتم الإيمان والإسلام ، إذ إقرار القلب وتصديقه دون نطق اللسان لا ينجي من النار ، ولا يستحقّ صاحبه اسم الإيمان في الشرع ، وإذ[٤] نطق اللسان دون إقرار القلب وتصديقه لا يغني شيئاً ، ولا يسمّى صاحبه مؤمناً ، وهو االنفاق والزندقة ، وإنما يستحقّ هذا الاسم من جمعهما))[٥] .

٣٧ـــ وعقّب على قول المازري في استدلاله برواية ابن الدخشم في الردّ على غلاة المرجئة القائلين : إن الشهادتين تنفع وإن لم تعتقد في القلب ! بقوله :

((وقد ورد في الحديث من رواية البخاري : ((**ألا تراه قال : لا إله إلاّ الله** ،

---

(١) هذه الرواية من حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم في كتاب الإيمان (١/٥٥-٥٧) برقم (٢٧) .

(٢) المعلم بفوائد مسلم (١/١٩٤) .

(٣) خرجه الشيخان . وهو عند مسلم بهذا اللفظ في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/٣٦) برقم (٨) . وخرجه البخاري بلفظ آخر في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (١/١١٤) برقم (٤٩) .

(٤) كذا في النص ، ولعل الواو زائدة كي يستقيم المعنى .

(٥) إكمال المعلم (١/٢٠٣) .

يبتغي بها وجه الله ؟ »[1] . فهذه الزيادة تخرس غلاة المرجئة »[2] .

٣٨ــ وأما أبو عبدالله القرطبي فقد ذكر أن من أقرّ بلسانه وكفر بقلبه فهو منافق ، فقال عند قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[3] :

« هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر ، أي : أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب »[4] .

والمعنى : أنه لا بدّ مع الإقرار باللسان من تصديق القلب ، وإلا فلا إيمان .

وذكر القرطبي أبو العباس أن التلفظ بالشهادتين دون استيقان القلب لا ينفع في الإيمان ، وأبطل قول غلاة المرجئة في ذلك .

٣٩ــ ففي تلخيص مسلم عند باب : لا يكفي مجرّد التلفّظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب ، قال :

« هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين : إن التلفّظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان ! وأحاديث هذا الباب تدلّ على فساده ، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح ، وهذا باطل قطعاً »[5] .

٤٠ــ وفي كلامه عن أول الواجبات قال :

« هو التلفّظ بكلمتي الشهادة مصدّقاً بها » .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب المساجد في البيوت (١/٥١٩) برقم (٤٢٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (١/٤٥٥-٤٥٦) عن عتبان بن مالك ﷺ برقم (٣٣) .

(٢) إكمال المعلم (١/٢٦٧) .

(٣) سورة المنافقون : ٣ .

(٤) تفسير القرطبي (١٨/١٢٤) .

(٥) المفهم (١/٢٠٤) .

٤١ــ وقال :

((وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان))[١] .

فقيّد التلفّظ بكلمتي الشهادة بالتصديق القلبي ، وهو غاية في الوضوح في اشتراط التصديق القلبي لمن قال : لا إله إلاّ الله .

٤٢ــ وعند شرحه حديث معاذ : ((**ما من عبد يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلاّ حرّمه الله على النار**))[٢] ، قال :

((وقد زاد البخاري قيد : ((**صدقاً من قلبه**)) ، وهي زيادة حسنة تنصّ على صحة ما تضمّنته الترجمة المتقدّمة ... وعلى فساد مذهب المرجئة))[٣] .

٤٣ــ وقال ابن أبي جمرة – عند حديث أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ((**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه – أو نفسه –**))[٤] – :

((فيه دليل على أن من اعتقد الإيمان دون النطق به لا يسعد به ، ولن تناله هذه الشفاعة الخاصة ؛ لأنه ﷺ شرط في ذلك التلفّظ ، والشرط إذا عدم عدم المشروط))[٥] .

٤٤ــ وأما التتائي فقال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني ، في باب تعريف الإيمان : الإيمان بالقلب والنطق باللسان :

((واعتبر النطق باللسان لأنه إما شرط في الإيمان أو شطر منه ...))[٦] .

---

(١) المفهم (١٨٢/١) .

(٢) سبق تخريجه ص٦٨ .

(٣) المفهم (٢٠٨/١) .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب الحرص على الحديث (١٩٣/١) برقم (٩٩) .

(٥) بهجة النفوس (١٣٧/١) .

(٦) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١٤٩/١) . وشطر الشيء : نصفه ، أو جزؤه . قيل في المثل : =

ثم نقل قول الجمهور : لو آمن بقلبه و لم ينطق بلسانه فكافر .

ونقل قول القاضي عياض المتقدّم في اشتراط النطق والاعتقاد لتحقق الإيمان[١] . مما يظهر اشتراطه لقائل : لا إله إلاّ الله ، من اليقين القلبي ، فإذا كان النطق شرطاً في الإيمان ، فينتفي المشروط بعدم الشرط ، ولو كان شطرًا له فواضح .

٤٥ــ ونقل الونشريسي عن جمهور الأئمة والعلماء كفر من اعتقد الإسلام بقلبه و لم ينطق بلسانه ، فقال :

((جمهور الأئمة والعلماء من المسلمين قد قالوا : إن الإنسان إذا اعتقد الإسلام بقلبه ، و لم يظهره بنطق لسانه بالشهادتين ، فإنه لا يخلصه عند الله ، ولا يحكم له بحكم الإسلام))[٢] .

٤٦ــ وأما ميارة فقد بيّن أن النطق بكلمة التوحيد تظهر ما في القلب من الإيمان ، قال :

((جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام ... إلى أن قال : فاختار لأمته عليه الصلاة والسلام في ترجمة الإيمان هذه الكلمة المشرّفة السهلة نطقاً وذكراً ، الكثيرة الفوائد علماً وحسًّا ، فما تعبوا فيه من تعلم عقائد الإيمان الكثيرة والمفصلة جمع لهم ذلك كله في حرز هذه الكلمة المنيع ، وتمكنوا من ذكر عقائد الإيمان كلها بذكر واحد خفيف على اللسان ، ثقيل في الميزان))[٣] .

فجعل رحمه الله النطق بكلمة التوحيد ترجماناً لما في القلب من الإيمان ، وهذا ظاهر في اشتراط الإيمان في القلب لمن نطق بالتوحيد .

= احلب حلبًا لك شطره . وجمعه أشطر . ويقال : شاطرتُ فلانًا مالي : إذا ناصفته . انظر : الصحاح للجوهري (٦٩٧/٢) .

والصواب أنّ النطق شرط ، كما ذكره القاضي عياض . انظر ص٩٥ .

(١) تنوير المقالة في حلّ ألفاظ الرسالة (١٥٠/١) .

(٢) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي (١٩٠/٢) . إشراف د. محمّد حجي . ط. دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٤٠١هــ .

(٣) الدر الثمين والمورد المعين (٥٠/١) .

٤٧ـــ وبيّن النفراوي أهمية اقتران النطق بالتصديق القلبي ، قال في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني :

((فمن أقرّ بلسانه و لم يصدّق بقلبه يقال له : منافق وزنديق))(١) .

والمعنى أن إقرار اللسان ينبني على التصديق الحاصل في القلب ، وإلا فلا ينفعه عند الله .

٤٨ـــ وقال الغلاوي(٢) - وهو يتكلم عن التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين-:

((ولا تكفي النية بهما في دخول الإسلام ، بل يشترط النطق فيه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله))(٣) .

٤٩ـــ وذكر محمّد المختار أن التصديق يكون بالقلب واللسان معاً ، قال في شرحه للبخاري - عند قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ - :

((أي : لا دين مرضيّ عند الله إلاّ الإسلام ، وهو التصديق بوحدانية الله تعالى ، ورسالة نبيّه ﷺ بالقلب واللسان معاً)) .

ونقل قول القسطلاني(٤) مقرًّا له عند شرحه حديث سعد بن أبي وقّاص ﷺ ؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ...(٥) .

---

(١) الفواكه الدواني (٤٥/١) .

(٢) هو محمّد عبدالله بن البشير الغلاوي ، قال نجل حفيده محمّد الأمين السالك : كان من الزهاد ، من كتبه : فرض العين ، وميراث فرض العين ، وله نظم يسمى تقديس القدوس عدد أبياته ١٠٢ صدّره بقوله : صلى الإله على المختار سيدنا هو الشفيع غدًا في سائر الأمم

مات سنة ١٢٩٣هـــ . انظر ترجمته في مقدمة فرض العين لنجل حفيده محمّد الأمين السالك (٨) .

(٣) فرض العين (٢٧) . ط. الأولى - دبي ١٤١٩هـــ . دار القلم للنشر والتوزيع .

(٤) هو أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني العتيبي المصري ، أبو العباس شهاب الدين ، من علماء الحديث ، له : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، والمواهب اللدنية في المنح المحمدية - في السيرة النبوية - ، ولطائف الإشارات في علم القراءات ، وغيرها . مات سنة ٩٢٣هـــ .

انظر : البدر الطالع (١٠٢/١) ، والضوء اللامع (١٠٣/٢) .

(٥) والحديث خرجه البخاري : عن سعد بن أبي وقاص ؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ ، فقلت : يا رسول الله ! ما لك عن فلان ؟ فوالله إنّي =

٥٠ـ « وفيه دليل على أن الإقرار باللسان لا ينفع إلاّ إذا اقترن به الاعتقاد بالقلب ، وعليه الإجماع »[١] .

فبيّن أنه لا بد من الإقرار المقترن بالاعتقاد في القلب ، وإلا لم ينفع صاحبه .

٥١ـ وذكر ابن العربي أن الإيمان لا يصح إلاّ بقول : لا إله إلاّ الله ، قال – في تفسير قوله تعالى : ﴿ آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[٢] – :

« وفرعون لم يقبل منه ما قال ؛ لأنه عدل عن لفظ : لا إله إلاّ الله[٣] ، وهو لفظ مخصوص بالإيمان ، لا يجوز غيره »[٤] .

٥٢ـ قال الشيخ عثمان بن فودي[٥] :

« وقد انعقد الإجماع على أن من أقرّ بالشهادتين جرت عليه الأحكام الإسلامية ، فيناكح ، ويؤمّ ، وتؤكل ذبيحته ، ويرثه المسلمون ويرثهم ، ويدفن في

= لأراه مؤمناً . فقال : أو مسلماً . فسكتُّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم عنه فعدت لمقالتي ، فقلت : ما لك عن فلان ؟ فوالله إنّي لأراه مؤمناً . فقال : أو مسلماً . ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي ، وعاد رسول الله ﷺ . ثم قال : « **يا سعد ! إنّي لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه ، خشية أن يكبّه الله في النار** » . كتاب الإيمان ، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة كان على الاستسلام أو الخوف من القتل (٧٩/١) برقم (٢٧) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١٣٢/١) برقم (١٥٠) .

(١) نور الحقّ الصبيح (٨١/١) .

(٢) سورة يونس : ٩٠ .

(٣) ما ذكره ابن العربي يبيّن أن الحكم بالإسلام متوقّف على النطق بالشهادة ، وإلا ففرعون قال ما قال وقت الغرغرة ، والذي لا تقبل منه التوبة كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ... ﴾ ، فلو نطق بالشهادة لم تقبل منه في هذا الوقت .

(٤) عارضة الأحوذي (٢٧١/١١) .

(٥) هو عثمان بن فودي النيجيري ، عالم فاضل ، مالكي المذهب ، صاحب دعوة ، قال البهي : هو مؤسس النهضة الحالية في إفريقيا الغربية . مات سنة ١٢٣٢هـ . انظر مقدمة كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة .

مقابرهم))[1] .

فبيّن أهمية الإقرار بالشهادتين ، وبه يحكم بالإسلام .

٥٣ــ وذكر محمّد حبيب الله الجكني[2] ((تصريح الفقهاء بأن الكافر الأصلي إن أبى أن يصرح بالشهادتين لا يزال كافراً حتى ينطق بالشهادتين ، قال في المراصد :

فإن يكن والنطق منه مـــا اتفق ... فإن يكن عجزاً يكن كمن نطق

وإن يكن ذلــــك عن إبـــاء ... فحكمـــه الكفـــر بلا امتـــراء

فالتصميم القلبي دون نطق بالشهادتين لا يكفي الإسلام ، إذ النطق شرط فيه ، فلا تجري عليه أحكامه الظاهرة ، وكذا لا ينفعه في الباطن إن أظهر خلافه ، كأبي طالب ، إلاّ إذا كان عاجزاً عن النطق مع قيام القرائن على أنه أذعن بقلبه ، قد أشار خليل في مختصره لذلك بقوله : لا الإسلام إلاّ لعجز))[3] .

٥٤ــ وبيّن الشيخ محمّد الأمين الشنقيطي رحمه الله أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد ، فقال :

((إن الحق الذي لا شكّ فيه ، الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة : أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد ، وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة ، منها حديث وفد عبدالقيس المشهور ، ومنها حديث : ((**من قام رمضان إيماناً واحتساباً ...**)) الحديث[4] ، فسمّى فيه قيام رمضان إيماناً ، وحديث : ((**الإيمان بضع وسبعون شعبة** – وفي بعض رواياته : **بضع وستّون شعبة** – **أعلاها شهادة أن**

---

(١) إحياء السنة وإخماد البدعة (٧٤) . ط. المؤتمر العالمي الرابع للسيرة النبوية بالأزهر ١٤٠٦هــ . ط. الثانية .

(٢) هو محمّد حبيب الله بن عبدالله بن أحمد مايابي الجكني الشيقيطي ، عالم بالحديث ، ولد وتعلم بشنقيط ، واستقرّ بالقاهرة معلّمًا في الأزهر ، من كتبه : زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ودليل السالك إلى موطأ مالك ، وغيرهما . مات سنة ١٣٦٣هــ . انظر الأعلام (٧٩/٦) .

(٣) فتح المنعم (٨/٢-٩) .

(٤) خرجه البخاري في صحيحه (١٤/١) .

لا إله إلاّ الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] »[2] .

٥٥ــ وقال أيضاً في موضع آخر :

« إن مسمّى الإيمان الشرعي الصحيح ، والإسلام الشرعي الصحيح : هو استسلام القلب بالاعتقاد ، واللسان بالإقرار ، والجوارح بالعمل »[3] .

فكلام الشيخ يؤكد ما كان عليه السلف رحمهم الله في بيان الإيمان الشرعي ، وأنه القول والاعتقاد والعمل ، ولا يكفي الإتيان بواحد دون الآخر ، بل لا بد منها جميعاً .

وعليه فلا بد لمن قال : لا إله إلاّ الله ، من الاعتقاد الجازم بها .

وبذلك يظهر مدى اهتمام الأئمة من المالكية بهذا الشرط ، حيث بيّنوا أن النطق باللسان لا بدّ أن يقترن به الاعتقاد القلبي ، وذلك يتضح من خلال النصوص المنقولة عنهم في هذا المبحث .

---

(١) خرجه مسلم في صحيحه (٦٣/١) ، إلاّ أن فيه : « **أفضلها** » بدل « **أعلاها** » .

(٢) أضواء البيان (٢٠١/٧) .

(٣) أضواء البيان (٦٣٦/٧ و ٤٤٠/٦ و ٢٧٩/٧) .

الشرط الثاني : العلم بمعنى كلمة التوحيد

وقد اعتنى مالك بهذا الشرط ، وبيّن أنه لا بدّ في عتق الكفارات والظهار – بعد اشتراط الإيمان – من عقل الإسلام .

فبعد اشتراط مالك الإيمان في كفارات العتق والظهار سئل عن الصبي والجارية الصغيرة ، فقال :

٥٦ــ « وأحبّ إليّ أن يعتق من صلّى وصام »[١] .

٥٧ــ وبيّن ابن القاسم معنى قول مالك : « صلى وصام » ، فقال :

« فمعنى قوله : من صلى وصام ، أي : من قد عقل الإسلام ؛ الصلاة والصيام »[٢] .

وفي رواية أخرى : « إن كان كبيراً يعقل الإسلام ، ويعرف ما أجاب إليه »[٣] .

ومما يبيّن هذا المعنى عند مالك ويوضحه : تفضيله في العتق من صلى وصام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام ، ومعنى ذلك : أن مالكاً رحمه الله قدّم من صلى وصام وعقل الإسلام ، وعرف معناه على الأعجمي الذي لا يعرف معنى ما أجاب إليه .

٥٨ــ قال ابن القاسم : « وسألت مالكاً عن الأعجمي يشتريه فيعتقه عن ظهاره ، قال : نعم ؛ إن كان من ضيق النفقة فأرجو أن يجزئ عنه . وقال أيضاً : ومن صلّى وصام أحبّ إليّ من أعجمي قد أجاب إلى الإسلام »[٤] .

---

(١) المدونة (٣/٧٥) . ط. دار صادر .

(٢) المدونة (٣/١٧٥) .

(٣) المدونة (١/١٧٨) .

(٤) المدونة (٣/٧٥) .

ومعلوم أن من أعظم ما يجب معرفة معناه : الشهادتين ، إذ بهما يدخل في التوحيد ، ويقرّ بالرسالة ، ويعلم ما يلزم من ذلك ، وهذا ظاهر من تقديم مالك رحمه الله في الكفارات من عقل الإسلام ، وتفضيل من صلى وصام وعقل الإسلام على الأعجمي الذي أجاب إلى الإسلام .

٥٩ــ ومن ذلك أيضاً في اشتراطه عقل الدين والعلم به ما ذكره ابن القاسم بقوله : « لا يجبر الصبيّ المسبي على الإسلام إذا كان قد عقل دينه »[(١)] .

قال محمّد بن خالد[(٢)] : وأراه قد ذكره عن مالك .

فما نقله ابن القاسم عن مالك هنا يبين اهتمام مالك رحمه الله بمعرفة وعقل الدين ، إذ أنه لم يجبر هذا السبي على الإسلام إن كان يعرف دينه ويعقله .

وأما إذا لم يعقل دينه فيجبر على الدخول في الإسلام .

وهذا ظاهر في اشتراط العلم بما يدين به الإنسان ، وما يلزم من ذلك ، فالمسلم لا بد من معرفته بأصل الإسلام (كلمة التوحيد) ، والعلم بمعناها .

٦٠ــ كما يبيّن ذلك أن مالكاً سئل : عن رجل نادى رجلاً باسمه ، فقال : لبيك اللهم لبيك ، أعليه شيء ؟ قال مالك : « إن كان جاهلاً أو على وجه السفه[(٣)] فلا شيء عليه »[(٤)] .

---

(١) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

(٢) هو محمّد بن خالد بن مرتنيل مولى عبدالرحمن بن معاوية ، يعرف بالأشج ، قرطبي نبيه ، رحل فسمع من ابن القاسم ، وابن وهب ، وأشهب ، وابن نافع ، ونظرائهم من المدنيين والمصريين ، وكان الغالب عليه الفقه ولم يكن له علم بالحديث . مات سنة ٢٢٠هـ ، وقيل : ٢٢٤هـ .

انظر : الديباج (٣٣٠) ، وجذوة المقتبس (٥٣) .

(٣) ويقصد بذلك السفه الذي بمعنى الجنون ، والله أعلم .

(٤) البيان والتحصيل (٣٧٠/١٦) .

٦١ــ وبيّن ابن رشد معنى ذلك ، فقال :

((أما الجاهل فبيّن أنه لا شيء عليه ، لأنه لا يدري ما معنى الكلام))[١] .

فهذا يبين أن الإمام مالكاً رحمه الله اعتبر ضرورة تحقيق العلم بمعنى ما يقول حتى يعد مسلمًا ، ولذا لم ير على من تلفّظ بهذا الكلام الخطير شيئاً إذا كان جاهلاً لا يعرف معنى ما يقول ، وهكذا من ينطق بكلمة التوحيد لزمه معرفة معنى ما نطق به ، فكما أن من تلفظ بالشرك وهو جاهل لا يعرف معنى ما تلفظ به لم يعدّوه مشركاً ، فكذلك من نطق بكلمة التوحيد وهو جاهل بمعناها لا يعتدّ بإسلامه .

٦٢ــ وفي رواية يحيى عن مالك ((فيمن ارتدّ بعد أن شهد وأقرّ بالنبي ﷺ وعرف الفرائض ... وتشهّد به بعد العلم به ، وهو ممن لا يعذر بالجهالة ؟ فلم يجب بشيء))[٢] .

فهنا ذكر أنه تشهّد وأقرّ عن علم ، وهو ممن لا يعذر بالجهالة ، فهذا يبيّن اشتراط العلم بمعنى الشهادة والإقرار بالرسالة عند مالك رحمه الله .

وأما كونه لم يجب بشيء فكما ذكر ابن رشد ((أنه لا يقتل عند مالك على الكفر من أنكر الإسلام من أهل الذمة إلاّ من رؤي يصلّي))[٣] .

فاشترط أيضاً العمل بشرائع الإسلام في حال إسلامه لثبوت الردّة ، فذكرهم للعلم هنا لمن أقرّ بالشهادتين وعرف الفرائض يدلّ على اهتمامهم الكبير بهذا الشرط من شروط كلمة التوحيد ، فصرّحوا هنا بالعلم بما تشهّد وأقرّ به ، وهو نصّ في اشتراط العلم بمعنى كلمة التوحيد .

---

(١) البيان والتحصيل (٣٧١/١٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٣٣/١٦) .

(٣) انظر البيان والتحصيل (٤٣٤/١٦) .

وبمجموع ما تقدّم يتبيّن أن مالكاً رحمه الله اعتنى بشروط كلمة التوحيد ، ومن ذلك العلم بمعنى هذه الكلمة .

٦٣ــ وذكر ابن بطال قول مالك : « ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يضعه الله في القلوب »(١) ، ثم قال : « يعني بذلك فهم معانيه واستنباطه » .

فمن نطق بكلمة التوحيد فلا بدّ أن يعرف معنى هذه الكلمة وما يلزم لها .

٦٤ــ وقد ذكر القاضي عياض كلاماً نفيساً بيّن فيه أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين ، لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى ، فقال - عند حديث عثمان رضي الله عنه المرفوع : « **من مات وهو يعلم أنه لا إله إلاّ الله ؛ دخل الجنّة** »(٢) - :

« وقد يحتجّ به أيضاً من يرى أنّ معرفة القلب مجرّدة نافعة دون النطق بالشهادتين، لاقتصاره على العلم ، ومذهب أهل السنة أنّ المعرفة مرتبطة بالشهادتين، لا تنفع إحداها ولا تنجي من النار دون الأخرى ، إلاّ لمن لم يقدر عليها من آفة بلسانه ... »(٣) .

فكلامه رحمه الله غاية في الحسن ، حيث يكشف عن مذهب أهل السنة الذي يوجب ضرورة النطق بالشهادتين حالة كونهما مرتبطتين بالعلم بدلالتهما ليعدّ إسلام هذا معتبرًا ، ليخرج من نطق بهما جاهلاً معناهما فلا يعتدّ بإسلامه ، وتظهر قيمة هذا الشرط فيمن نطق بهما جاهلاً معناهما ثم ظهر منه ما يفيد ارتداده عن الإسلام ، فمثل هذا لا يعدّ مرتدًّا ؛ لأنه لم يحكم بإسلامه حتى يعدّ راجعًا عنه ، بل هو ما زال مقيمًا على كفره .

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٥٧/١) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٥٥/١) برقم (٢٦) .

(٣) إكمال المعلم (٢٥٣/١) .

٦٥ــ ونقل القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ إلاّ من شهد بالحقّ وهم يعلمون ﴾[١] قول ابن عباس وسعيد بن جبير في (شهادة الحق) أنها لا إله إلاّ الله ، وبيّن أن الشهادة بالحق لا تنفع إلاّ مع العلم كما ينطق بذلك ظاهر الآية . ثم قال :

« وشرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها »[٢] .

فإذا كان العلم بالشهادة شرطاً في الحقوق الدنيوية ، فكيف بأعظم شهادة على أجلّ مشهود : التوحيد . كما قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ﴾[٣] ، فالعلم بها من باب أولى .

٦٦ــ وذكر الونشريسي[٤] فتوى أحمد بن عيسى[٥] فقيه بجانة[٦] عمّن نطق بكلمة التوحيد مع جهل معناها ، قال :

« من نشأ بين أظهر المسلمين ، وهو ينطق بكلمة التوحيد ، مع شهادة الرسول ﷺ ، ويصوم ويصلّي ، إلاّ أنه لا يعرف المعنى الذي انطوت عليه الكلمة الكريمة ... لا يضرب له في التوحيد بسهم ، ولا يفوز منه بنصيب ، ولا ينسب إلى إيمان ولا

---

(١) سورة الزخرف : ٨٦ .

(٢) تفسير القرطبي (١٢٣/١٦) .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

(٤) هو أحمد بن يحيى بن محمّد الونشريسي ، نزيل مدينة فاس وفقيهها ، فقيه مالكي أخذ عن علماء تلمسان ، من كتبه : إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك ، والمعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس وبلاد المغرب ، والقواعد في فقه المالكية ، وغيرها . مات سنة ٩١٤هـ .
انظر : جذوة الاقتباس (١٥٦/١) ، والأعلام (٢٦٩/١) .

(٥) هو أحمد بن عيسى بن أبي هلال الأشجعي ، فقيه أندلسي من أهل بجانة ، رحل إلى المشرق ، كان فقيهًا صالحًا ، مات سنة ٤٠٠هـ . انظر : أعلام المغرب العربي (٣٥٠/٢) .

(٦) بجانة : مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة ، خربت وانتقل أهلها إلى المرية ، وبينها وبين غرناطة مائة ميل . انظر : معجم البلدان (٣٣٩/١) . ط. دار صادر .

إسلام ، بل هو من جملة الهالكين ، وزمرة الكافرين ، وحكمه حكم المجوس في جميع أحكامه ، إلاّ في القتل ؛ فإنه لا يقتل إلاّ إذا كان امتنع عن التعليم[1]))[2] .

فما نقله الونشريسي نصّ في أن العلم بمعنى كلمة التوحيد شرط من شروط لا إله إلاّ الله .

٦٧ــ ونقل نفس المعنى ميارة[3] .

٦٨ــ وقال محمّد بن يحيى المختار - عند شرح حديث : ((**... وأعلمكم بالله أنا ...**)) ، وتفسير البخاري للمعرفة بأنها فعل القلب - :

(((فعل القلب) أي : اعتقاده أنّ الله واحد لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، جاء من عنده بالحق مبشّراً ونذيراً ، وأما مجرّد التلفّظ بالشهادتين من غير اعتقاد لما تضمنتا فليس بمعرفة ، بل هو نفاق))[4] .

٦٩ــ وعند قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾[5] قال :

((فدلت الآية الكريمة على أنّ المعرفة بالله تعالى التي يثاب عليها إنما هي معرفة القلب ، أي : اعتقاد وحدانيته وصدق رسوله ﷺ بالقلب ، وأما التلفّظ بما يدل على ذلك من غير اعتقاد لمضمونه فلا يثاب عليه ؛ لأنه ليس بمعرفة لله ﷻ ، بل هو عين

---

(١) وهذه وإن كانت شرطاً ، إلاّ أنها تحمل على من لا يعرف معناها حتى في التطبيق ، أما من صلّى وصام وقام بالأركان ، إلاّ أنه يجهل المعنى فلا يحكم بكفره ، وأرى أن لا تؤخذ الفتوى المتقدمة على عمومها ، إذ لو أخذناها على عمومها دون تخصيص لها لأخرجنا الجمّ الغفير من عامّة المسلمين من الإسلام ، والله أعلم .

(٢) المعيار المعرب (٢/٣٨٣) .

(٣) انظر الدرّ الثمين والمورد المعين (١/٥٤-٥٥) .

(٤) نور الحق الصبيح (١/٦٠) .

(٥) سورة البقرة : ٢٢٥ .

النفاق الذي هو أسوأ الكفر ، أعاذنا الله منه »[1] .

وهذا يبيّن أنّ المعرفة من شروط « لا إله إلاّ الله »[2] .

٧٠ــ وقال الميلي[3] :

« مجرّد النطق بالشهادتين لا يطرد عن ساحة القلب شبح الشرك ، ولا سيما نطق من لُقّنهما تقليداً عاديًّا خالياً من فهم معناهما ، وإنما اعترف بهما بحكم الوسط ، لا باضطرار العلم ، ولم ينطق المشركون بالشهادتين لما دعاهم رسول الله ﷺ لأنهم عالمون بمعناها ، ويرون النطق بهما التزاماً لما يدعو إليه الرسول ، ونبذاً لما يخالف دعوته ، وقد أصابوا في هذا الرأي ، ثم اختاروا بعد ذلك الرأي الناشئ عن العلم باللّغة ومعاني الكلام : التمسّك بما وجدوا عليه آباءهم ! وقد أخطأوا في هذا الاختيار ، ولو رأوا مجرّد التشهّد كافياً في رفع وصف الشرك عنهم – مع بقائهم على عقائدهم الباطلة ، وعوائدهم القبيحة – لأقرّوا واستراحوا »[4] .

ثم ذكر أن التلفّظ بالشهادتين لا ينفع ما لم يعلم معناها ، ويعلم بمقتضاها من إفراد الله تعالى بالعبادة دون ما سواه ، فقال :

٧١ــ « فوصف الشرك يلحق من أخذ بحظ من عقائد وعوائد سمى الإسلام أهلها – من أجلها – : مشركين ، ولا يغني مع ذلك تلفّظه بالشهادتين » .

ومراده أنهم لعدم معرفتهم معنى الشهادتين المقتضي إفراد الله بالعبادة وقعوا فيما يخالفها من الشرك .

---

(١) نور الحق الصبيح (٦١/١) .

(٢) وبمثل ذلك قال الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري : انظر كوثر المعاني الدراري (١٣/٢) ، عند حديث : « **أنا أعلمكم بالله** » .

(٣) هو الشيخ مبارك الميلي ، أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ، كان له دعوة إصلاحية في جنوب الجزائر ، له : رسالة الشرك ومظاهره . انظر كتاب الإسلام الجزائري (١٨٨) .

(٤) رسالة الشرك ومظاهره (٢٨-٢٩) . ط. الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية . ط. الأولى ١٤٠٧هـ .

الشرط الثالث : الإخلاص لمن قال : « لا إله إلا الله »

٧٢ــ قال أشهب : سألنا مالكاً عن قوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾[١] ، قال :

« لا بأس أن يحب الرجل الثناء الحسن إذا خلصت فيه النية » .

٧٣ــ قال ابن العربي :

« صدق مالك ؛ مدار كل نية وعمل على الإخلاص »[٢] .

فنبّه ابن العربي على أن الإخلاص مطلوب في كل شيء ، وأعظم ما يطلب فيه الإخلاص : كلمة التوحيد ، فلا بدّ لقائلها من الصدق والإخلاص .

٧٤ــ وقال ابن أبي زيد في متن الرسالة :

« وفرض على كل مؤمن أن يريد بكل قول وعمل من البر وجه الله الكريم ، ومن أراد بذلك غير الله لم يقبل عمله »[٣] .

فقوله : « أن يريد بكل قول ... » يدخل فيه كلمة التوحيد التي لا بد من الصدق والإخلاص في النطق بها ، وإلا لم تقبل .

٧٥ــ وذكر في تعريف الإيمان أنه « قول باللسان ، وإخلاص بالقلب ، وعمل بالجوارح ... » إلى قوله : « ولا قول إلاّ بعمل ، ولا قول وعمل إلاّ بنية ، ولا قول وعمل ونية إلاّ بموافقة السنة »[٤] .

وذكر أن هذا من قول مالك ، قال : « وكله قول مالك ، فمنه ما هو منصوص

---

(١) سورة الشعراء : ٨٤ .

(٢) القبس (١٠٧٨/٣) .

(٣) متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٩٤) .

(٤) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٢) .

من قوله ، ومنه ما هو معلوم من مذهبه))[١] .

وأورد ابن بطال أثراً عن عبدالله بن عمرو بن العاص يذكر فيه فضل لا إله إلاّ الله ، وأنها كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها ، قال :

((وذكر الطبري بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : ((إن الرجل إذا قال : لا إله إلاّ الله ، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها ...))[٢] .

٧٦ـــ وفي شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ[٣] قال :

((وفيه : أن الشفاعة إنما تكون في أهل الإخلاص خاصة ، وهم أهل التصديق بوحدانية الله ورسله ، لقوله ﷺ : (**خالصاً من قلبه** – أو : **نفسه** –)))[٤] .

٧٧ـــ وأورد الطرطوشي حديث معاذ بن جبل : ((ما من أحد يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلاّ حرمه الله على النار))[٥] ، وحديث أبي هريرة : ((من أحق الناس بشفاعتك ...)) ، وحديث عتبان : ((لن يوافي عبد يوم القيامة بقول : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، يبتغي بها وجه الله ؛

---

(١) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٤٩) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/١٣٢) .

(٣) الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال : يا رسول الله ! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : ((**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه** – أو : **نفسه** –)) . خرجه البخاري في العلم : باب الحرص على الحديث . الفتح (١/١٩٣) ، وفي الرقاق : باب صفة الجنة والنار (١١/٤١٨) .

(٤) شرح صحيح البخاري (١/١٧٦) .

(٥) تقدم تخريجه ص٦٨ .

إلاّ حرّمه الله على النار))[1] .

فإيراده[2] لهذه الأحاديث يظهر اهتمامه بهذا الشرط من شروط لا إله إلاّ الله .

٧٨ــ وقال عبدالحقّ الإشبيلي[3] :

((والمقصود أن يموت الرجل ولا يكون في قلبه إلاّ الله وحده ؛ لأن المدار على القلب الذي ينظر فيه ، وتكون النجاة بسببه ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ، ولا خير عندها))[4] .

وكلامه نصّ في أهمية الإخلاص لمن نطق بالتوحيد .

٧٩ــ وقال الغلاوي - وهو يتحدّث عن الشهادتين - :

((ويقولها مخلصاً بها ، ليسلم من النفاق))[5] .

٨٠ــ وذكر القاضي عياض رحمه الله الأحاديث التي جاءت مطلقة في فضل لا إله إلاّ الله ، كما أوردها مسلم في صحيحه ، ثم قال - مقرّراً مذهب أهل السنة والجماعة بأجمعهم ، من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء - :

((من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل

---

(١) تقدم تخريجه ص٦٨ .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٦-١٨٧) .

(٣) هو أبو محمّد عبدالحق بن عبدالرحمن بن عبدالله الأزدي الأندلسي الإشبيلي ، المعروف ابن الخرَّاط ، عالم بالحديث وعلله ، عارف بالرجال ، موصوف بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السنة ، من كتبه : مصنف كبير جمع فيه بين الكتب الستة ، وله كتاب الرقاق ، وكتاب العاقبة في الوعظ . مات سنة ٥٨١هــ . انظر : السير (٢١/١٩٨) .

(٤) العاقبة في ذكر الموت والآخرة (ص١٤٥) . ط. مكتبة دار الأقصى - الكويت ، ط. الأولى ١٤٠٦هــ .

(٥) فرض العين (٢٧) .

الجنة))[1] .

٨١ـــ وعند حديث : ((إنما الأعمال بالنيات))[2] قال :

((إن الحديث مفسّر لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[3])) .

ونقل عن بعض شيوخه قولهم : (((إنما الأعمال بالنيات) يرجع إلى معنيين :

أحدهما : تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد .

والآخر : تجريده بخالص السنّة))[4] . بمعنى أن يطابق العمل ما جاءت به السنة من غير مضادة أو معاندة .

٨٢ـــ وذكر ابن أبي جمرة أنّ ((لا إله إلاّ الله)) لا تنفع قائلها إلاّ مع الإخلاص فيها ، فقال – في شرحه لحديث : ((**أمرت أن أقاتل الناس ...**)) – :

((وفيه دليل على أنّ هذا الذكر الخاص – وهو قول : لا إله إلاّ الله – إذا كانت خالصة أمان لصاحبها في الظاهر والباطن ، فالأمان الذي هو في الظاهر هو ما تضمنه قوله ﷺ : ((فقد عصموا منّي)) ، والأمان الذي هو في الباطن هو تضمّنه قوله ﷻ : ﴿ ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب ﴾[5]))[6] .

٨٣ـــ وقال – عند حديث أبي هريرة : ((من أسعد الناس بشفاعتك ...)) – :

---

(١) إكمال المعلم (١/٢٥٥) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/٩) برقم (١). ومسلم في كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : " **إنما الأعمال بالنية** ". (١٥١٥/٣) برقم (١٩٠٧).

(٣) سورة البينة : ٥ .

(٤) إكمال المعلم (٦/٣٣٢) .

(٥) سورة الرعد : ٢٨ .

(٦) بهجة النفوس (٣/١٣٣) .

« ظاهر الحديث يدلّ على أنه لا يسعد بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة إلاّ من قال : لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه أو نفسه »[1] .

٨٤ــ وبيّن ابن جزي معنى الإخلاص المذكور في قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ ، فقال :

« الإخلاص يراد به التوحيد وترك الشرك ، أو ترك الرياء . وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال ، وعدم الإخلاص في التوحيد هو الشرك الجلي ، وعدم الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي ، وهو الرياء »[2] .

٨٥ــ وقال محمّد بن يحيى المختار عند حديث أبي هريرة : « **أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال** : **لا إله إلاّ الله ، خالصاً من قلبه ...** »[3] الحديث :

« يعني أن أسعد الناس بشفاعته ﷺ في القيامة من قال : لا إله معبود على الحقّ إلاّ الله ، قولاً خالصاً لا شائبة معه »[4] .

٨٦ــ وعرّف محمّد الأمين الإخلاص بأنه « إفراد المعبود بالقصد في كلّ ما أمر بالتقرّب به إليه »[5] .

٨٧ــ وعند قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾[6] قال :

« أمر الله نبيّه أن يعبده في حال كونه مخلصاً له الدين ، أي : مخلصاً في عبادته من جميع أنواع الشرك ، صغيرها وكبيرها » .

---

(١) بهجة النفوس (١/١٣٠) .

(٢) التسهيل (٤/٤١٥) . ط. دار الكتب الحديثة – مصر . تحقيق محمّد عبدالمنعم وإبراهيم عطوه .

(٣) سبق تخريجه ص٩٧ .

(٤) نور الحقّ الصبيح (١/٢٣٥) .

(٥) أضواء البيان (٧/٤٢) .

(٦) سورة الزمر : ٢ .

٨٨ـــ وقال أيضاً عند الآية : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[١] :

« أي : التوحيد الصافي من شوائب الشرك ، أي : هو المستحقّ لذلك وحده ، وهو الذي أمر به ، وقول من قال من العلماء : إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلاّ الله ، موافق لما ذكرناه »[٢] .

٨٩ـــ وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون ﴾[٣] فقال :

« ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جميع الرسل جاؤوا بإخلاص التوحيد لله ، الذي تضمنته كلمة لا إله إلاّ الله ...»[٤] .

فذكر أن المراد بالآية : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ التوحيد ؛ كلمة « لا إله إلاّ الله » ، وأن تكون خالصة من شوائب الشرك ، فتعريفه للإخلاص بأنه إفراد المعبود بالقصد في كل ما أمر بالتقرّب به إليه يدخل فيه كلمة التوحيد دخولاً أوّليًّا لابتناء كل الأمور عليها ، مما يدلّ على عنايته بهذا الشرط من شروط « لا إله إلاّ الله » .

---

(١) سورة الزمر : ٣ .

(٢) أضواء البيان (٧/٤٢-٤٣) .

(٣) سورة الزخرف : ٤٥ .

(٤) أضواء البيان (٧/٢٥٤) .

الشرط الرابع : الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ مع الانقياد لأمر الله ورسوله ﷺ

جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم ؛ أنّ النبي ﷺ قال : ((**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله**))[١] .

فقوله : ((**ويؤمنوا بما جئت به**)) نص في شرط الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ.

٩٠ــ وفي هذا قال معن[٢] :

((وكتب إلى مالك من المغرب يسأل عن قوم يصلون ركعتين ، ويجحدون السنة ، ويقولون : ما نجد إلاّ ركعتين !

قال مالك : أرى أن يُستتابوا ، فإن تابوا وإلا قُتلوا))[٣] .

٩١ــ وبيّن ابن رشد معنى ذلك بقوله :

((لأن صلاة الظهر والعصر والعشاء الأخيرة أربع ركعات لا يقال فيها : إنها سنة ! بل هي فريضة أحكمتها السنة ، وانعقد عليها الإجماع ، فمن جحد ذلك كان كافراً))[٤] .

فحكم عليهم مالك بالقتل ؛ لأنهم لم ينقادوا لأمر رسول الله ﷺ ، الذي بيّن مقدار الصلوات بقوله وفعله .

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله (٢٥/١) برقم (٢١) .

(٢) هو معن بن عيسى بن يحيى القزاز ، فقيه ثقة ثبت ، كان من كبار أصحاب مالك ، وخرج له البخاري ومسلم . وقرأ الموطأ على مالك لهارون الرشيد وابنيه ، وكان يتوسد عتبة باب مالك ، وهو ممن خلف مالكًا في الفقه في المدينة . مات سنة ١٩٨هـــ .

انظر : ترتيب المدارك (١٤٨/٣) ، وشجرة النور (٥٦) .

(٣) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

(٤) البيان والتحصيل (٤٣٧/١٦) .

٩٢ــ قال ابن بطال – عند حديث : ((**أمرت أن أقاتل الناس ...**)) – :

((وقاتل آخرين من أهل الكفر كانوا يوحّدون الله ، غير أنهم كانوا ينكرون نبوّة محمّد ﷺ ، فقال : ((**أمرت أن أقاتل الناس ...**)) ، وذلك أن كفرهم كان جحداً بالنبوة ، فمن أقرّ بما عليه قوتل[١] فقد حرم دمه وماله ، إلاّ بظهور نقض شرائط ما أقرّ به بعد الإقرار بجملته ، وذلك هو الحق الذي كشف عنه قوله ﷺ : ((**إلاّ بحقّها**)) ، ولو أن أهل الأوثان وحد بعضهم وشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحكم له بحكم الإسلام في منع نفسه وماله ، ثم عرضت عليه شرائع الإسلام بعد ذلك فامتنع من الإقرار برسول الله ؛ كان لا شكّ بالله كافراً ، وعاد حربيًّا ، وكذلك الذي أقرّ بنبوة محمّد لو أنكر شيئاً من الفرائض لعاد حربيًّا[٢] كافراً))[٣] .

فبيّن أن الإقرار بلا إله إلاّ الله له شروط ، فمن نقضها فليس بحرام الدم والمال ، ومن ذلك الإقرار بالرسالة ، فمن لم يؤمن بما جاء به النبي ﷺ ، فلا ينفعه الإقرار بكلمة التوحيد ، إذ لم يأت بشروطها .

٩٣ــ وقال الباجي رحمه الله :

((وأمرنا ﷺ بأن نؤمن بالله وحده لا شريك له ولا ظهير ، ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله ، وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت ، والحساب والثواب والعقاب ، وأن من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به فلا بد له من الجنة ، و أن من كفر به – أو بشيء مما جاء

---

(١) أي : الإقرار بالشهادتين ، ومراده أن من أقرّ بالذي يكون عليه قتال الناس : يحرم دمه وماله .

(٢) وهاتان الصورتان تفيدان جهل كلٍّ بما نطق به ، وذلك لأن المرتدّ على حسب قول مالك ، وقد سبق من أقر بالشهادتين وعمل بما لزمتاه به من تشريعات ، ثم طرأ عليه بعد ذلك الارتداد .

(٣) شرح صحيح البخاري (٥٣/٢) .

به – فإنه مخلّد في النار ... »[1] .

٩٤ــ وقال ابن العربي :

« ولا ينفع الإيمان بالله ما لم يقترن به تصديق رسول الله »[2] .

٩٥ــ وأكّد هذا المعنى القاضي عياض رحمه الله بقوله :

« فالإيمان بالنبي ﷺ واجب متعيّن ، لا يتم إيمان إلاّ به ، ولا يصحّ إسلام إلاّ معه . قال الله تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾[3] »[4] .

ولا ريب أنّ الإيمان بالنبي ﷺ يلزم منه الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام .

٩٦ــ كما نبه على ذلك القاضي عياض ، فقال :

« والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له ، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان ، ثم الإيمان به والتصديق له ، كما ورد في الحديث نفسه من رواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله** » ، وزاده وضوحاً في حديث جبريل ، إذ قال : أخبرني عن الإسلام . قال النبيّ ﷺ : « **أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ...** » وذكر أركان الإسلام »[5] .

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي عليها (٨٣) .

(٢) عارضة الأحوذي (٢٧١/١١) .

(٣) سورة الفتح : ١٣ .

(٤) الشفا (٥٣٨/٢) .

(٥) الشفا للقاضي عياض (٥٣٩/٢) .

وبيّن أبو العباس القرطبي رحمه الله أنّ النطق بكلمة التوحيد والرسالة متلازمتان .

٩٧ــ قال - عند رواية : « **أمرت أن أقاتل الناس ...** » - :

« ظاهره أن من نطق بكلمة التوحيد فقط حكم له بحكم الإسلام ، وهذا الظاهر متروك قطعاً ؛ إذ لا بدّ مع ذلك النطق بالشهادة بالرسالة »(١) .

٩٨ــ وقال أيضاً : « فمن وحّد الله تعالى و لم يؤمن بالنبي ﷺ لم ينفعه إيمانه بالله تعالى ، ولا توحيده ، وكان من الكافرين بالإجماع القطعي »(٢) .

٩٩ــ وذكر محمّد بن يحيى المختار عند حديث وفد عبد القيس - وفيه : « **أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟** » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله** »(٣) - قوله :

« فالإيمان بالله وحده اعتقاد هاتين الشهادتين جزماً والنطق بهما داخلاً في الإيمان بالله وحده ؛ لأنّ من لم يصدق بها كان مكذّباً لله تعالى ، لأن الله تعالى شهد له بالرسالة »(٤) .

وبعد ذكر هذه الشروط بيّن أئمة المالكية أنه لا بدّ لقائل لا إله إلاّ الله من الموت عليها أيضاً ليتحقق له دخول الجنة .

١٠٠ــ فنقل ابن بطال قول شيخه المهلّب مقرًّا له في شرحه : باب من كان

---

(١) المفهم (١/١٨٧-١٨٨) .

(٢) المفهم (١/٢٩١) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان (١/١٢٩) برقم (٥٣) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١/٤٧) برقم (١٧) .

(٤) نور الحق الصبيح (١/١٥١) . وذكر مثل هذا المعنى الشنقيطي في شرحه لصحيح البخاري : كوثر المعاني الدراري (١/٤٠٩) ، وزاد : « وهذا فيه من غاية تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما يدهش العقول ؛ حيث إن الله تعالى جعل الإيمان به عليه الصلاة والسلام إيماناً به تعالى وحده » .

آخر كلامه لا إله إلاّ الله :

((لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال : لا إله إلاّ الله ، ومات عليها لا بدّ له من الجنة ، ولكن بعد الفصل بين العباد وردّ المظالم إلى أهلها – وذكر حديث معاذ : أن النبي ﷺ حين أرسله إلى اليمن أوصاه أن ييسّر ولا يعسّر ، ويبشّر ولا ينفّر ، وقال : (**إنه سيقدم عليك قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له**)[1]))[2] .

١٠١ـــ وقال الطرطوشي :

((وحسبك شرفاً وجلالة لهذه الكلمة ما روى أبو داود : أنّ النبي ﷺ قال : ((**لقّنوا موتاكم لا إله إلاّ الله**)) ، فمفتاح الدخول في الإسلام : لا إله إلاّ الله ، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله تعالى : لا إله إلاّ الله))[3] .

وأورد حديث ابن عمر رضي الله عنه : أنّ عمر بن الخطاب رأى طلحة ثقيلاً فقال له : مالك ؟ قال : كلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**لا يقولها أحد عند موته إلاّ**

---

(١) حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن مخرج في الصحيحين : البخاري في كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة (٣/٢٦١) برقم (١٣٩٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/٥٠) برقم (١٩) .

وأما هذه الرواية فليست في الصحيحين ، فقد خرجها الإمام أحمد في مسنده (٥/٢٤٢) (٢٢١٠٢) ، والبزار (٧/١٠٤) برقم (٢٦٦٠) ، والطبراني في الدعاء (٣/١٤٨٨) برقم (٨٤٧٩) .

وكلهم من طريق شهر بن حوشب وهو ضعيف ، ولم يدرك معاذًا ، وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل بلده ضعيفة ، وهذا منها ، فهو بهذه الرواية ضعيف . وقد صح عن معاذ معناه بغير هذا السياق : أن النبي ﷺ قال : " **ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب مؤمن إلاّ غفر الله لها** ". والأحاديث في الصحيحين تؤيد هذا المعنى ، وقد مرت في هذا البحث . مسند الإمام أحمد (٥/٢٢٩) (٢١٩٩٨) .

(٢) شرح صحيح البخاري (٣/٢٣٦) .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

أشرق لها لونُه ، ونُفّس كربه ، ورأى ما يسرُّه » . فقلت : ما منعني أن أسأله عنها إلاّ القدرة عليها . قال عمر بن الخطاب : أنا أعلمها . قال : وما هي ؟ قال : تعلم كلمةً أفضل من كلمة أراد عليها عمّه : لا إله إلاّ الله ؟ فقال طلحة : هي هي[1] ، وحديث معاذ : « **من كان آخر كلامه : لا إله إلاّ الله ؛ دخل الجنّة** »[2] .

١٠٢ـــ وقال القاضي عياض :

« وأنّ كلّ من مات على الإيمان وشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنّة »[3] .

فنصّ على أنّه لا بدّ من الموت على الإيمان والإخلاص .

---

(١) خرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦١/١) ، وأبو يعلى (٢٢/٢) (٦٥٥) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٩) . وإسناده صحيح كما ذكر الأرنؤوط في حاشية المسند .

(٢) سبق تخريجه ص٤٢ .

(٣) إكمال المعلم (٢٥٥/١) .

المبحث الرابع

التوحيد أوّل دعوة الرسل

أثار المتكلمون مسألة أوّل واجب على المكلف ، وسلكوا في إثبات معرفة الله ﷻ[1] شططاً ، بعد اتفاق معظمهم على أنّ الأمر بعبادته سبحانه ليس أول واجب ، وحكي عن الأشعري[2] القول بأن أوّل واجب على المكلف المعرفة ، ومعناها عندهم : معرفة وجود الله وتفرّده بخلق العالم[3] .

وقال الباقلاني[4] : « أول ما فرض الله ﷻ على جميع العباد : النظر في آياته ... والثاني من فرائض الله ﷻ على جميع العباد : الإيمان به والإقرار بكتبه ورسله ... »[5] .

وقال الجويني[6] : « أول ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سنّ البلوغ أو

---

(١) قول أهل السنة والجماعة : إن معرفة الخالق والإقرار بربوبيته أمر فطري ، فطر الله عليه خلقه ، فإذا كانت المعرفة مركوزة في الفطر ، فكيف يكون أول واجب على المكلّف ؟

(٢) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، وكنيته أبو الحسن ، وينسب إليه مذهب الأشاعرة . قال الذهبي : ولأبي الحسن ذكاء مفرط ، وتبحّر في العلم ، وله أشياء حسنة ، وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم ، له من التصانيف : الفصول في الرد على الملحدين ، وكتاب الموجز ، وكتاب خلق الأعمال ، وكتاب الصفات ، وكتاب اللمع في الرد على أهل البدع ، وغيرها .

انظر : تاريخ بغداد (٣٤٦/١١) ، السير (٨٥/١٥) .

(٣) انظر شرح جوهرة التوحيد (٣٧) .

(٤) سبقت ترجمته ص٣٧ .

(٥) الإنصاف (٢٢) .

(٦) هو محمّد بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمّد بن حيويه الجويني ، الفقيه الشافعي الملقب ضياء الدين ، كان قليل الرواية للحديث معرضًا عنه مع كثرة قراءته ، كما قال عن نفسه : =

الحلم شرعاً : القصد إلى النظر الصحيح ... »[1] .

وقالت طائفة من المتكلمين[2] : أوّل واجب الشكّ .

وبعضهم حدّد مطالب يتوصّل بها إلى إثبات وجود الله تعالى ، ولا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم ، وبها النجاة .

قال شارح الجوهرة : « وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم » . ثم قال : « وقال السنوسي[3] : وبها ينجو المكلف من أبواب جهنّم السبعة »[4] .

فانظر كيف جعل السنوسي عاقبة ترك هذه المطالب على المكلّف ، سواء كان من العوام أو من العلماء الراسخين في العلم ، وانظر اعتراف الباجوري بأنه لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم ! فيكونون على هذا هم الناجين فقط دون من سواهم ! ويكون العوام - وهم أكثر المسلمين - ليسوا بناجين من النار ، بل حتى العلماء الذين ليسوا براسخين في العلم ! وفي هذا تحجير لواسع ، وتضييق لرحمة الله ،

= " قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم " . وله من الكتب : البرهان - في أصول الفقه - ، وتلخيص التقريب ، والإرشاد ، وغيرها . مات سنة ٤٧٨هـ .

انظر : وفيات الأعيان (١٦٧/٣) ، السير (٤٦٨/١٨) .

(١) الإرشاد للجويني (٢٥) . تحقيق أسعد تميم - بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط. الأولى ١٤٠٥هـ .

(٢) وهو قول أبي هاشم الجبائي المعتزلي ، وقد أخذ به الغزالي ، ونسبه ابن حزم إلى الأشعرية . انظر الجبائيات (٣٣٣) ، الفصل (٧٤/٤) ط. المحققة ، منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة (٩٣٥/٣) .

(٣) هو أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن عمر التلمساني الحسني ، متكلم أشعري ، وله مشاركة في الحديث . من كتبه : أم البراهين . مات سنة ٨٩٥هـ .

(٤) شرح جوهرة التوحيد (٤٢) .

وابتداع لقول لم يسبقوا إليه[1] .

وذكر الباجي عن شيخه القاضي أبي جعفر السمناني[2] أنه كان يقول : « القول بأن النظر أوّل الواجبات مسألة من مسائل الاعتزال ، بقيت في المذهب[3] عند من التزمها »[4] .

وهذه لفتة مهمة لبيان المشرب الذي استقى منه هؤلاء مذهبهم .

والذي عليه سلف الأمة : أنّ أوّل واجب على المكلف الشهادتان : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وشهادة أنّ محمداً رسول الله ، وإفراد الله بالعبودية ، وهو ما دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة .

فجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[5] ، وقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[6] .

ومن السنة حديث معاذ المشهور ، لما بعثه إلى اليمن : « **إنك تأتي قوماً أهل**

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الخالق (٣١٦/١) لعبداللطيف محمّد نور .

(٢) هو أبو جعفر محمّد بن أحمد بن محمّد بن محمود القاضي السمناني ، فقيه متكلم أشعري ، وهو من أصحاب أبي بكر الباقلاني الملازمين له . مات سنة ٤٤٤هـ .

انظر : الأنساب للسمعاني (١٤٩/٧) ، والسير (٦٥١/١٧) .

(٣) يريد مذهب الأشاعرة .

(٤) نقله عنه ابن رشد في البيان والتحصيل (٥٨/١-٥٩) . قال ابن حجر : " وقد وافق أبو جعفر السمناني – وهو من رؤوس الأشاعرة – على هذا ، وقال : إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة " . انظر الفتح (٣٤٩/١٣) .

(٥) سورة النحل ٣٦ .

(٦) سورة الأنبياء : ٢٥ .

كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله » .

ويلاحظ التصريح بلفظ أول في الحديث : « **فليكن أوّل ما تدعوهم إليه** » ، فهو نص في الموضوع .

وكذلك إجماع أئمة الدين وعلماء المسلمين أن كل كافر يدعى إلى الشهادتين ، بذلك يصير مسلماً .

قال ابن المنذر : « أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ كل ما جاء به محمّد حقّ ، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم ، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدًّا ، ويجب عليه ما يجب على المرتدّ »[1] .

وبعد ؛ فإن أئمة المالكية تكلموا عن أوّل واجب على المكلف ، وهو الشهادتان ، وردّوا على المخالف في ذلك .

١ـــ قال ابن العربي :

« قال مالك - في الكافر يوجد عند الدرب ، فيقول : جئت مستأمناً أطلب الأمان - : هذه أمور مشكلة ، وأرى أن يرد إلى مأمنه ، ولا يحكم له بحكم الإسلام ؛ لأن الكفر قد ثبت له ، فلا بدّ أن يظهر منه ما يدلّ على أنّ الاعتقاد الفاسد الذي كان يدل عليه قوله الفاسد قد تبدّل باعتقاد صحيح يدل عليه قوله ، ولا يكفي فيه أن يقول : أنا مسلم ، ولا : أنا مؤمن ، ولا : أنا أصلي ،

---

(١) الإجماع (١٥٤) . دار طيبة . وأورد القرطبي هذا الإجماع عن ابن المنذر كما سيأتي .

حتى يتكلّم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها عليه في قوله : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله))[1] .

فمالك رحمه الله لم يحكم للكافر بالإسلام حتى يبدل اعتقاده الفاسد باعتقاد صحيح ، يدل عليه قوله : ولم يكتف بأن يقول : أنا مسلم ، أو : مؤمن ، ولا : أنا أصلي ، حتى ينطق بكلمة التوحيد العاصمة : لا إله إلاّ الله .

فتعليقه الحكم بإسلامه على قولها مما يدلّ على أنها أوّل واجب .

٢ـــ وذكر محمّد بن رشد – وقد تقدّم – أنّ مذهب القاسم وروايته هذه عن مالك أن الصغير من سبي أهل الكتاب لا يجبر على الإسلام ، ولا يحكم له بحكمه ، حتى يجيب إليه[2] .

٣ـــ وبيّن معنى الإجابة في رواية سحنون عن ابن القاسم عن مالك . قال في المدونة :

((قلت : كيف الإسلام الذي إذا أجابت إليه الجارية[3] حلّ وطؤها والصلاة عليها ؟ قال : قال مالك : إذا شهدت أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أو صلّت فقد أجابت))[4] .

فحكم بالإسلام لمن أجاب ، ومعنى الإجابة : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، مما يدلّ على أنها أوّل واجب عنده ، وكذلك عند تلميذه ابن القاسم .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) . ط. دار المعرفة – بيروت ، لبنان .

(٢) البيان والتحصيل (٢/٢١٣-٢١٤) .

(٣) وكلامه هنا عن الجارية المشركة ، لقوله تعالى : ﴿ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ ﴾ ، بخلاف الكتابية .

(٤) المدونة (١٧٩/١) .

٤ــ فقد سئل عن امرأة نصرانية ، قال لها ختنها : أسلمي يا فلانة ، حتى نغسّلك ونصلّي عليك . فقالت : نعم . وأمرت بغسل ثيابها ، وقالت : كيف أقول ؟ قال : قلت لها : قولي : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ، وأنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته . فقالت كل هذا ، ثم ماتت ، فدفنت في قبور النصارى ؟

فقال ابن القاسم : ((اذهب فانبشها ، ثم اغسلوها وصلّوا عليها ، إلاّ أن تكون قد تغيّرت))[١] .

فحكم ابن القاسم بإسلامها بمجرّد نطقها بالشهادتين ، مما يدلّ على أنّ ابن القاسم رحمه الله يرى أنها أوّل واجب .

٥ــ وصرّح ابن رشد أنه مذهب سحنون[٢] .

٦ــ وذكر القاضي ابن نصر معنى يتبيّن منه أنّ أول واجب هو قول : لا إله إلاّ الله ، قال :

((ومن مات من السبي قبل التلفّظ بالشهادتين فلا يُغسل ، ولا يصلى عليه ؛ لأنه مات على أصل الكفر ، لأنه لم يثبت له الإسلام ، لا من جهة الاعتقاد ولا الحكم ؛ لأنه لم يكن سوى سبيه ، والسبي لا يزول عنه حكم الكفر ، وإن قالها ابتداءً غسّل وكفّن وصلّي عليه ، وكذلك إن قالها عن تلقين إذا كان طوعاً من غير إكراه ؛ لأن الظاهر إجابته إلى الإسلام ، وتديّنه به))[٣] .

فلو كان ثمة واجب قبل التلفّظ بالشهادتين لما علّق الحكم بإسلامه عليهما ، مما يظهر أنّ الشهادتين أوّل واجب عنده رحمه الله .

---

(١) البيان والتحصيل (٢/٢٥٦) .

(٢) البيان والتحصيل (٢/٢١٣) .

(٣) المعونة على مذهب عالم المدينة (١/٢٠١) .

٧ــ وأكّد هذا المعنى ابن بطال رحمه الله ، فعند حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس ...** » قال :

« ... وحديث هذا الباب إنما قاله ﷺ في حال قتاله لأهل الأوثان ، الذين كانوا لا يقرّون بتوحيد الله ، وكانوا إذا قيل لهم : لا إله إلاّ الله ، يستكبرون ، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية ، وخلع ما دونه من الأوثان ، فمن أقرّ بذلك منهم كان في الظاهر داخلاً في صبغة الإسلام »(١) .

فتبيّن من قوله : « فدعاهم النبي ﷺ إلى الإقرار بالوحدانية ... » أنّ أوّل واجب هو الدعوة إلى التوحيد ، إذ به يكون المقرّ به داخلاً في صبغة الإسلام .

٨ــ وقال – عند شرح حديث وفد عبد قيس ، مبيّناً أهمية الصلاة – :

« قرن الله تعالى التقى ونفي الإشراك به تعالى بإقامة الصلاة ، فهي أعظم دعائم الإسلام بعد التوحيد »(٢) .

فنص على أنّ التوحيد هو أعظم الدعائم ، مما يبيّن أنه أول واجب .

٩ــ وذكر ابن عبدالبرّ أنّ تحقق الإسلام لا يكون إلاّ بالشهادة مما يظهر أنها أول الواجبات ، قال :

« فكما لا يكون مسلماً حتى يشهد بشهادة الحقّ ، فكذلك لا يكون متطهّراً ولا مصلّياً حتى ينطق بالشهادة »(٣) .

١٠ــ وقد تكلم الباجي في مسألة أول الواجبات كلاماً نفيساً ، صدّره بنقله عن شيخه أبي جعفر السمناني بأنّ « النظر أول الواجبات : مسألة من مسائل الاعتزال

---

(١) شرح صحيح البخاري (٥٣/٢) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٥٢/٢) .

(٣) الكافي في فقه أهل المدينة (١٥٣/١) .

بقيت في المذهب ... » ، ثم قال :

« فمن جعله أوّل الواجبات أوجبه بالعقل ، إذ لا يصح أن يعلم أحد أنّ الله أوجب عليه النظر وهو لا يعلم الله إلاّ بعد النظر ... ومن أصول أهل السنة أنّ العقل لا حظر فيه ولا إباحة ... » .

واستدلّ الباجي رحمه الله على من قال : إن النظر والاستدلال أول الواجبات ، بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّدين : مؤمنين . قال :

« فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صحّ أن يسمى مؤمناً إلاّ من عنده علم بالنظر والاستدلال ، وأيضاً لو كان الإيمان لا يصح إلاّ بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحلّ لكم قتلنا ؛ لأنّ من دينكم أنّ الإيمان لا يصحّ إلاّ بعد النظر والاستدلال ، فأخّرونا حتى ننظر ونستدلّ !

وهذا يؤدّي إلى تركهم على كفرهم ، وأن لا يقاتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا !! » . قال : « ولا خلاف في بطلان هذا »[1] .

١١ــ وذكر الطرطوشي ما يدلّ على أنّ « لا إله إلاّ الله » هي أوّل واجب ، وآخر واجب . فقال – عند حديث : « **لقّنوا موتاكم : لا إله إلاّ الله** » – :

« فمفتاح الدخول في الإسلام : لا إله إلاّ الله ، وخاتم الخروج من الدنيا والقدوم على الله : لا إله إلاّ الله »[2] .

١٢ــ وأكّد هذا المعنى بقوله :

« اعلموا – أرشدكم الله تعالى – أنّ لا إله إلاّ الله هي العروة الوثقى ، ومركب النجاة ، وسفينة نوح ؛ من عدل عنها هلك ، ومن ركبها خلص ونجا ، وهي قطب

---

(١) البيان والتحصيل (١/٥٨-٥٩) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٧) .

الإسلام ، وقاعدة الأديان ، وما خلق الجنّ والإنس إلاّ ليعبدوه بها))[1] .

فنص على أن لا إله إلاّ الله قاعدة الأديان ، وقاعدة الشيء أساسه وأوّله الذي ينبني عليه غيره ، مما يبيّن أنها أول واجب .

١٣ــ وبين هذا المعنى الزرقاني ، فقال :

((لا إله إلاّ الله : هي الكلمة العليا ، والقطب الذي تدور عليه رحى الإسلام ، والقاعدة التي بني عليها أركانه ، والشعبة التي هي أعلى شعب الإيمان))[2] .

١٤ــ وبمثل ذلك المعنى قال ابن جزي – عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[3] – :

((المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عبد من دونه ، لقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلاّ الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام ، الذي قاعدته التوحيد))[4] .

فنص على أنّ قاعدة دين الإسلام التوحيد ، مما يبين أنه أول واجب .

١٥ــ وذكر هذا المعنى الهبطي فقال :

((الحمد لله الذي جعل التوحيد أول قواعد الإسلام ، وعبر عن ذلك بأن لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ﷺ ، لجميع الأنام ...)) .

ونظمه بقوله :

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه (١٨٥) .

(٢) شرح الزرقاني (٢/٢٩) .

(٣) سورة البقرة : ٢١ .

(٤) التسهيل (١/٧٠) .

توحيده أوّل فرض يا فتى　　　فانهض إلى تحصيله إلى متى

كيف يصح يا بنيّ في الوجود　　　عبادة من جاهل بالمعبود[(١)]

١٦ــ وبمثل قولهم ذكر ابن عاشر في نظمه - تحت عنوان : كتاب أمّ القواعد ، وما انطوت عليه من القواعد - أنّ جميع القواعد مندرجة في كلمة التوحيد ، فقال :

« قواعد الإســـلام خمس واجبات　　　وهي الشهادتان فرض الباقيات »[(٢)]

فنصّ على أنّ الشهادتين هي أمّ القواعد ، وغيرها ينبني عليها .

١٧ــ وقال ابن العربي - عند حديث : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بالذي جئت به ...** »[(٣)] - :

« فالواجب هو الإيمان ، وكل ما قال الرسول على الجملة منه أصول وفروع ، وأوائل وأواخر ، فأصوله وأوائله ما بني الإسلام عليه ، على ما في حديث ابن عمر : « **بني الإسلام على خمس ...** » ، وإن كانت كلها دعائم فإن عمدتها الشهادة ، بها يحكم للمرء بالإيمان ، وبها نتخذ أصلاً يبنى عليه غيره ، وإن توقف عنها مع القدرة عليها كان كافراً »[(٤)] .

فنصّ على أنّ الواجب هو الإيمان بكل ما جاء به النبي ﷺ ، وأنّ منه أوائل وأصول ، وهي ما بني عليه الإسلام ، ودعائم لا تقوم إلاّ على الشهادة ، إذ هي الأصل الأصيل الذي يحكم بإسلام من نطق بها .

١٨ــ وذكر أيضاً : « أنّ الكافر لو صلى أو فعل فعلاً من خصائص الإسلام ،

---

(١) النوازل (٣/٢٩٦-٢٩٩) .

(٢) الدر الثمين والمورد المعين شرح المرشد المعين لابن عاشر (٢١) . ط. دار الفكر .

(٣) سبق تخريجه ص٢٩ .

(٤) عارضة الأحوذي (١٠/٧٩) .

فإنه لا يكون مسلماً بذلك ، إما أنه يقال له : ما وراء هذه الصلاة ؟ فإن قال : صلاة مسلم . قيل له : قل : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ، فإن قالها تبيّن صدقه ، وإن أبى علمنا أنّ ذلك تلاعب »[1] .

١٩ــ وقال أيضاً – في الذي قال : سلام عليكم – :

« يكلف الكلمة ؛ فإن قالها تحقق رشاده ، وإن أبى تبيّن عناده وقتل »[2] .

فلم يحكم بالإسلام لمن أتى فعلاً من خصائص الإسلام حتى يقول : لا إله إلاّ الله .

وكذا من ألقى السلام ؛ يكلّف الكلمة ، وبها يتحقق إسلامه ، مما يبيّن أنها أوّل الواجبات عنده رحمه الله .

وأما القرطبي ؛ فقد ذكر عند قوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ... ﴾[3] الخلاف في أوّل الواجبات : هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة[4] ؟ ثم بعد ذلك أورد مقالة الباجي السالفة[5] في ردّه على المتكلمين ، ثم قال :

٢٠ــ « هذا هو الصحيح في الباب ، قال رسول الله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله** » ، وترجم ابن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٤٨٢/١) .

(٢) أحكام القرآن (٤٨٢/١) .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٥ .

(٤) لعلّ مراده هنا بالمعرفة التي يقصدها المتكلّمون .

(٥) انظر ص١٢٤ .

المنذر[1] في كتاب الإشراف : (ذكر صفة كمال الإيمان) : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ كل ما جاء به محمّد حقّ ، وأبرأ من كلّ دين يخالف دين الإسلام – وهو بالغ صحيح العقل – أنه مسلم ، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدًّا ، يجب عليه ما يجب على المرتدّ .

وقال أبو حفص الزنجاني : وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمّد السمناني يقول : أوّل الواجبات الإيمان بالله ورسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى ، فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله .

قال : وهذا أقرب إلى الصواب ، وأرفق بالخلق ؛ لأنّ أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إنّ أول الواجبات المعرفة بالله ؛ لأدّى إلى تكفير الجمّ الغفير والعدد الكثير ، وألا يدخل الجنة إلاّ آحاد الناس ، وذلك بعيد ؛ لأنّ الرسول ﷺ قطع بأنّ أكثر أهل الجنة أمته ، وأنّ أمم الأنبياء كلّهم صفّ واحد[2] ، وأمته ثمانون صفًّا ، وهذا بيّن لا إشكال فيه ، والحمد لله))[3] .

٢١ـــ ثم بعد ذلك ذكر ما ذهب إليه بعض المتكلّمين إلى أنّ من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها ، والأبحاث التي حرروها ؛ لم يصحّ إيمانه وهو كافر ،

---

(١) أوردت مقالة ابن المنذر في أول الفصل ، وهي هنا من نقل القرطبي لها .

(٢) وهذا وهم ، والصواب : مائة وعشرون صفًّا كما جاء في حديث ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : " **أهل الجنة عشرون ومئة صف ، منهم ثمانون من هذه الأمة** " . وقال عفان مرةً : " **أنتم منهم ثمانون صفًّا** " . خرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٧/٥) (٢٢٩٤٠) ، وابن أبي شيبة (٤٧٠/١١-٤٧١) ، والترمذي (٢٥٤٦) ، وقال : هذا حديث حسن . وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وأخرجه أيضًا ابن حبان (٧٤٥٩) وإسناده صحيح .

(٣) تفسير القرطبي (٣٣٢/٧) .

فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين ، وأوّل من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه ! وقد أورد على بعضهم هذا ، فقال : لا تشنّع عليّ بكثرة أهل النار !

٢٢ــ قال القرطبي :

« وهذا القول لا يصدر إلاّ من جاهل بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ ؛ لأنه ضيّق رحمة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلّمين ، واقتحموا في تكفير عامّة المسلمين ، أين هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول – وانتهره أصحاب النبيّ ﷺ – : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً . فقال النبي ﷺ : « **لقد حجّرت واسعاً** »[1] . خرجه البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة . أترى هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ؟ وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء ، وكم من مثله محكوم بالإيمان ، بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين .

وحتى إنه اكتفى بالإشارة في ذلك ، ألا تراه قال للسوداء : « **أين الله ؟** » ، قالت : في السماء . قال : « **من أنا ؟** » . قالت : أنت رسول الله . قال : « **أعتقها فإنها مؤمنة** »[2] ؟

ولم يكن هناك نظر ولا استدلال ، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة ، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم »[3] .

ولقد أطال القرطبي الكلام حول هذه المسألة ، وبيّن أقوال أئمة السلف في ذلك ، وردّ على المخالفين من المتكلمين ، وبيّن فساد ما ذهبوا إليه ، وخطورة ما يترتب عليه .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٤٣٨/١٠) برقم (٦٠١٠) .

(٢) سبق تخريجه ص٣١ .

(٣) تفسير القرطبي (٣٣٢/٧-٣٣٣) .

٢٣ــ فقال – عند حديث بعث معاذ إلى اليمن : « **فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ...** »(١) ، وعن استدلالهم ببعض ما جاء في رواياته : « **فإذا عرفوا الله فأخبرهم** » على أنّ أول واجب المعرفة – قال القرطبي :

« فإذا عرفوا الله فأخبرهم ؛ أي : إن أطاعوا بالنطق بذلك ، أي : بكلمتي التوحيد ، كما قال في الرواية الأخرى : « **فإن هم أطاعوا بذلك فأعلمهم ..** » ، فسمى الطواعية بذلك والنطق به : معرفة ؛ لأنه لا يكون غالباً إلاّ عن المعرفة ، وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذا هو الدعوة ، على ما يأتي في الجهاد .

وعلى هذا فلا يكون في حديث معاذ حجة لمن تمسّك به من المتكلمين على أنّ أول واجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان ، بل هو حجة لمن يقول : إن أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدّقاً بها ... » .

ثم بيّن اختلاف المتكلمين ، فقال :

« وقد اختلف المتكلمون في أول الواجبات على أقوال كثيرة ؛ منها ما يشنع ذكره ، ومنها ما ظهر ضعفه .

والذي عليه أئمة الفتوى وبهم يقتدى – كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة السلف – : أنّ أول الواجبات على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي ، الذي لا ريب معه بالله تعالى ورسله وكتبه ، وما جاءت به الرسل ، على ما تقرر في حديث جبريل ، كيفما حصل ذلك الإيمان ، وبأي طريقة إليه توصل ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٣٥٩/١٣ ح٧٣٧٢) ، ومسلم في كتاب الإيمان : باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٣١٠/١ ح١٩) .

قال أبو العباس : «المراد بالعبادة هنا هو النطق بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ، كما جاء في الرواية الأخرى مفسّرًا : " **فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله** "». المفهم (١٨١/١).

وأما النطق باللسان فمظهر لما استقرّ في القلب من الإيمان ، وسبب ظاهر تترتب عليه أحكام الإسلام »[1] .

٢٤ـــ وفي موضع آخر قال - عند ذكره أركان الإيمان - :

« مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف : أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً جزماً لا ريب فيه ، ولا تردد ولا توقف ؛ كان مؤمناً حقيقة ، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة ، أو عن اعتقادات جازمة . على هذا انقرضت الأعصار الكريمة ، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة ، حتى حدثت مذاهب المعتزلة والمبتدعة ، فقالوا : إنه لا يصح الإيمان الشرعي إلاّ بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية ، وحصول العلم بنتائجها ومطالبها ، ومن لم يحصل إيمانه كذلك فليس بمؤمن ، ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك ! وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا ؛ كالقاضي أبي بكر ، وأبي إسحاق الإسفراييني ، وأبي المعالي في أول قوليه ، والأول هو الصحيح ، إذ المطلوب من المكلفين ما يقال عليه : إيمان ، كقوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾[2] ، ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾[3] ، والإيمان هو التصديق لغة وشرعاً[4] ، فمن صدّق بذلك كله و لم يجوز نقيض شيء من ذلك فقد عمل بمقتضى ما أمره الله به ، على نحو ما أمره الله تعالى ، ومن كان كذلك فقد تقصى عن عهدة الخطاب ، إذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب ، ولأن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده حكموا بصحة إيمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه ، و لم يفرّقوا بين من آمن عن برهان أو عن غيره ، ولأنهم لم يأمروا أجلاف العرب بترديد النظر ، ولا سألوهم عن أدلة تصديقهم ، ولا أرجؤوا إيمانهم حتى ينظروا ، وتحاشوا عن إطلاق الكفر على

---

(١) المفهم (١٨٢/١) .

(٢) سورة الحديد : ٧ .

(٣) سورة الفتح : ١٣ .

(٤) الصواب أنّ الإيمان في اللغة التصديق والإقرار ، وأما في الشرع فهو قول واعتقاد وعمل .

أحد منهم ، بل سموهم المؤمنين ، والمسلمين ، وأجروا عليهم أحكام الإيمان ، ولأن البراهين التي حررها المتكلمون ورتبها الجدليون إنما أحدثها المتأخّرون ، ولم يخض في شيء من تلك الأساليب السلف الماضون ، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفاً ، ولا معمولاً به لأهل ذلك الزمان ، وهم من هم فهماً عن الله ، وأخذاً عن رسول الله ﷺ ، وتبليغاً لشريعته ، وبياناً لسنته وطريقته »[1] .

٢٥ــ وفي سياق كلام له حول ذم الكلام بيّن فساد طريقتهم ، وخطورة مسلكهم ، فقال :

« ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلاّ مسألتان هما من مبادئه ؛ لكان حقيقاً بالذمّ ، وجديراً بالترك :

إحداهما : قول طائفة منهم : إن أول الواجبات الشكّ في الله تعالى .

والثانية : قول جماعة منهم : إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها ، والأبحاث التي حرروها ، فلا يصح إيمانه وهو كافر .

فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين ، وأئمة المسلمين ، وأنّ من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه وجيرانه ، وقد أورد على بعضهم هذا ، فقال : لا يُشنّع عليّ بكثرة أهل النار ! وكما قال : ثم إنّ من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا على من قال بهما بطرق النظر والاستدلال ، بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان ، وهذا خطأ فاحش ، فالكلّ يخطِّئون الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين ، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري ، ومن شكّ في تكفير من قال : إن الشك في الله تعالى واجب ، وأنّ معظم الصحابة والمسلمين كفار ، فهو كافر شرعاً ، أو مختل العقل وضعاً ، إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية ، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار

(١) المفهم (١/١٤٥-١٤٦) .

إليه في الشرعيات ، ولا العقليات))[1] .

٢٦ــ وأما ابن أبي جمرة ؛ فقال – عند شرحه حديث وفد عبد قيس : ((**شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله**))[2] – :

((فيه دليل على أنّ أول الواجبات الإيمان قبل النظر والاستدلال))[3] .

٢٧ــ ونقل محمّد المختار قول ابن أبي جمرة السالف على سبيل الإقرار[4] .

٢٨ــ وقال الميلي – في بيان أول واجب تحت عنوان : أوّل ما يدعو إليه المرسلون – :

((إنّ القرآن العظيم يقصّ علينا في جلاء ووضوح أنّ أوّل ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون – صلوات الله عليهم أجمعين – هو توحيد الله ، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره ، وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيّين ﷺ ، فعنيت بالدعوة إلى التوحيد والتحرز من الشرك ، والتحذير منه ، وما ذلك إلاّ لشدة الحاجة إلى معرفته ، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة في الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين))[5] .

٢٩ــ وبعد أن ذكر الغلاوي في نظمه في باب العقائد :

أول ما يجب إثبات الوجود ... لله قــل دليله الخلق الموجود

قال : ((أول ما يجب بعد التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين))[6] .

---

(١) المفهم (٦٩٣/٦) .

(٢) سبق تخريجه ص٤٧ .

(٣) بهجة النفوس (٩٨/١) .

(٤) انظر نور الحق الصبيح (١٥١/١) .

(٥) رسالة الشرك ومظاهره (١٨) .

(٦) فرض العين (٢٧) . ط. دار القلم للنشر والتوزيع ، ط. الأولى ١٤١٩هـ – دبي .

فذكر أنّ أول ما يجب التصديق بالقلب ، ولم يذكر نظراً أو استدلالاً .

٣٠ـــ ونقل محمّد المكي الناصري قول ابن كثير[١] مقرًّا له في بيان التوحيد الذي جاءت به الرسل :

« والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال ﷻ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾[٢] »[٣] .

وختاماً يتبين أنّ قول أكثر علماء المالكية في مسألة أول واجب على المكلف هو ما دلت عليه النصوص الشرعية كما سلف بيانه ، وأنّ من خالف في ذلك فقد خالف جمهور المسلمين ، وقد نص القرطبي[٤] رحمه الله على خطأ المتكلمين في مسألة أول واجب على المكلف ، وذكر أنّ القول بأن أول واجب على المكلف الإيمان التصديقي الجزمي : هو قول أئمة الفتوى مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وغيرهم من أئمة السلف . وأن مما يلزم به هؤلاء المتكلمون في قولهم بالنظر أو الشك تكفير عامة المسلمين ، من لدن صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم ، وردّ عليهم بأن قائل ذلك كافر شرعاً أو مختل العقل وضعاً ، وعندما أورد عليهم ذلك قالوا : إن العامة لا يطالبون بالنظر ![٥]

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصروي ، عماد الدين ، أبو الفداء ، حافظ ومؤرّخ وفقيه ، أمعن النظر في العلل والرجال ، له تصانيف مفيدة ، منها : التفسير المشهور قد جمع فيه فأوعى ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وكتاب البداية والنهاية ، وكتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء . مات سنة ٧٧٤هـ . انظر : الدرر الكامنة (٣٩٩/١) ، والبدر الطالع (١٥٣/١) .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٣) التيسير (٤٢٢/٥) .

(٤) انظر ص١٣٥ .

(٥) ومن ألزم العامة بالنظر بأنه أول ما يجب عليهم فقد كفّرهم ، وإن لم يقل به .

ومعلوم أنه يلزم من هذا القول بأن أول الواجبات توحيد الله تعالى ، إذ إن الرسل اكتفوا فيمن دعوهم بالإيمان ، حتى وإن لم يسبق ذلك نظر .

وهذا بحد ذاته يكفي لردّ مقالة المتكلمين القائلين بوجوب النظر ، وبهذا يظهر مدى اهتمام أئمة المالكية ببيان أول ما دعت إليه الرسل ، من توحيد الله ﷻ ، وهو ما دعت إليه النصوص من الكتاب والسنة ، ولله الحمد والمنّة .

الفصل الثاني

توحيد المعرفة

وفيه مبحثان :

- **المبحث الأول** : إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .
- **المبحث الثاني** : الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

تمهيد

لما كانت معرفة الله ﷻ من الأمور التي فطر عليها الخلائق فإن غالبهم استجاب لنداء الفطرة هذا ، وأقرّوا بمعرفة الله ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾(1) .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾(2) .

بل حتى إبليس أقرّ به ، كما قال تعالى عنه : ﴿ قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾(3) .

وفرعون قال لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾(4) ، وذكر الله ﷻ كذبه في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا ﴾(5) ، أي : أنه على يقين بوجود الله ﷻ وإن جحد ذلك ظاهراً .

وفيما يلي أعرض أقوال المالكية في هذا المبحث من جهتين :

١ـ إقرار الكفار بتوحيد المعرفة .

٢ـ الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة .

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة ص : ٧٩ .

(٤) القصص : ٣٨ .

(٥) النمل : ١٤ .

المبحث الأول

إقرار الكفار بتوحيد المعرفة

فطر الله تعالى عباده على الإيمان به ، كما قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[١] .

كما أوضح هذا الأمر النبي ﷺ ، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ؛ أنّ النبيّ ﷺ قال : « **كلّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء**[٢] ؟ » . ثم يقول أبو هريرة : فطرة الله التي فطر الناس عليها[٣] .

وذكر ابن عبدالبر أن القول بأنّ الفطرة هي الإسلام هو قول سلف الأمة أجمع ؛ قال : « ... وقال آخرون : الفطرة هاهنا الإسلام ، قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل ، قد أجمعوا في قوله عز وجل : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ على أن قالوا : فطرة الله : دين الله الإسلام[٤]. واحتجّوا بقول أبي هريرة في هذا الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ »[٥].

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) قال ابن حجر : تنتج : قال أهل اللغة : نُتِجت الناقة على صيغة ما لم يسمّ فاعله . بهيمةً جمعاء : أي لم يذهب من بدنها شيء ، سميت بذلك لاجتماع أعضائها . الجدعاء : هي المقطوعة الأذن . انظر : فتح الباري (٣/٢٤٥) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/٢٤٥) برقم (١٣٨٥) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٤٧) برقم (٢٦٥٨) .

(٤) قال مجاهد : ﴿ فطرة الله ﴾ أي : الإسلام . وقال البخاري : باب لا تبديل لخلق الله ، أي : لدين الله ، والفطرة : الإسلام . انظر تفسير الطبري (١٠/١٨٣) ، وصحيح البخاري مع الفتح (٨/٣٧٢) .

(٥) التمهيد (١٨/٧٢) . ط. المملكة المغربية ١٤٠٧هـ .

وفي حديث عياض بن حمار ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربّه تعالى أنه قال : ((**خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً ...**)) الحديث[1] .

وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية ، وأنّ الشياطين اجتالتهم[2] بعد ذلك .

وقد بيّن أئمة المالكية أنّ الفطرة هي دين الإسلام ، فلما ذكر مالك حديث أولاد المشركين واحتجاج القدرية به على أنّ الكفر والمعاصي ليستا بقدر الله ، بل مما فعله الناس ، لأن كل مولود يولد على الفطرة ، وكفره بعد ذلك من الناس ، قال مالك : ((احتجّوا عليهم بآخره ، وهو قوله : (**الله أعلم بما كانوا عاملين**)[3]))[4] .

فردُّ مالك على القدرية بآخر الحديث يبين أنّ الفطرة عنده هي الإسلام ، لأن القدرية قالوا : إنّ كل مولود يولد على الفطرة سليماً ، وأما كفره فقد حصل من الناس ، فبين أنّ آخر الحديث يبين أنّ كل شيء بقدر الله ﷻ ، فإذا كان قد ولد

---

(١) خرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة ونعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥) .

وخرج أبو داود بسنده عن ابن وهب قال : سمعت مالكاً قيل له : إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا الحديث . قال مالك : ((احتجّ عليهم بآخره)) : قالوا : أرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : ((**الله أعلم بما كانوا عاملين**)) . سنن أبي داود (برقم ٤٧١٥ ص٦٦٦، ط. دار السلام) : باب ذراري المشركين .

(٢) قال القاضي عياض : " اجتالتهم " أي : استخفّوهم فذهبوا بهم وجالوا معهم وساقوهم إلى ما أرادوه بهم . انظر إكمال المعلم (٨/٣٩٥) .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٣/٢٤٥) برقم (١٣٨٣) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى : كل مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٤٩) برقم (٢٦٥٩) .

(٤) فبيّن مالك أن لا حجة فيه للقدرية ، فإنهم لا يقولون : إن نفس الأبوين خلقا تهوّده وتنصره ، بل هو تهوّد وتنصّر باختياره ، لكنهما كانا سبباً في ذلك بالتعليم والتلقين ، فإذا أضيف إليهما بهذا الاعتبار ، فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى ، فالله وإن خلقه على الفطرة سليماً ، فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك)) .

على الفطرة التي هي الإسلام ، فكذا تغيره - أي كفره - بعد ذلك بقدر الله ، وإن كان ثمة أسباباً لهذا التغيّر من الأبوين وغيرهما .

فهو مع رده على القدرية ، إلاّ أنه جعل مقابل الكفر الذي طرأ الإسلام الذي هو الأصل ، وهو الفطرة[1] .

٢ــ وأيضاً ترجم في موطّئه : « باب ما جاء في السنة في الفطرة »[2] لحديث أبي هريرة ﷺ قال : « خمس من الفطرة : تقليم الأظفار ، وقصّ الشارب ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، والاختتان » .

قال أبو الوليد الباجي - مبيّناً مراد الإمام مالك في هذا - :

« قوله : خمس من الفطرة : يريد والله أعلم من سنة الدين الذي يوصف بأنه الفطرة ، قال الله ﷻ : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ .

يريد والله أعلم : الدين الذي ولدوا عليه ، وخلقوا عليه ، ومنه ما روي عن النبي ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه** »[3] .

---

(١) ومما يقوي معنى الفطرة عند مالك ، وأنها الإسلام ما ذكره ابن حجر نقلاً عن شمس الدين ابن القيم في بيان سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث : أنّ القدرية كانوا يحتجّون على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله ، بل مما ابتدأ الناس إحداثه ، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام ، ولا حاجة لذلك ؛ لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلاّ الإسلام ، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية ؛ لأن قوله : « **فأبواه يهوّدانه ...** » الخ : محمول على أنّ ذلك يقع بتقدير الله تعالى ، ومن ثم احتجّ عليهم مالك بقوله في آخر الحديث : « **الله أعلم بما كانوا عاملين** » . فتح الباري (٣/٢٥٠) ط. السلفية ، وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/٥٣٠) .

(٢) الموطأ (٢/٧٠٢) .

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٧/٢٣٢) .

٣ـــ وعند شرحه لحديث : « **كل مولود يولد على الفطرة ...** » قال :

« ومعنى الحديث في الشرع : الحالة التي خلقوا عليها من الإيمان والمعرفة به والإقرار بالربوبية . فأبواه هما اللذان يصرفانه عن الفطرة ، وما خلق عليه من الإيمان إلى دين اليهودية أو النصرانية »[١] .

٤ـــ وقال الباقلاني :

« يجب أن يعلم أنّ العالم محدث ، وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى ، والدليل على حدوثه تغيّره من حال إلى حال ، ومن صفة إلى صفة ، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدَثاً ، وقد بيّن نبيّنا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمّن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة ، لما قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن بدء هذا الأمر ؟ فقال : « **نعم ؛ كان الله ولم يكن شيء قبله ، ثم خلق السماوات والأرض** »[٢] ، فأثبت أنّ كل موجود سواه محدث مخلوق ، وكذلك الخليل عليه السلام إنما استدلّ على حدوث الموجودات بتغيّرها[٣] وانتقالها من حالة إلى حالة ؛ لأنه لما رأى الكوكب ﴿ قال هذا ربّي ... ﴾ الخ الآيات .

فعلم أنّ هذه لما تغيّرت وانتقلت من حال إلى حال دلّت على أنّها محدثة مفطورة مخلوقة ، وأنّ لها خالقاً ، فقال عند ذلك : ﴿ وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ... ﴾ »[٤] .

٥ـــ ونقل ابن عبدالبر عن سحنون في مسألة الطفل يحكم بكفره بأبويه ، فإذا لم يكن بين أبوين كافرين فهو مسلم ، ووجه ذلك أنّ الله تعالى قد أخذ عليهم العهد

---

(١) المنتقى (٣٣/٢) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء (٤٠٣/١٣) برقم (٧٤١٨) .

(٣) الذي جاء عن السلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ فلما أفلت .. ﴾ - كما ذكر الطبري - : « أفل : معناه غاب وذهب » . تفسير الطبري (٢٤٦/٥) . ومراده هنا بالتغير الاستدلال على نفي الصفات الفعلية لله تعالى كما هو مذهب الأشاعرة ، فليتنبه !

(٤) الإنصاف (٣٠) .

بقوله : ﴿ ألست بربّكم قالوا بلى ﴾[1] .

فمراد سحنون ظاهر في أنه يحكم بالميثاق الذي أخذه الله على العباد ، وأقرّوا به قبل خروجهم إلى الدنيا ، فحكم بإسلام الطفل ، مما يبيّن أنّ الإسلام هو الذي فطر عليه جميع الخلائق .

٦ـــ وقال ابن عبدالبر :

« من أحسن ما روي في تأويل قوله ﷻ : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ... ﴾ الآية[2] : حديث ابن مسعود ﵁ عن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قول الله ﷻ : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾ قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبطه من السماء مسح صفحة ظهره اليمنى ، فأخرج منها ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر، فقال : ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك قوله : أصحاب اليمين والشمال .

ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ؛ فأعطاه طائفة طائعين ، وطائفة كارهين على وجه التقية . فقال هو والملائكة : شهدنا ؛ أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل . قالوا : فليس أحد من ولد آدم إلاّ وهو يعرف الله أنّه ربّه ، وذلك قوله ﷻ : ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[3] ، وذلك قوله : ﴿ فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾[4] يعني : يوم أخذ الميثاق »[5] .

---

(١) فتح الباري (٣/٢٤٩) .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٤) سورة الأنعام : ١٤٩ .

(٥) التمهيد لابن عبدالبر (١٨/٨٥-٨٦) .

٧ــ وذكر السهيلي[1] عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ... ﴾ قوله :

« وذلك أنّ العهد الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها من توحيد الله ، فكل مولود يولد على تلك الفطرة ، وعلى ذلك الميثاق ، فلولا أنّ أبويه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه حتى يسودّ قلبه بالشرك لما حال عن العهد »[2] .

فنصّ على أنّ الفطرة التي يفطر الخلق عليها هي التوحيد .

٨ــ وقال القاضي عياض - عند شرحه حديث : « **كل مولود يولد على الفطرة ...** » - :

« أي تولد متممة الخلق ، سالمة من النقص والتغيير ، ولم يلحقها جدع ، وهو قطع الأذن وغير ذلك ، إلاّ بعد ولادتها ... والفطرة : هي ما فطر عليه العبد في أصل خلقته وابتدائها ، قبل معرفته بشيء من قبل بني آدم ، من التهيّؤ لقبول الهداية ، والسلامة من ضدّ ذلك[3] ، حتى يدخل عليه من أبويه وقريبه ومربّيه وقرينه ما يغيّره عن ذلك ... »[4] .

٩ــ ورجّح أبو العباس القرطبي ما نقل عن السلف في تفسير الآية : ﴿ فطرة الله

---

(١) هو عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ بن حسين بن سعدون السهيلي ، أبو القاسم وأبو زيد ، صاحب كتاب الروض الأنف ، في شرح سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ، أجاد فيه وأفاد ، وذكر أنه استخرجه من مائة وعشرين . وله كتاب الإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام ، وله كتاب الفرائض ، وكان عالمًا بلسان العرب ، يتوقّد ذكاءً . مات سنة ٥٨١هــ .

انظر : تذكرة الحفاظ (١٣٤٨/٤) ، والديباج (٢٤٦) .

(٢) الروض الأنف للسهيلي (٢٧٥/٢) . مكتبة ابن تيمية - القاهرة ١٤١٠هــ .

(٣) تفسير الفطرة بالتهيؤ والسلامة لا يناقض قولنا : إنّ المراد بالفطرة الإسلام ، فقد ذكر القرطبي في القول الذي يليه معنى ذلك ؛ فتأمّله .

(٤) إكمال المعلم (١٥٠/٨) .

التي فطر الناس عليها ﴾[1] : أنها الإسلام .

وردّ الأقوال الأخرى لمخالفتها للأدلة ، فقال – عند شرحه لحديث : « **ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ...** » – :

« اختلف الناس في الفطرة المذكورة في هذا الحديث وفي الآية :

فقيل : هي سابقة السعادة والشقاوة . وهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾[2] ، وأما في الحديث فلا ؛ لأنه أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير .

وقيل : هي ما أخذ عليهم من الميثاق[3] وهم في أصلاب آبائهم . وهذا إنما يليق بالرواية التي جاء فيها : « **كل مولود يولد على الفطرة** » ، ويبعد في رواية من رواه : « **على هذه الملّة** » ، وهي إشارة إلى ملة الإسلام .

وقال بظاهر هذه الآية طائفة من المتأولين ، وهذا القول أحسن ما قيل في ذلك إن شاء الله تعالى ؛ لصحة هذه الرواية ، ولأنها مبينة لرواية من قال : على الفطرة .

ومعنى الحديث : أنّ الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهّلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول ، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق ، وقد جاء ذلك صريحاً في الصحيح : جبل[4] الله الخلق على معرفته ، فاجتالتهم الشياطين[5] ، وقد

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(٣) كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى ﴾ .

(٤) قال ابن فارس : " الجبلة : الخليقة " . معجم مقاييس اللغة (١/٥٠٢) .

(٥) يريد حديث عياض بن حمار ﷺ: "**خلقتُ عبادي حنفاء كلهم**". وقد مضى. وهو هنا يرويه بالمعنى .

تقدّم هذا المعنى ، وقد دلّ على صحة هذا المعنى بقية الخبر ، حيث قال : ((**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسّون فيها من جدعاء ؟**)) يعني : أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليمًا من الآفات ، فلو نزل على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئًا من العيوب ، لكن يتصرّف فيه ، فتجذع أذنه ، ويوسم وجهه ، فتطرأ عليه الآفات والنقائص ، فيخرج عن الأصل ، وكذلك الإنسان ؛ وهو تشبيه واقع ووجهه واضح))[1] .

فما ذكره رحمه الله هو القول الصواب في معنى الفطرة المنقول عن السلف ، وما ذكره في قوله : إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهّلة لقبول الحق ، وقوله - في تعريف الفطرة - : ((أي جبلة الله التي جبلهم عليها ؛ من التهيؤ لمعرفته والإقرار به)) فليس مخالفًا للقول الصحيح[2] .

ويوضح ذلك ما ذكره ابن حجر فيما نقله عن الطيبي أن المراد بالفطرة : تمكن الناس من الهدى من أصل الجبلة ، والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمرّ على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية ، كالتقليد .

ثم قال الحافظ : وإلى هذا مال القرطبي في المفهم .

فقول القرطبي موافق للمشهور عن السلف ؛ لأن السلف الذين فسروا الفطرة بالإسلام لم يقصدوا أن المولود يولد عالمًا بأحكام الدين ، وإنما قصدوا أن الفطرة تستلزم معرفة الله وتوحيده من غير سبب خارجي[3] .

وذكر ابن حجر نقلاً بعد قول القرطبي السابق عن شمس الدين - ابن القيم - ما

---

(١) المفهم (٦/٦٧٥) .

(٢) مسائل العقيدة في كتابي المعلم والمفهم - رسالة دكتوراه - : عبدالله بن محمد الرميان (١/١٦٠) .

(٣) دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمي ص(٢٢). دار الكتب العلمية-بيروت، ط. الأولى١٤٠٥هـ.

يوضّح هذا المعنى ، فقال : ليس المراد بقوله : « **يولد على الفطرة** » أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ؛ لأن الله يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ ، ولكن المراد : أن الفطرة مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته ... كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلّي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره[1] .

١٠ــ وقال ابن رشد :

« وقد نبّه الله تبارك وتعالى عباده المكلفين على الاستدلال بمخلوقاته على ما هو عليه من صفات ذاته وأفعاله في غير ما آية من كتابه . قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ... ﴾[2] » . وأورد قصة إبراهيم عليه السلام ، ثم قال :

« فاستدلّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بما عاين من حركة الكواكب والشمس والقمر على أنها محدثة ؛ لأن الحركة والسكون من علامات المحدثات[3] ، ثم علم أنّ كل محدَث فلا بدّ له من محدِث ، وهو الله ربّ العالمين »[4] .

وحكم لأولاد المشركين بالإسلام ؛ لأنهم ولدوا على الفطرة ، قال :

« والذي يشهد له قول النبي ﷺ : « **كلّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه ...** » أن يحكم للصغير من أولاد المشركين كيف ما كان – ما لم تكن له ذمّة ، و لم يكن معه أبواه – بحكم الإسلام »[5] .

---

(١) فتح الباري (٣/٢٩٣) .

(٢) سورة الأنعام : ١٨٥ .

(٣) وقد تقدم الكلام في معنى الأفول عن السلف ، وما ذكره ابن رشد هنا يتوافق مع كلام الباقلاني السابق . انظر ص١٤٦ والتعليق عليه .

(٤) البيان والتحصيل (١/١٥-١٦) .

(٥) البيان والتحصيل (٢/٢١٥) .

١١ــ أما القرطبي فقد أطال الكلام في بيان معنى الفطرة ، وذكر الأقوال في ذلك مبتدئاً بما نقل عن السلف ، مع ذكر أدلتهم السابقة ، قائلاً :

« واستدلّوا أيضاً بقوله ﷺ : « **خمس من الفطرة** - وذكر منها - : **قص الشارب** » ، وهو من سنن الإسلام ، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة ؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولاد كفار » .

وختم الأقوال بقول أبي العباس القرطبي السابق : « أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ... » ، ثم قال :

١٢ــ « وهذا القول - مع القول الأول المنقول عن السلف - موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية ، فذهبت بأهوائهم يمينًا وشمالاً ، وأنهم إن ماتوا صغارًا فهم في الجنة ، أعني جميع الأطفال ؛ لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذرّ أقرّوا له بالربوبية ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ ، ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بالربوبية ، وأنه لا إله غيره ، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقيًّا أو سعيداً على الكتاب الأول ، فمن كان في الكتاب الأول شقيًّا عمر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأول سعيدًا عمر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيدًا ، ومن مات صغيرًا من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛

لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم و لم ينقض الميثاق .

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله ﷺ – لما سئل عن أولاد المشركين ، فقال – : « **الله أعلم بما كانوا عاملين** » – يعني : لو بلغوا – .

ودل على هذا التأويل أيضًا حديث البخاري عن سمرة بن جندب ، عن النبي ﷺ – الحديث الطويل ؛ حديث الرؤيا – وفيه قوله ﷺ : « **وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم** عليه السلام ، **وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة** » . قال : فقيل : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **وأولاد المشركين** » ، وهذا نص يرفع الخلاف ، وهو أصحّ شيء روي في هذا الباب »[(١)] .

١٣ــ وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾ بقوله : « وقد استدل بهذه الآية من قال : من مات صغيرًا دخل الجنة ؛ لإقراره في الميثاق الأول ، ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول ، وهذا القائل يقول : أطفال المشركين في الجنة ، وهو الصحيح في الباب »[(٢)] .

١٤ــ وذكر ابن العربي معنى الفطرة في شرحه للحديث : « **كل مولود ...** » أنها الابتداء على مافي الكتاب الأول حين خلق الله القلم ، حين أخرج الناس من صلب آدم كهيئة الذر ، ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ... ﴾[(٣)] فأقر الجميع بذلك لله سبحانه ، ثم لما أوجدهم في حالة الدنيا أطوارا انقسمت حالهم .

١٥ــ ثم بيّن ما يطرأ على تلك الفطرة من الفساد ، فقال :

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/٣٠-٣١) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣١٧) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

« وضرب النبي ﷺ المثل بالبهيمة التي تنتج سليمة لا جدع فيها ، ثم تجدع بعد ذلك فتعاد لأحد القسمين ، وهو ما يطرأ من الفساد في الاعتقاد »[1] .

١٦ــ وأكّد هذا المعنى أيضًا ، فقال :

« إنّ الميت إن كان كبيراً فهو محمول على ظاهر الإيمان الذي كان عليه ، وإن كان صغيراً فحكمه حكم خاصته ، حتى قال علماؤنا : إن الرجل إذا اشترى الأبوين ومعهما ولد صغير ومات أنه محمول على حال الشاري من الإيمان لا على حال أبويه ، وقد قال ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ...** » الحديث »[2] .

١٧ــ وبين أنّ الأصل الذي يخلق عليه الدين ، ثم بعد ذلك يحصل التغير لتلك الفطرة ، ومراده أنّ المرء يولد على الإسلام ، فقال :

« وذلك أنّ المراد يخلق سليماً على الملة والفطرة والدين ، ثم تنشأ العيوب ، فإن تمادى هلك أو عذب ، وإن عاد على حال السلامة نجا وسلم »[3] .

فبين معنى الفطرة ، وأنها الميثاق الذي أخذ على بني آدم وهم في الأصلاب ، ثم بعد ذلك ما يحصل من الفساد في الاعتقاد أمر طارئ إما على يدي أبويه وإما بقرين ... وهذا كله يظهر معنى الفطرة الذي يتوافق مع قول السلف .

١٨ــ وأورد المازري الخلاف في معنى الفطرة ، ثم ردّ الأقوال المخالفة لتفسير الفطرة بالإسلام ، مما يظهر تأييده لهذا القول . فعند شرحه لحديث : « **كل مولود يولد على الفطرة ...** » قال :

---

(١) عارضة الأحوذي (٣٠٤/٨) .

(٢) القبس (٤٣٥/٢) .

(٣) عارضة الأحوذي (٥٤/١٣) .

« ذهب بعض الناس إلى أنّ المراد بالفطرة المذكورة في الحديث ما أخذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم ، وأنّ الولادة تقع عليها حتى يقع التغيير بالأبوين . وذهب بعض االناس إلى أنّ الفطرة هي ما قضي عليه من سعادة أو شقاوة يصير إليها ، وهذا التأويل إنما يليق بما في بعض الطرق ، وهو قوله : « **على الفطرة** » مطلقًا ، وأمّا ما وقع في بعض الطرق – وهو قوله : « **على هذه الفطرة** » ، وقوله في أخرى : « **إلاّ وهو على هذه الملة** » – فإنّ هذه الإشارة إلى فطرة معينة ، وملّة معيّنة تمنع هذا التأويل ، وقد يتعلق هؤلاء بقوله : « **إنّ الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً** »(١) ، وظاهر هذا يمنع من كل مولود على هذه الفطرة ، وقد ينفصل الآخرون عنه بأن المراد به حالة ثانية طرأت عليه من التهيّؤ للكفر وقبوله عليه ، غير الفطرة التي ولد عليها ، وقال آخرون : يحتمل أن يريد بالفطرة ما هيئ له ، وكان مناسباً لما وضع في العقول ، وفطرة الإسلام صوابها كالموضوع في العقل ، وإنما يدفع العقل عن إدراكه آفة وتغيير من قبل الأبوين وغيرهما »(٢) .

فذكره الأقوال السابقة والرد عليها ، ثم ذكر تفسير الفطرة بالإسلام ووجه ذلك ، وعدم رده عليها يدل على اختياره لهذا القول .

١٩ـــ وقد وجه أيضًا الحديث القدسي الذي قال الله تعالى فيه – فيما يرويه عنه رسوله ﷺ – : « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلاّ من هديته ...** »(٣) ، فقال :

« ظاهره أنّ الناس على الضلال يخلقون إلاّ من هداه سبحانه ، وقد ذكر في الحديث الآخر أنهم على الفطرة يولدون ، وقد يراد بهذا هاهنا وصفهم بما كانوا عليه

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل الخضر عليه السلام (١٨٥٢/٤) برقم (١٧٢) .

(٢) المعلم (١٨٠/٣) .

(٣) خرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (١٩٩٤/٤) برقم (٢٥٧٧) .

قبل بعثة النبي ﷺ ، أو أنهم إن تركوا وما في طباعهم من إيثار الراحة وإهمال النظر ضلوا إلاّ من هداه سبحانه))[1] .

٢٠ــ وقد جمع القرطبي بين الحديثين بأنه لا تعارض بينهما ، فقال :

((لا معارضة بين قوله تعالى : ((**كلكم ضال إلاّ من هديته**)) وبين قوله : ((**كل مولود يولد على الفطرة**)) ؛ لأنّ هذا الضلال المقصود في هذا الحديث هو الطارئ على الفطرة الأولى المغيّر لها ، الذي بينه النبي ﷺ بالتمثيل في بقية الخبر ، حيث قال : ((**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء**)) .))[2] .

٢١ــ وذكر ابن عبد البصري : ((أنّ الخلق يقرّون بربوبيته ، وإنما جحدوا معرفة التوحيد الذي تعبدهم به على ألسنة السفراء ...))[3] .

٢٢ــ وأورد القرافي قول الباجي السابق في معنى الفطرة[4] ، ثم قال :

((قال بعض العلماء : حمل الفطرة على التهيؤ أحسن ؛ أي خلق الإنسان على حالة لو خلّي وإياها لكان موحّداً ، وإنما العوائد تمنع .

ووجه الترجيح في القضاء على أولاد الكفار بأحكام الكفر من الاسترقاق وغيرها مع حصول الإيمان الفعلي خلاف القواعد ، وأيضاً فإنا نقطع أنّ الطفل يتعذر في مجاري العادات أنه عارف بالله تعالى ، فلا يمكن أن يكون ولد على الفطرة إلاّ بمعنى التهيؤ والقبول))[5] .

فما ذكره القرافي عن بعض العلماء مقرًّا له لا يختلف عن قول السلف في معنى

---

(١) المعلم (١٦٥/٣) .

(٢) المفهم (٥٥٢/٦) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥٠٩/٨) . تحقيق د. محمّد رشاد سالم . ط. دار الكنوز الأدبية .

(٤) قول أبي الوليد الباجي ص١٤٥ .

(٥) الذخيرة (٢٧٩/١٣) .

الفطرة كما سبق ، وذكر القرطبي أنهما متفقان في المعنى[١] .

ويوضح ذلك فيما نقله : « خلق الإنسان على حالة لو خلي لكان موحّدًا » ، فهذا يفهم منه أنه على الإسلام في الأصل ، وإنما يحصل له بعد الإدراك والعقل معرفة الحق ؛ لأنه لا يولد عالمًا ، وإذا ما طرأ على تلك الفطرة طارئ من الأبوين أو غيرهما ، انصرفت تلك الفطرة إلى اليهودية أو النصرانية .

٢٣ــ وأما ابن أبي جمرة فعند شرحه حديث سمرة بن جندب الطويل في صحيح البخاري ، وفيه : « ... **والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم ، والصبيان حوله فأولاد الناس** »[٢] ، قال :

« احتمل الألف واللام هنا أن تكون للجنس ، فيكون المراد : أولاد المؤمنين والكافرين ؛ لأنه قد جاء أنّ أولاد الكفار يكونون في الجنة خدمًا للمؤمنين ، لأنهم على فطرة الإسلام ، فيكونون بعد في أصل الإسلام ، لأنه ﷺ قد قال : « **ما من مولود يولد إلاّ على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه** » . »[٣] .

فصرح رحمه الله ببيان معنى الفطرة وأنها الإسلام الذي يولد عليه « أولاد الناس » كما في رواية البخاري لحديث إبراهيم ، فكانوا في كفالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنهم ولدوا على الفطرة – الإسلام – .

---

(١) ما ذكره القرطبي ص١٥٢ .

(٢) الحديث عن سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « **من رأى منكم الليلة رؤيا ؟** » . قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها ، فيقول ما شاء الله . فسألنا يومًا فقال : « **هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا ؟** » . قلنا : لا . قال : « **لكني رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ...** » فذكر الحديث بطوله . خرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢٥١/٣) برقم (١٣٨٦) .

(٣) بهجة النفوس (١٢٣/٢) .

٢٤ـــ وبين ابن جزي إقرار جميع الخلق بربوبيته سبحانه ، فقال :

« اعلم أن العالم العلوي والسفلي كله محدث بعد العدم ، شاهد على نفسه بالحدوث ، وشاهد لخالقه بالقدم[١] ، وذلك لما يبدو عليه من تغير الصفات وتعاقب الحركات والسكنات ، وغير ذلك من الأمور الطارئات ، وكل محدث لا بد له من محدِث أوجده ، وخالق خلقه ، إذ لا بد لكل فعل من فاعل ، فجميع الموجودات من الأرض والسماوات والحيوان والجمادات والجبال والبحار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار والرياح والسحاب والأمطار والشمس والقمر والنجوم والأزهار ، واختلاف الليل والنهار ، وكل صغير وكبير : تظهر منه آثار الصنعة ولطائف الحكمة والتدبير ، ففي كل شيء دليل ساطع وبرهان قاطع على وجود الصانع ، وهو ربّ العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، الملك الحقّ المبين ، الذي احتجب عن الأبصار بكبريائه وعلو شأنه ، وظهر للبصائر بقوة سلطانه ووضوح برهانه ، فما أعظم برهان الله ، وما أكثر الدلائل على الله : ﴿ أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض ﴾[٢] ، وحسبك الفطرة التي فطر الناس عليها ، وما يوجد في النفوس ضرورة من افتقار العبودية ، ومعرفة الربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾[٣] »[٤] .

٢٥ـــ وقال – عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ فطرت الله التي فطر الناس

---

(١) القديم ليس من أسماء الله تعالى الحسنى ، قال تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن .. ﴾ ، وقال ﷺ : « **اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء** ... » الحديث . خرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٠٨٤/٤) برقم (٢٧١٣) .

(٢) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٣) سورة الزمر : ٣٨ .

(٤) القوانين الفقهية (١٧) .

عليها ﴾[1] - :

« منصوب على المصدر ؛ كقوله : ﴿ صبغة الله ﴾[2] ، أو مفعول بفعل مضمر تقديره : الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله . ومعناه : خلقة الله ، والمراد به دين الإسلام ؛ لأن الله خلق الخلق عليه ، إذ هو الذي تقتضيه عقولهم السليمة ، وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته ، كما قال رسول الله ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه ...** » .

﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان ، ومعنى أنّ الله لا يبدلها : أي لا يخلق الناس على غيرها ، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجنّ بعد الخلقة الأولى »[3] .

٢٦ـــ وأما الزرقاني فذكر عند شرحه حديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** » أنّ الحديث عامّ في جميع المولودين على ظاهره ، وأصرح منه رواية البخاري : « **ما من مولود إلاّ وهو على الملة** »[4] ، ثم ردّ على الذين لا يرون العموم ، فقال :

« ويكفي في الردّ عليهم الرواية عن أبي هريرة ﷺ : « ليس من مولود إلاّ على هذه الفطرة ، حتى يعرب عنه لسانه »، وأصرح منه رواية : « كل بني آدم ... »».

ثم بين معنى الفطرة ، فقال : « وأشهر الأقوال أنّ المراد بالفطرة الإسلام ، قال ابن عبدالبر : وهو المعروف عند عامّة السلف ... - ثم ذكر الآية : ﴿ فطرت

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٨ .

(٣) التسهيل لعلوم التنـزيل (٣/٢٦٥-٢٦٦) .

(٤) لم أجدها في البخاري ، وهي عند مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة من رواية ابن نمير (٤/٢٠٤٨) برقم (٢٦٥٨) .

الله ...﴾ ، وحديث أبي هريرة وحديث عياض بن حمار[1] - ﷺ - ، ثم قال - :

((ورجح بقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله ﴾ ، لأنها إضافة مدح ، وقد أمر الله نبيّه بلزومها ؛ فعلم أنّها الإسلام))[2] .

فنص على أنّ معنى الفطرة : الإسلام .

٢٧ــ ونقل محمّد المختار قول ابن حجر في الفتح عند شرح الحديث : ((**كل مولود ...**)) : ((تعميم الوصف المذكور في المولودين ...))[3] .

ثم أورد الخلاف في معنى الفطرة ، ثم قال :

((وأشهر الأقوال أنّ المراد بالفطرة في الحديث : الإسلام))[4] .

٢٨ــ وقال ابن عاشور :

((أمّا المخلوقات الأرضية الفضلاء فهم مخلوقون للطاعة ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[5] ، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها ، وهم في انحرافهم متفاوتون ، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادًا ، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلاً أو كثيراً : هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق ، متفاوتون فيه))[6] .

٢٩ــ وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا ... ﴾[7] قال :

---

(١) حديث أبي هريرة سبق تخريجه ١٤٣ ، وحديث عياض بن حمار سبق تخريجه ص١٤٤ .

(٢) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/٨٧) .

(٣) فتح الباري (٣/٢٤٨) .

(٤) نور الحق الصبيح (٢/٧٤٩-٧٥٠) .

(٥) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٦) تفسير التحرير والتنوير (١٠/٢) .

(٧) سورة الروم : ٣٠ .

« أي : الدين الذي هو فطرة الله ؛ لأن التوحيد هو الفطرة ، والإشراك تبديل للفطرة » .

٣٠ـــ وبيّن معنى الفطرة بقوله :

« ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف : أنّ الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين ، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها ، غير نائين عنه ، ولا منكرين له ، مثل إثبات الوحدانية لله ؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح ، حتى لوترك الإنسان وتفكيره - ولم يلقّن اعتقادًا ضالاًّ - لاهتدى إلى التوحيد بفطرته »[(١)] .

٣١ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ فطرت الله ﴾ قال : « تصريح بأنّ الله خلق الناس سالمةً عقولهم مما ينافي الفطرة ، من الأديان الباطلة والعادات الذميمة ، وأنّ ما يدخل عليهم من الضلالات ما هو إلاّ من جرّاء التلقّي والتعوّد ، وقد قال النبي ﷺ : يولد على الفطرة ، ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ أي : كما تولد البهيمة من إبل أو بقر أو غنم كاملة جمعاء أي بذيلها ، أي : تولد كاملة ويعمد بعض الناس إلى قطع ذيلها وجدعه ، وهي الجدعاء » .

٣٢ـــ وبيّن اختصاص الإسلام بكونه دين الفطرة ، وكون الإسلام هو الفطرة ، وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختصّ بها الإسلام من بين سائر الأديان[(٢)] .

٣٣ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات ... ﴾[(٣)] قال :

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/٩٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٠/٩٢) .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٠ .

« فوجه دلالة هاته الآيات على الوحدانية أنّ هذا النظام البديع في الأشياء المذكورة ، وذلك التدبير في تكوينها وتفاعلها ، وذهابها وعودها ومواقيتها ؛ كل ذلك دليل على أنّ لها صانعاً حكيماً متّصفاً بتمام العلم والقدرة التي تقتضيها الإلهية . ولا جرم أن يكون الإله الموصوف بهاته الصفات واحداً ، لاعتراف المشركين بأن نواميس الخلق وتسيير العالم في فعل الله تعالى ، إذ لم يدعوا لشركائهم الخلق ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون ﴾ ، وذكر في سورة النحل الاستدلال ببعض ما هنا على أن لا إله مع الله ، فالمقصود التذكير بانتفاء حقيقة الإلهية عن شركائهم »[١] .

٣٤ــ وأما الشيخ الشنقيطي فقد بين أنّ الإقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري ، فطر الله الخلائق عليه ، وتعرفه النفوس ؛ حيث يقول :

« هذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء ؛ قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾[٢] ، وقال : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾[٣] »[٤] .

فالشيخ يؤكّد أنّ القلوب مفطورة على هذا النوع من التوحيد ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أفي الله شك ﴾ ، وقوله ﷺ : « **ما من مولود يولد إلاّ على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه** »[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٨٨/٢) .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة يونس : ٣١ .

(٤) أضواء البيان (٤١٠/٣) .

(٥) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (٩٩/١) د. عبدالعزيز الطويان .

٣٥ــ وذكر ابن باديس أنّ الله أوجد خلقه على التوحيد . قال - عند قوله تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ - :

((خلق الله الخلق حنفاء موحّدين، فأتتهم الشياطين فأضلّتهم عن سواء السبيل)).

٣٦ــ ثم بيّن حال تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها ، فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها ؛ من عبادة الأوثان ، وارتكاب الإثم والعدوان ، وأنواع الضلال والخسران ، **معرضةً عن توحيد خالق الأرض والسماوات** ، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات ، طال عليها أمد الجهالة ، واستولت عليها أسباب الضلالة ، فتمكنت منها الغفلة التمكّن التام ، فذهبت في أوديتها البعيدة المدى كالأنعام ، أو أضلّ من الأنعام(١) .

فظهر من كلامه أنّ التوحيد هو الذي خلق الله عليه الخلق ، وأنّ ما حصل لهم بعد ذلك من الشياطين التي أدتهم إلى تقليد آبائهم وأتباعهم ، والإعراض عن توحيد الخالق سبحانه ، فهم بحاجة إلى من ينبّههم من غفلتهم ، ويدعوهم إلى أصل فطرتهم .

٣٧ــ وذكر محمّد المكّي أنّ الإسلام هو دين الفطرة القيّم الذي لا تناقض في عقيدته ، ولا اعوجاج في شريعته ، فهو الملائم للفطرة ، المنسجم معها منذ البداية ، وهو الموافق للنظر الصحيح ، والمطابق للعقل السليم(٢) .

وذكر أقدم وأول ميثاق أخذه الله على كافة العباد وهم يزالون في أصلاب آبائهم سرًّا مكنوناً في عالم الغيب ، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهو يتضمّن في جوهره الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان ، على أساس من التوحيد والإيمان ، فما من إنسان وُكل إلى فطرته الأولى ، ولم تتعرض فطرته لعوامل

---

(١) تفسير ابن باديس (٢٨٩) .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٤٠) .

التشويه والإفساد ؛ إلاّ وهو مقرّ بألوهية الله وربوبيته للعباد ، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق ، وملتزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق ، دون معارضة ولا جحود ، وبدون أي قيد من القيود ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ .

حتى إذا ما وقع الإنسان بين أيد غير أمينة ، فعملت على تشويه فطرته وإفسادها انحرف عن الفطرة السليمة ، واختلطت عليه العقيدة الصحيحة بالمعتقدات السقيمة ، ونسي الميثاق الأزلي المعقود بين فطرته وبين ربّه ، ووقع في شرك الشيطان وحزبه[1] .

ثم استدلّ بحديث عياض بن حمار ، وبحديث أبي هريرة : « **كل مولود يولد على الفطرة** » .

وبهذه النقول عن هؤلاء الأئمة يتبيّن أنّ غالب الخلائق تقرّ بربوبية الله ﷻ ، وهو مقتضى الفطرة .

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٢/٢٩٠) .

المبحث الثاني

الاحتجاج بهذا الإقرار على توحيد العبادة

تقدم في الكلام على معرفة الخلق لربهم أنها أمر فطري قد غرس في نفوس البشر في أصل خلقتهم ، فيلزم من هذا الإقرار إفراده تعالى وحده بالعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾[2] . وكقوله سبحانه – مشنّعاً على المشركين بعبادتهم غيره سبحانه – : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾[4] .

فالربوبية تقتضي استحقاق العبادة لله الخالق وحده ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، أي التي تنكر على هؤلاء كيف أقرّوا بالربوبية وأنكروا الألوهية ؟! كما في قوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾ . قال عكرمة في تفسير الآية : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره ![5] .

وأئمة المالكية ساروا على هذا النهج القرآني القويم في الاحتجاج على هؤلاء المقرّين بالربوبية ، ومطالبتهم إياهم بحقها المتمثل في الالتزام بعبادته ﷻ وحده لا شريك له .

---

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) سورة يس : ٢٢ .

(٣) سورة النحل : ١٧ .

(٤) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٥) تفسير الطبري (٣١٢/٧) .

١ــ قال الباقلاني :

« ويجب أن يعلم أنّ صانع العالم جلّت قدرته واحد أحد ، ومعنى ذلك أنه ليس معه إله سواه ، ولا يستحق العبادة إلاّ إياه »[١] .

فأثبت الربوبية ، ولازم من أثبتها أن يفرد الله تعالى بالعبادة ، إذ لا يستحق العبادة إلاّ هو سبحانه .

٢ــ أما ابن بطال فعند شرحه حديث : أي الذنب أعظم ؟ قال : « **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك** »[٢] قال :

« كيف تقتله وقد خلق رزقه ؟! فلا يأكل من رزقك شيئاً ، فمن خلقك وخلقه ورزقك ورزقه أحقّ بالعبادة من الند الذي اتخذت معه شريكاً »[٣] .

٣ــ وعند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾[٤] نقل قول شيخه المهلّب مقرًّا له :

« فمن علم أنّ الله خلق كل شيء فقدّره تقديراً ، فلا ينسب شيئاً من الخلق إلى

---

(١) الإنصاف (٣٣) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب (٩٠/١) برقم (٨٦) ، والبخاري بلفظ : « أي الذنب أكبر عند الله ؟ » في كتاب التفسير ، باب ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ﴾ (٤٩٢/٨) برقم (٤٧٦١) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٥٢٢/١٠) .

(٤) قال عكرمة : « نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً ، وأن يعبدوا غيره ، أو يتخذوا له ندًّا وعِدلاً في الطاعة ، فقال : كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم ، وملكي إياكم ، ونعمتي التي أنعمتها عليكم ؛ فكذلك فأفردوا لي الطاعة ، وأخلصوا لي العبادة ، ولا تجعلوا لي شريكاً وندًّا من خلقي ، فإنكم تعلمون أنّ كل نعمة عليكم فمنّي » . تفسير الطبري (١٩٩/١) . ط. الباز .

غيره ، فلهذا ذكر هذه الآيات في نفي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فمنها ما حذر به المؤمنين ، ومنها ما وبخ به الكافرين الضالين ، ثم أثنى على المؤمنين في قوله : ﴿ والذي لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ ، يريد : كما يدعو عبدة الأوثان لترزقهم وتعافيهم ، وهي لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً)) .

فبيّن أنّ الله ﷻ هو الخالق الرازق ، فمن خلق ورزق أحقّ أن يعبد ، فالأوثان وغيرها لا ترزق ولا تعافي ، ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً .

٤ــ وذكر الباجي في رده على راهب فرنسا قوله :

((ولو جاز أن يقال : عيسى – عليه الصلاة والسلام – هو الخالق ، لما ظهر من ذلك على يده ، والمنفرد بفعله ؛ لجاز أن نقول : إن آدم وإبراهيم وموسى ومحمداً وسائر الأنبياء عليهم السلام انفردوا بخلق ما ظهر على أيديهم ، وإن جميعها من خلقهم ، وإنهم لذلك آلهة يعبدون ! وذلك محال ؛ فلا خالق إلاّ الله ، ولا معبود سواه ، وهؤلاء أنبياء مكرمون ورسل مؤيدون ، صدقهم الله تعالى بما ظهر على أيديهم من المعجزات التي لا يقدر عليها غيره ، ولا يصح أن يخلقها سواه))(١) .

فمراده رحمه الله أن الذي خلق وأوجد هو الذي يستحق أن يعبد ، وهؤلاء الأنبياء والرسل إنما هم من خلقه ، ولكن الله أيّدهم بالمعجزات ليظهر صدقهم وتقبل رسالتهم .

٥ــ وقال ابن عطية – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ – :

((تقرير لهم على جهة التوبيخ في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته : أن من فطر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود ؛ فهو الذي يستحقّ أن يُعبد)) .

---

(١) رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين (٦١-٦٢) .

وفي موضع آخر قال – عند قوله تعالى : ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ... ﴾ – :

((ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع))[1] .

٦ـــ وأكّد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ ، فقال :

((ثم عدد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم ، وذلك أنهم مع اتخاذهم آلهة كانوا يقرّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ، إلاّ أنهم قال بعضهم : اتخذ الملائكة بنات ! وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى بن مريم ، واليهود في عزير ، فجاءت هذه الآية رادّة على جميعهم منبهة عليهم))[2] .

والمعنى : كيف تقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، ثم بعد ذلك تعبدون غيره ؟؟!

٧ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال ﴾[3] قال :

((أي : المستوجب للعبادة والألوهية ، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق))[4] .

فما ذكره رحمه الله في الكشف عما ترشد إليه الآية نص على أنه إذا كان الله ربكم الحق ، فهو المستوجب للعبادة وحده .

---

(١) المحرر الوجيز (٤١٩/٢) .

(٢) المحرر الوجيز (١٣٩/١٠) .

(٣) سورة يونس : ٣٢ .

(٤) المحرر الوجيز (١١٨/٣) .

وذكر القرطبي هذا المعنى .

٨ـــ فعند قوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[١] قال :

((بين أنه المتفرّد بقدرة الإيجاد ، فهو الذي يجب أن يعبد))[٢] .

٩ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ... ﴾ قال :

((أي الذي تحقّ له الألوهية ، ويستوجب العبادة ، فتشريك غيره ضلال وغير حقّ)) .

وبيّن أيضا الاحتجاج على هؤلاء المشركين المقرين بأن الله خلقهم بأن الإقرار بمخلوقيتهم لله ﷻ يستوجب القيام بحق الخالقية ، وهو أن يعبدوه وحده .

١٠ـــ فعند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ قال :

((أمر بالعبادة له ... ﴿ الذي خلقكم ﴾ : خص تعالى خلقه ، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعاً لهم))[٣] .

١١ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ قال :

((أي : ذلكم الذي فعل هذه الأشياء - من خلق السماوات والأرض - هو ربكم لا ربّ لكم غيره ... ﴿ فاعبدوه ﴾ : أي وحّدوه وأخلصوا له العبادة ...

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٢) تفسير القرطبي (٢١٨/٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٢٢٦/١) .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ : أي إنها مخلوقاته فتستدلوا بها عليه))[1] .

١٢ــ وذكر عند قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ :

((عجب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه ، مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة))[2] .

١٣ــ وعند قوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديرا ﴾[3] قال :

((نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون ؛ من أنّ الملائكة أولاد الله ! يعني بنات الله ! ﷻ وعما قالت اليهود : عزير ابن الله ! جلّ الله تعالى . وعما قالت النصارى : المسيح ابن الله ! تعالى الله عن ذلك .

﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ كما قال عبدة الأوثان .

﴿ وخلق كل شيء ﴾ لا كما قال المجوس والثنوية[4] : إن الشيطان – أو الظلمة – يخلق بعض الأشياء !! ولا كما يقول من قال : للمخلوق قدرة الإيجاد .

فالآية ردّ على هؤلاء .

﴿ فقدّره تقديرًا ﴾ أي : قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراده ، لا عن سهوة وغفلة ، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة ، وبعد القيامة ،

---

(١) تفسير القرطبي (٣٠٨/٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٥/١٣) .

(٣) سورة الفرقان : ٢ .

(٤) الثنوية : فرقة تنسب إلى ماني بن فاتك المولود سنة ١٢٦م ، فارسي الأصل ، وتقوم عقيدتهم على ثنائية الإله ، فهناك إله للنور وإله للظلمة ، والأول إله للخير والخصب والثمار ، والثاني إله للشر والدمار ! انظر : نقد المسلمين للثنوية المجوس (٧) من رسائل الإمام القاسم الرسي . ط. دار الآفاق ، ط. الأولى ١٤٢٠هـ ، القاهرة .

فهو الخالق المقدّر ، فإياه فاعبدوه »[1] .

فمراده إظهار ما دلت عليه النصوص من أنّ هؤلاء يقرون بأن الله ربهم الذي خلقهم ورزقهم ، ثم هم بعد ذلك لا يخصونه بالعبادة ، وهذا من انتكاس الفطر والعياذ بالله .

١٤ـــ وأما أبو العباس القرطبي ، فعند حديث : « **إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ...** »[2] قال :

« أي : دليلان على وجود الحق سبحانه وقهره وكمال إلهيته ... »[3] .- إلى قوله - :

« وأيضا كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله ، وتمام قهره واستغنائه ، وعدم مبالاته ، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ، وخص هنا خسوفهما بالتخويف ؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان ، والنادر العظيم مخوف موجع ، بخلاف ما يكثر وقوعه ، فإنه لا يحصل منه ذلك غالباً ، وأيضاً فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما ، ولما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما »[4] .

فبين أنّ هذه المخلوقات العظيمة تدل على عظمة خالقها الذي أوجد كل ما في هذا العالم وأحكمه ، وقهر المخلوقات بقدرته ، فذلك كله يوجب خوفه وخشيته

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/٢-٣) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف (٢/٥٢٩) برقم (١٠٤٤) ، ومسلم في كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف (١/٦١٨) برقم (٩٠١) .

(٣) المفهم (٢/٥٥٢) .

(٤) المفهم (٢/٥٥٣) .

وتعظيمه وحده ، لأنه الموجد لتلك المخلوقات العظيمة التي عبدت من دون الله ؛ كالشمس والقمر .

١٦ــ وأما ابن جزي ؛ فعند تفسيره لسورة الإخلاص قال :

((وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته ، وذلك في القرآن كثير جدًّا ، فمنها قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾[1] ؛ لأنه إذا ثبت أنّ الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحد منها شريكاً له ...))[2] .

١٧ــ وقال أيضاً :

((تقرير يقتضي الرد على من عبد غير الله ... وذكر من أول السورة أنواعاً من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته ، ولذلك أعقبها بقوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾))[3] .

١٨ــ وأكّد هذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾[4] ، فقال :

((نزلت في كفار العرب الذين يقرّون بالله ويعبدون معه غيره))[5] .

١٩ــ وعند قوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[6] قال : ((كأنه يقول : إنما أدعوكم إلى عبادة ربكم الذي خلق السماوات والأرض ، فكيف تنكرون ذلك وهو الحقّ

---

(١) سورة النحل : ١٧ .

(٢) التسهيل (٤/٤٤٦) . وانظر ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٥٢٠) .

(٣) التسهيل (٢/٢٧٧) .

(٤) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٥) التسهيل (٢/٢٣٥) .

(٦) سورة الأعراف : ٥٤ .

المبين ؟!))[1] .

وبيّن بطلان عبادة الأصنام ، إذ لا تقدر على خلق شيء .

٢٠ــ فقال - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ... ﴾ الآية[2] :

((تنبيه بالأصغر على الأكبر من باب أولى وأحرى ، والمعنى : أنّ الأصنام التي تعبدونها لا تقدر على خلق الذباب ولا غيره ، فكيف تعبد من دون الله الذي خلق كل شيء))[3] .

٢١ــ وعند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ يقول ابن جزي تحت عنوان :

((ثلاث فوائد :

الأولى : الآية ضمنت دعوة الخلق إلى عبادة الله بطريقين :

أحدهما : إقامة البراهين بخلقهم وخلقه السماوات والأرض والمطر .

الآخر : ملاطفة جميلة بذكر ما لله عليهم من الحقوق ومن الإنعام ، فقد ذكر أولاً ربوبيته لهم ، ثم ذكر خلقته لهم وآبائهم ؛ لأن الخالق يستحقّ أن يعبد ، ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم من جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً ، ومن إنزال المطر ، وإخراج الثمرات ؛ لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر .

---

(١) التسهيل (٢/١٦٣) .

(٢) سورة الحج : ٧٣ .

(٣) التسهيل (٣/١٠٠) .

الثانية : المقصود الأعظم من هذه الآية الأمر بتوحيد الله ، وترك ما عبد من دونه ، لقوله في آخرها : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ ، وذلك الذي يترجم عنه بقولنا : لا إله إلاّ الله ، فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام ، الذي قاعدته التوحيد ...

الثالثة : وقول : لا إله إلاّ الله ، تكون في القرآن بعد ذكر المخلوقات والتنبيه على الاعتبار في الأرض وفي السماوات ، والحيوان والنبات ، والرياح والأمطار ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ... وأكثر ما يأتي ذكر المخلوقات في القرآن في معرض الاستدلال على وجوده تعالى ، وعلى وحدانيته »[1] .

فمراده رحمه الله ظاهر في بيان أسلوب القرآن في دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى ، فإيجاد المخلوقات من أعظم الأدلة التي استعملها القرآن لإثبات وجود الباري ﷻ ، والتدليل على تفرّده بالربوبية والألوهية : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[2] .

٢٢ــ وقال القرافي في ديباجة كتاب الذخيرة :

« الحمد لله الذي تجلّى لخلقه في عجائب مبتدعات صنعته ، واحتجب عنهم كمال هويته ، وتفرد بوجوب الوجود[3]، فهو الأبدي في قيوميته ، وتوحد بالإيجاد ، فكل الأكوان خاضعة لجلال هيبته ، وتنــزّه عن الشبيه والشريك ؛ فهو الواحد الأحد في إلهيته »[4] .

فبيّن ربوبية الله ﷻ وعظمته ، وأنه سبحانه الواحد الأحد في إلهيته ، المنــزّه عن الشريك .

---

(١) التسهيل (١/٧٠-٧١) ، وابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٥٢٤-٥٢٥) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٣) إطلاق لفظ « واجب الوجود » على الله تبارك وتعالى مما ابتدعه الفلاسفة ، وتبعهم المتكلمون على ذلك ، وليس في الكتاب والسنة إطلاق هذا الاسم على الله تبارك وتعالى ، والأصل في أسمائه ﷻ التوقيف .

(٤) الذخيرة (١/٣٣) .

٢٣ــ وأطال ابن العربي الكلام حول النظر في الآيات والمخلوقات ، وذلك لتثبت القلوب على التوحيد والعبادة ، فقال :

((أمر الله تعالى بالنظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته في أعداد كثيرة من آي القرآن ، أراد بذلك زيادة في اليقين وقوة في الإيمان ، وتثبيتاً للقلوب على التوحيد)) .

٢٤ــ ثم بين أنّ الإيمان بالله بمعرفته ومعرفة صفاته وأفعاله وملكوته في أرضه وسمائه ، ولا يحصل ذلك إلاّ بالنظر في مخلوقاته ، وهي لا تحصى كثرة ، وأمهاتها السماوات، فترى كيف بنيت وزينت من غير فطور ، ورفعت بغير عمد ، وخولف مقدار كواكبها ، ونصبت سائرة شارقة وغاربة ، منيرة وممحوة ، كل ذلك بحكمة ومنفعة ... الخ .

فذكر ملكوت الله ﷻ في أرضه وسمائه ، ما فيهما من المخلوقات والكائنات والإنسان وإيجاده ، وما فيه من الآيات .

٢٥ــ ثم قال :

((فينظر حينئذ أنه عبد مربوب مكلّف مخوّف بالعذاب إن قصّر ، مرجى بالثواب إن ائتمر ، فيقبل على عبادة مولاه ، فإنه وإن كان لا يراه يراه ، ولا يخشى الناس ، فالله أحق أن يخشاه))(١) .

فما ذكره رحمه الله من الاستدلال بأمور الربوبية ، من الخلق والتدبير وغيرهما دال على وحدانية الله تبارك وتعالى ، وبين ذلك قوله في آخر حديثه - بعد أن ذكر المخلوقات وما فيها من الآيات والعبر - : ((ينظر حينئذ أنه عبد مربوب ... فيقبل على عبادة مولاه ... ولا يخشى الناس فالله أحقّ أن يخشاه)) .

٢٦ــ وبمثل قوله ما ذكره التتائي بعد إيراده محاجة فرعون لموسى بقوله : ﴿ وما ربّ العالمين ﴾ إلى أن قال له موسى عليه السلام : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما

---

(١) انظر أحكام القرآن (٢/٨١٦-٨١٨) .

إن كنتم موقنين ﴾[1] قال :

((تستدلون بما أقول فتعرفون ربكم ، وهذا غاية الإرشاد لتنبيهه أولاً على الاستدلال بالعام – وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما – ، ثم ما هو أقرب إليهم – وهو أنفسهم وأموالهم – ، ثم بالمشرق والمغرب وما بينهما من الميزات والموجودات ، لزيادة بيان وتدرج في الاستدلال ، وليعلم أنّ في كل شيء دليلاً على وحدانيته))[2] .

٢٧ــ وذكر الثعالبي[3] عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ... ﴾[4] قوله :

((معناه : وحّدوه وخصّوه بالعبادة ، وذكر تعالى خلقه لهم إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ، فذكر ذلك سبحانه حجة عليهم))[5] .

٢٨ــ ونقل محمّد المختار عند شرحه باب قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[6] كلام ابن حجر على سبيل الإقرار في أنّ الآية وردت في إثبات استحقاق الخالق العبادة ، لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون ، فقال :

---

(١) سورة الشعراء : ٢٤ .

(٢) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (١٦٦/١) .

(٣) هو عبدالرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المغربي المالكي ، صاحب التصانيف ، اختصر تفسير ابن عطية ، وشرح ابن الحاجب الفرعي ، وعمل في الوعظ وغير ذلك . مات سنة ٨٧٥هـ .
انظر : الضوء اللامع (١٥٢/٤) ، ونيل الابتهاج (٢٥٧/١) .

(٤) سورة البقرة : ٢١ .

(٥) تفسير الثعالبي (١٩٥/١) . ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت ، لبنان . ط. الأولى .

(٦) سورة الصافات : ٩٦ .

« أتعبدون ما لا يخلق وتدعون عبادة من خلقكم ؟! »[1] .

وأما ابن عاشور فقد أطال الكلام حول الاحتجاج بالربوبية على الألوهية من خلال تفسيره لعدة من الآيات .

٢٩ــ فعند قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شيء فاعبدوه ... ﴾[2] قال :

« جملة : ﴿ فاعبدوه ﴾ مفرّعة على قوله : ﴿ ربكم لا إله إلاّ هو ﴾ ، وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعاً على وصفه بالربوبية والوحدانية ؛ لأن الربوبية مقتضية استحقاق العبادة ، والانفراد بالربوبية يقتضي تخصيصه بالعبادة »[3] .

٣٠ــ وعند قوله تعالى : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[4] قال :

« وهو يخلص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاماً لهم بما يقرّون به من أنه رب السماوات والأرض وما بينهما ، ويقرون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً »[5] .

٣١ــ وبين هذا المعنى أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ لا إله إلاّ هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[6] ، فقال :

« لأن انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية ،

---

(١) نور الحق الصبيح (٦٣٣/١٠) . وانظر فتح الباري (٥٢٩/١٣) .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٢ .

(٣) التحرير والتنوير (٨٦/٢٣) .

(٤) سورة الشعراء : ٢٤ .

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٣/٢٥) .

(٦) سورة الدخان : ٨ .

أي على بطلان إلهية أصنامهم))[1] .

٣٢ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وله من في السماوات والأرض وله الدين واصباً ﴾[2] قال :

((ضمير " له " عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين ﴾ ، فعطفه على جملة : ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ ؛ لأن عظمة الإلهية اقتضت الرهبة منه ، وقصرها عليه مناسب أن يشار إلى أن صفة المالكية تقتضي إفراده بالعبادة))[3] .

٣٣ــ قال : ((المقصود : التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره ... - إلى قوله - : ففي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير ، فهو الرب الحقّ المستحقّ للعبادة ...))[4] .

٣٤ــ وختم حديثه حول هذا المعنى ؛ فعند قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ... ﴾ حيث قال :

((لما تقرر بالقول السابق[5] عبودية ما في السماوات والأرض لله ، وأنّ مصير كل ذلك إليه ؛ انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة ، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكاً لجميع ما احتوته السماوات والأرض))[6] .

وأما محمّد الأمين فقد بين أنّ الإتيان بتوحيد الربوبية لا ينفع إلاّ إذا انضم له توحيد الألوهية .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٤/٢٥) .

(٢) سورة النحل : ٥٢ .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٥/١٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٣١٧/١٧) .

(٥) يريد في الآية التي قبلها : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ... ﴾ ، ومراده المالكية .

(٦) التحرير والتنوير (١٥٦/٧) .

٣٥ــ قال – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾(١) – :

((صرّح الله تعالى في هذه الآية الكريمة بأن الكفار يقرّون بأنه – جل وعلا – ربهم الرازق المدبّر للأمور ، المتصرف في ملكه بما يشاء ، وهو صريح في اعترافهم بربوبيته ، ومع هذا أشركوا به جل وعلا ، والآيات الدالة على أنّ المشركين يقرّون بربوبيته جلّ وعلا – ولم ينفعهم ذلك ؛ لإشراكهم معه غيره في حقوقه جلّ وعلا – كثيرة ، كقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله – إلى قوله – : فأنى تسحرون ﴾(٤) ، إلى غير ذلك من الآيات ، ولذا قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾(٥) ، والآيات المذكورة صريحة في أنّ الاعتراف بربوبيته جل وعلا لا يكفي في دخول دين الإسلام ، إلاّ بتحقيق معنى لا إله إلاّ الله نفياً وإثباتاً)) (٦) .

٣٦ــ ثم بين أنّ الآيات الدالة على توحيد الربوبية إنما هي لإلزام المشركين أن يوحّدوه في العبادة ، فيقول :

((ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا

---

(١) سورة يونس : ٣١ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة الزخرف : ٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ٨٤-٨٩ .

(٥) سورة يوسف : ١٠٦ .

(٦) أضواء البيان (٢/٤٨١-٤٨٢ و ٣/٧٤-٧٥ ، ٤١٠) ، والمعين والزاد ص (٦٥) .

على وجوب توحيده في عبادته ، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير ، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه المستحق لأن يعبد وحده ؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يُعبد وحده))[1] .

٣٧ــ ثم ذكر أن الله ﷻ وبخ الكفار على إقرارهم بربوبيته ثم هم بعد ذلك يشركون في ألوهيته ، فقال :

((من أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار – إلى قوله – : فسيقولون الله ﴾[2] ، فلما أقرّوا بربوبيته وبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره بقوله : ﴿ أفلا تتقون ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات)) .

وذكر أن المشركين في حال الشدة يفزعون إلى الله ، ويخلصون العبادة ، ويعرضون في حال الرخاء ، وهو تذكير للكفار بما في نفوسهم من التوحيد .

٣٨ــ فعند قوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾[3] قال :

((لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أنّ الله ذمّ الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده ، ولا يصرفون شيئاً من حقّه لمخلوق ، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده ، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة ، ويعلم من ذلك أنّ بعض جهلة المتسمّين بالإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان ؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممّن يعتقدون فيه الصلاح ! في الوقت الذي

---

(١) أضواء البيان (٤١١/٣ و ٨١٣/٥ و ٦٢٠/٦) .

(٢) سورة يونس : ٣١ .

(٣) سورة الإسراء : ٦٧ .

يخلص فيه الكفار العبادة لله ، مع أنّ الله جل وعلا أوضح في غير موضع أنّ إجابة المضطر وإنجاده من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره[1] ... ››[2] .

٣٩ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكّر إلاّ من ينيب ﴾[3] قال :

‹‹ ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه جلّ وعلا هو الذي يري خلقه آياته ، أي : الكونية القدرية ؛ فيجعلها علامات لهم على ربوبيته ، واستحقاقه العبادة وحده ، ومن تلك الآيات : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾[4] ، ومنها : السماوات والأرض وما فيها ، والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، والبحار ، والأنهار ، والعيون ، والجبال ، والأشجار ... الخ ››[5] .

٤٠ــ وختم كلامه في ذلك بأنّ الاستفهامات المتعلقة بآيات توحيد الربوبية استفهامات تقرير لا إنكار . يقول :

‹‹ إنّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير ، يراد منها أنهم إذا

---

(١) ولذا أسلم عكرمة ﷺ ؛ فقد روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ لمّا أهدر يوم الفتح دم جماعة – منهم عكرمة ابن أبي جهل – هرب من مكة وركب البحر ، فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ! فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً . فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلاّ الإخلاص ما ينجيني في البر غيره ، اللهم إنّ لك عهداً إنْ أنتَ عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنّه عفوًّا كريماً . فجاء فأسلم .

والقصة خرجها أبو يعلى في مسنده (١٠١/٢) برقم (٧٥٧) ، وابن عبدالبر في التمهيد (١٧٥/٦) ، وذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٩/٦) .

(٢) أضواء البيان (٦١٤/٣-٦١٥) .

(٣) سورة غافر : ١٣ .

(٤) سورة فصلت : ٣٧ .

(٥) أضواء البيان (٧٤/٧) .

أقرّوا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار ؛ لأن المقرّ بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة ، نحو قوله تعالى : ﴿ أفي الله شك ﴾[1] ، وقوله : ﴿ قل أغير الله أبغي ربًّا ﴾[2] - وإن زعم بعض العلماء أنّ هذا استفهام إنكار - لأن استقراء القرآن دلّ على أنّ الاستفهام المتعلّق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار ، لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه »[3] .

٤١ـــ وذكر أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾[4] :

« ولا شكّ أنّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو : لا ؛ أي : ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل من ذلك المذكور ؛ من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ، فلما تعيّن اعترافهم وبّخهم منكِراً عليهم بقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يشركون ﴾ »[5] .

فتوحيد الربوبية[6] مستلزم لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية متضمّن لتوحيد الربوبية .

٤٢ـــ وذكر ابن باديس عند قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ

---

(١) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٤ .

(٣) أضواء البيان (٤١٤/٣) .

(٤) سورة الروم : ٤٠ .

(٥) أضواء البيان (٤١٣/٣) .

(٦) أطال الشيخ محمّد الأمين الكلام على أنّ الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده ، لأمور كلها داخلة في الربوبية ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ . انظر معارج الصعود (٣٠٧) .

إياه ﴾[1] قوله :

((وجيء باسم الرب في مقام الأمر يقصر العبادة عليه ، تنبيهاً على أنّ الذي يستحقّ العبادة هو من له الربوبية بالخلق والتدبير والملك والإنعام ، وليس ذلك إلاّ له ، فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه ، فهو تنبيه بوحدانية الربوبية التي من مقتضاها انفراده بالخلق والأمر الكوني الشرعي على وحدانية الألوهية التي من مقتضاها استحقاقه وحده عبادة جميع مخلوقاته))[2] .

٤٣ــ وقال محمّد المكي - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾[3] - : ((يثبت الله عبودية المخلوقات كلها للإله الواحد الأحد ؛ فله ما سكن وله ما تحرك في الليل والنهار من كافة العوالم ، وجميع الأفلاك ، ما علا منها وما سفل ، وما نطق وما لم ينطق))[4] .

٤٤ــ وفي الآية التي بعدها : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليًّا فاطر السموات والأرض ﴾[5] قال :

((وفي ثاني آية منه يلقن كتاب الله للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ما يفحم به المشركين المعاندين ، فيتساءل في لهجة الاستنكار والاستغراب : كيف يتخذ الإنسان له وليًّا غير الله !؟ وكيف يستنصر بمن سواه ؟ والله مبدع السماوات والأرض ، الذي يرزق الخلق ويطعمهم ، وهو مع ذلك غني عنهم جميعاً ...))[6] .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٢) تفسير ابن باديس (٦٣) .

(٣) سورة الأنعام : ١٣ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٢/١١٠) .

(٥) سورة الأنعام : ١٤ .

(٦) التيسير (٢/١١٠) .

٤٥ــ ويقول أيضاً :

« ولا شك أنّ مجرد الفكر السليم والفطرة التي فطر الناس عليها يدفعان بالإنسان مهما بلغ من الجحود والعناد إلى الاعتراف والاقتناع بأن شهادة الخالق هي فوق شهادة كل مخلوق كيفما كان : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[1] »[2] .

٤٦ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾[3] يقول :

« ويأخذ كتاب الله في التنبيه على بعض الحقائق الكونية التي تساعد الإنسان على الوصول بنفسه إلى إدراك عقيدة التوحيد الأساسية ، متى أحسن التأمل فيها ، واستخلص العبرة منها :

الحقيقة الأولى : أنه ما من جنس جنس ، ونوع نوع ، وصنف صنف ؛ من أجناس الأحياء وأنواعها وأصنافها إلاّ وله من الخصائص والصفات المشتركة ، والنواميس الثابتة لسائر أطوار حياته ما يجعله ﴿ أمة واحدة ﴾ مشابهة لما في النوع الإنساني نفسه ، من أمم مختلفة الألسنة ومختلفة الألوان ، ولا تقل حكمة الله في بقية خلقه ، وعنايته بتدبير أمره عن عنايته بالإنسان وتدبيره لأمره ، وحكمته في خلقه .

الحقيقة الثانية : أنّ كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها ، وتنوّع أنواعها ، واختلاف أصنافها هو في نهاية الأمر كما في بدايته شيء واحد متماثل ، ونظام واحد متكامل ؛ لأنه انبثق عن خالق واحد ، نفخ فيه الروح ، له الخلق والأمر ، وهو الحي القيوم .

---

(١) سورة الأنعام : ١٩ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (١١٢/٢) .

(٣) سورة الأنعام : ٢٠ .

الحقيقة الثالثة : أنّ الحق ﷻ الذي انفرد بخلق كل شيء قد انفرد أيضاً بتدبير كل شيء ، فما من شيء - صغر أو كبر ، جلّ أو حقر - إلاّ وهو محل العناية الإلهية ، بحيث لا يلحقه أدنى تفريط ولا إهمال ، ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾[1] ، وما من جزء من أجزاء الكون إلاّ وهو يسير إلى مصيره المحتوم ، وفق تدبير محكم ونظام مرسوم ، لا يتخلف عنه قلامة ظفر ، فمشيئة الله هي القانون الحتمي الأول ، وتدبير الله هو القانون الحتمي الأخير .

وبديهي أنّ إدراك هذه الحقائق الثلاث كافٍ لأن يجعل من له أدنى مسكة من العقل ، وأقل حظ من التفكير ، وأبسط نصيب من الملاحظة مؤمناً بالله من أعماق قلبه حق الإيمان ، بعيداً كل البعد عن الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان))[2] .

٤٧ــ وأكّد هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ... ﴾[3] بقوله :

((ورغماً عن وضوح الحجة وسلامة البرهان على أنّ الله الذي يرزق عباده هو الذي يستحق عبادتهم وطاعتهم ، ومن عبده هو الذي يكون على هدى ، وأنّ من لا تأثير له في خلق ولا رزق ، ولا شرك له في السماوات والأرض ينبغي أن يهمل ويسقط من الحساب ، ومن عبده هو الضال المضلّ ...))[4] .

ومما سبق يتبيّن خطأ وضلال من أضنوا أنفسهم وبذلوا جهدهم ، وأفنوا أعمارهم لتقرير توحيد الربوبية على أنه الذي جاءت به الرسل أممها[5] دون

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٢/١٢٢-١٢٣) .

(٣) سورة سبأ : ٢٤ .

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٥/١٩٠) .

(٥) كما يقول به المتكلمون . انظر : أصول الدين للبغدادي (ص١٢٣) ، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي (ص١٢٤) .

سواه ، إذ إنه من المتقرر في الفطر معرفة الله ﷻ ، ودلائل ربوبيته ﷻ واضحة في كل شيء ، فالبعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وهذا الكون بما فيه من النظام البديع المحكم كله يدل عليه ﷻ ، ولهذا كان إقرار الخلق بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته(١) .

يوضّح ذلك : أنّ مبدأ الانحراف - الذي وقعت فيه البشرية عبر التاريخ - عن حقيقة التوحيد لم يكن شركاً في الربوبية ، بل كان شركاً في الألوهية في الغالب ، وهكذا كل انحراف إنما وقع عن طريق الانحراف في العبادة . قال تعالى - عن قوم نوح - : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾(٢) .

والعرب كانت على بقية من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ حتى جاء عمرو بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة ، فنصب هبل وعبده وعظّمه ، وتبعه الناس في ذلك(٣) .

وقد بيّن القرطبي أنّ شهادة أن لا إله إلاّ الله تعني عبادة الله وحده دون سواه ، ولم يذكر قول المتكلمين الذين جعلوا معناها : أي لا خالق ولا موجود إلاّ الله !

قال - عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه ﷺ : ((**بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله ...**)) - :

((قد روي من طرق ؛ ففي بعضها : ((**شهادة أن لا إله إلاّ الله**)) ، وفي بعضها : ((**على أن تعبد الله وتكفر بما دونه**)) ، فالأولى نقل للفظ ، والأخرى نقل

---

(١) انظر شرح الطحاوية (٢٤) ، وتطهير الجنان (٥) .

(٢) سورة نوح : ٢٣ .

(٣) فتح الباري (٣٨٣/٨) ، وشرح الطحاوية (٢٦) ، وصيانة الإنسان (٤٦٥) .

بالمعنى))[1] .

وقال في موضع آخر : ((من مات لا يتخذ معه شريكاً في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة دخل الجنة))[2] .

وقد تبين مما سبق رد القرطبي على المتكلمين في (مسألة أول واجب على العبد) ، وتشنيعه عليهم فيما ذهبوا إليه ، وبين أنّ أول الواجبات النطق بكلمة التوحيد عند شرحه لحديث معاذ رضي الله عنه .

---

(١) المفهم (١/١٦٩) .

(٢) المفهم (١/٢٩٠) .

الباب الثاني

العبـــــــادة

وفيه فصلان :

الفصل الأول : تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا

الفصل الثاني : أنواع العبادة وشروط صحتها ، وفيه ثلاثة مباحث :

- **المبحث الأول : الأنواع الباطنة** ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : المحـــبّة

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

المسألة الثالثة : التوكل

المسألة الرابعة : الصبر

المسألة الخامسة : التوبة

- **المبحث الثاني : الأنواع الظاهرة** ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : الذكر

المسألة الثانية : الدعاء

المسألة الثالثة : الذبح

المسألة الرابعة : النذر

المسألة الخامسة : الطواف

- **المبحث الثالث : في شروط صحة العبادة عند المالكية**

الفصـل الأوّل

تعريف العبادة لغةً واصطلاحًا

العبادة في اللغة :

قال في المعجم الوسيط : عَبَد الله عبادةً وعبوديةً : انقاد له ، وخضع وذلّ . والعبادة هي الخضوع للإله على وجه التعظيم(١) .

وقال الجوهري : « العبادة الطاعة والتعبد والتنسّك .. وأصل العبودية الخضوع والذلّ .

وقال ابن الأنباري : فلان عابد ، وهو الخاضع لربه ، المستسلم لقضائه ، المنقاد لأمره »(٢) .

وقال الراغب الأصفهاني : « العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلّل »(٣) .

وقال القرطبي : « أصل العبودية الخضوع والذلّ ، والتعبيد التذليل »(٤) .

وقال الشيخ محمّد الأمين : « العبادة لغةً الذلّ والخضوع ، فكل مذلل معبّد ، ومنه قيل للرقيق عبد »(٥) .

فمعاني العبادة في اللغة تدور حول التذلل والخضوع .

---

(١) المعجم الوسيط (٥٧٩) حرف العين . ط. المكتبة الإسلامية – إستنبول ، تركيا .

(٢) تهذيب اللغة (٢/٢٣٦) .

(٣) المفردات في غريب القرآن (٣١٩) . ط. دار المعرفة – بيروت .

(٤) تفسير القرطبي (١٧/٥٦) .

(٥) معارج الصعود (٤٠–٤١) .

العبادة في الاصطلاح :

تقدّم – عند الكلام على معنى التوحيد – أنّ المراد به إفراد الله بالعبادة التي هي حقّ الله على العباد ، كما في حديث معاذ ﷺ قال : ((كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي ... الخ))(١) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد))(٢) . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾(٣) .

قال القرطبي : ((المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلاّ ليوحّدون))(٤) .

أما من لم يوحد الله تعالى من الكفرة فإنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم ؛ لأن قضاءه جار عليهم لا يمتنعون منه إذا نزل بهم ، كما قال ابن عباس في الآية : ((وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ لعبادتنا والتذلل لأمرنا))(٥) .

فبين أنّ العبادة والتوحيد بينهما ارتباط وثيق ، فالعبادة هي ذات القربة ، وأما توحيد العبادة فالمراد صرفها لله وحده لا شريك له ، مما يبيّن أهمية الكلام عن العبادة كما سيأتي .

وقد ذكر علماء المالكية عدة تعريفات للعبادة متقاربة المعاني ، وقبل ذكر أقوالهم ينبغي التنبيه على أنّ العبادة تطلق باعتبارين :

الأول : من جهة نوع ما يتعبد به ، وهي فعل الأمر وترك النهي .

الثاني : من جهة فعل العبد ، وهو الخضوع والذلّ .

---

(١) تقدّم تخريجه ص٦٨ .

(٢) درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين في علم التوحيد (٣٠٠) ، الرسالة الثانية عشرة ضمن رسائل عبدالله بن سعدي الغامدي بعنوان : عقيدة الموحدين . مكتبة الطرفين ، ط. الأولى ١٤١١هـ .

(٣) سورة الذاريات : ٥٦ .

(٤) تفسير القرطبي (١٧/٥٥) .

(٥) تفسير الطبري (١١/٤٧٦) .

وكلاهما تضمّنه كلام المالكية فيما يلي :

فقد خرج الإمام مالك في موطّئه حديث الرجل الذي رآه النبي ﷺ قائمًا في الشمس ، فقال : ((**ما بال هذا ؟**)) . فقالوا : نذر ألاّ يتكلّم ، ولا يستظلّ من الشمس ، ولا يجلس ، ويصوم . فقال رسول الله ﷺ : ((**مروه فليتكلّم ، وليستظلّ ، وليجلس ، وليتمّ صيامه**))(١) .

١ـــ ثم قال مالك : ((ولم أسمع أنّ رسول الله ﷺ أمره بكفارة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يتمّ ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصيةً))(٢) .

فبيّن الإمام مالك أنّ معنى العبادة : الطاعة ، التي هي فعل الأمر وترك النهي ، وهو ما أشار إليه بقوله : إن النبي ﷺ أمره بفعل ما كان لله طاعة ، وترك ما كان لله معصية .

وعلى ذلك عرّف أبو العباس القرطبي العبادة بقوله :

٢ـــ ((وعبادة الله إنما هي امتثال أوامره الواجبة والمندوبة ، واجتناب نواهيه المحظورة والمكروهة))(٣) .

وفي موضع آخر قال : ((أصل العبادة الخضوع والتذلل ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى))(٤) .

فسمى تلك الأوامر والنواهي وظائف هنا ، وأفصح عن حقيقة العبادة بأنها الخضوع والتذلل .

٣ـــ وقال ابن عطية – في تفسير قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٥٨٥/١١) برقم (٦٧٠٤) .

(٢) موطأ مالك ، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله (٣٧٨/٢) برقم (٦) .

(٣) المفهم (٨٦/٤) .

(٤) المفهم (١٨١/١) .

سدى ﴾[1] – : « معناه : مهملاً لا يؤمر ولا ينهى »[2] .

٤ـــ وزاد الأمر وضوحًا قوله :

« نعبد : نقيم الشرع والأوامر ، مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له معبّد ، وكذلك البعير . قال طرفة :

تباري عتاقًا ناجياتٍ وأتبعتْ وظيفًا وظيفًا فوق مورٍ مُعبَّد »[3] .

وإقامة الشرع تكون بفعل المأمور واجتناب المحظور ، وهو حقيقة العبادة .

٥ـــ وقال محمّد الأمين – عند قول الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ – :

« إلاّ لآمرهم بعبادتي وأبتليهم ، أي : أختبرهم بالتكاليف ، ثم أجازيهم على أعمالهم ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ »[4] .

٦ـــ وأفصح عن هذا المعنى بقوله :

« التقرّب إلى الله جلّ وعلا بامتثال ما شرع وأمر به واجتناب ما نهى عنه على وجه الخضوع والذلّ والمحبّة »[5] .

وتعريفه رحمه الله من التعريفات الجامعة التي تشمل جميع أفراده ؛ فامتثال الأمر واجتناب النهي مع الإتيان بركني العبادة – كمال الذلّ مع كمال المحبّة – هو حقيقة العبادة .

٧ـــ وقال الباجي : « العبادة : هي الطاعة والتذلّل لله تعالى باتباع ما

---

(١) سورة القيامة : ٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز (٢٢٦/١٥) .

(٣) المحرر الوجيز (١١٥/١) . وقائل البيت هو طرفة بن العبد ، شاعر جاهلي . "شرح المعلقات" (٤٣) .

(٤) أضواء البيان (٦٧٣/٧) .

(٥) معارج الصعود (٤١) .

شرع))[1] .

وطاعته باتباع ما شرع إنما تكون بفعل ما أمر وترك ما نهى .

٨ـــ ونحوه قول ابن العربي :

((والعبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره))[2] .

٩ـــ وقال القرافي :

((أمرنا سبحانه أن نظهر الذلّ والانقياد لجلاله))[3] .

ومراده الانقياد لأمره ونهيه ، وهو معنى العبادة .

١٠ـــ وأما القرطبي فقال :

((وحقيقة العبادة : الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقّها أحد سوى المالك المعبود))[4] .

١١ـــ وقال الخرشي :

((العبودية : إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقّها إلاّ من له غاية الإفضال ، وهو الله سبحانه))[5] .

وهذا التعريف – والذي قبله – فيه بيان استحقاق العبادة لله وحده .

١٢ـــ وأشار لهذا المعنى ابن عاشور ، فقال :

((ولما كان التذلل والخضوع إنما يحصل عن صدق اليقين كان الإيمان بالله

---

(١) الحدود للباجي (٥٧) . ط. دار الآفاق الجديدة ، ط. الأولى – القاهرة ، مصر ١٤٢٠هـــ .

(٢) عارضة الأحوذي (٧١/١١) .

(٣) الذخيرة (١٨٩/٢) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣٠/١١) .

(٥) الخرشي على مختصر سيدي خليل (١٣/١) . دار صادر – بيروت .

وتوحيده بالإلهية مبدأ العبادة ؛ لأنّ من أشرك مع ا لمستحقّ ما ليس بمستحق فقد تباعد عن التذلل والخضوع له))[1] .

١٣ــ وفي موضع آخر قال :

((العبادة تعرف بأنها فعل ما يرضي الربّ من خضوع وامتثال واجتناب ، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربّه))[2] .

فذكر امتثال الأمر واجتناب النهي إرضاءً لله تعالى ، وهذه حقيقة العبادة .

١٤ــ ونحو ذلك ما ذكره ابن باديس بقوله :

((العبادة : نهاية الذلّ والخضوع ، مع الشعور بالضعف والافتقار ، وإظهار الانقياد والامتثال ، ودوام التضرّع والسؤال))[3] .

وبالجملة : فأئمة المالكية قد عُنوا بحدّ العبادة ، وجاءت تعريفاتهم متقاربة يجمعها وصف العبادة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي على وجه التذلل والخضوع والمحبّة للمعبود ﷻ ، سواء كانت قولية أو فعليةً أو قلبيةً .

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٢٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١/١٨٠) .

(٣) تفسير ابن باديس (٦٢) .

الفصل الثاني

أنواع العبادة وشروط صحتها

وفيه ثلاثة مباحث :

- **المبحث الأول** : الأعمال الباطنة
- **المبحث الثاني** : الأعمال الظاهرة
- **المبحث الثالث** : شروط صحة العبادة

المبحث الأول

الأعمال الباطنة

وفيه المسائل الآتية :

المسألة الأولى : المحبة

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

المسألة الثالثة : التوكل

المسألة الرابعة : الصبر

المسألة الخامسة : التوبة

المسألة الأولى : المحبّة

تقدّم الكلام على معنى العبادة وأنّ لها ركنين هما : كمال الذلّ مع كمال المحبة ؛ فالعبد محبّ خاضع لمولاه .

وقد دلّ كتاب الله ﷻ وسنة نبيّه عليه الصلاة والسلام على هذا الأصل :

قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ... ﴾[3] .

وخرّج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال : « **ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار** »[4] .

---

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٦٥ .

(٣) سورة المائدة : ٥٤ .

(٤) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١/٦٠) برقم (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/٦٦) برقم (٤٣) .

وفي البخاري وغيره أنّ رجلاً كان يؤتى به إلى النبي ﷺ قد شرب الخمر ، فقال رجل : اللهم العنهُ ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله ﷺ : ((**لا تلعنه ؛ فإنه يحبّ الله ورسوله**))[1] .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ((**ما أعددت لها ؟**)) . قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ؛ ولكني أحب الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : ((**أنت مع من أحببت**)) . قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قوله : ((**أنت مع من أحببت**))[2] .

فهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة ، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها أنّ الله سبحانه وتعالى محبوب لذاته محبّةً حقيقيةً ، بل هي أكمل محبّة ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾ .

وكذلك هو سبحانه يحبّ عباده المؤمنين محبّةً حقيقيةً ، إلاّ أنّ الجهمية المبتدعة أنكرت حقيقة المحبة بين الخالق والمخلوق ، وتبعهم على ذلك طوائف من المتكلمين ، وزعموا أنّ المحبة لا تكون إلاّ لمناسبة بين المحبّ والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدَث توجب المحبّة[3] .

---

(١) فتح الباري (٧٥/١٢) ، كتاب الحدود ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، برقم (٦٧٨٠) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٤٤/٧) برقم (٣٦٨٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب المرء مع من أحب (٢٠٣٢/٤) برقم (٢٦٣٩) .

(٣) أول من ابتدع هذا الكلام هو الجعد بن درهم ، وقتله خالد بن عبدالله القسري على تلك المقالة . وخرّج البخاري في خلق أفعال العباد (ص٧) بسنده عن حبيب بن أبي حبيب قال : شهدت خالد بن عبدالله القسري بواسط في يوم أضحى ، وقال : ارجعوا فضحّوا تقبل الله منكم فإني مضحّ بالجعد بن درهم ؛ زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله علوًّا كبيراً عما يقول ابن درهم . ثم نزل فذبحه . وكذا ذكره الآجري (٩٧) ، والبيهقي (٢٠٥/١٠-٢٠٦) ، والبخاري في خلق أفعال العباد . ط. مؤسسة الرسالة ، ط. الأولى ١٤٠٤هـ .

ثم أخذ المذهب عنه الجهم بن صفوان ، وقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان ، ثم بعد ذلك أخذ المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد تلك المقالة ، واشتهرت في زمن المأمون .

قال شيخ الإسلام : « وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ، ومبتدعة أهل الكتاب ، الذين يزعمون أنّ الربّ ليس له صفة ثبوتية أصلاً ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، الذي قال الله عنه : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾(١) ...

فمن أنكر أن يحبّ الله أحداً من عباده فإنه يعني إنكار أن يتخذ الله خليلاً لنفسه ، بحيث يحبّ الله عبده ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد ، كما أنّ إنكار محبة الله لأحد من عباده يستلزم إنكار مشيئته ، وهو يستلزم إنكار كونه ربًّا خالقاً ، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه ربّ العالمين ، ولكونه إله العالمين ، وهذا قول أهل التعطيل والجحود . ومن المعلوم أنّه قد دلّ الكتاب والسنّة ، واتفق سلف الأمة على أنّ الله يحبّ ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحبّ ، ويحب من التزم ذلك الواجب والمستحبّ »(٢) .

وعلى هذا نصّ أئمة المالكية في إثبات المحبّة للخالق تبارك وتعالى ، وكلامهم في ذلك على النحو التالي :

أولاً : إثبات محبة العبد لله عز وجل ، وبيان وجوهها .

ثانياً : البرهان على محبة العبد لله تعالى .

---

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) محبة الله والحبّ بين العبد والربّ لشيخ الإسلام (٥٢-٥٣) .

أولاً : إثبات محبة العبد لله ﷻ وبيان وجوبها

١ــ من ذلك ما ذكره مالك رحمه الله أنّ أقرب العلماء قرب رضا ومحبة إلى الله ﷻ وأولاهم به أكثرهم له خشيةً ، أي : خوفاً[1] .

فمراد مالك أنّ العلماء هم أهل الخشية والمحبة لله ﷻ ، وفي ذلك إثبات محبة العبد لله تعالى ، قال بعض السلف : « من كان بالله أعرف كان منه أخوف »[2] ، والمحبّة ثمرة المعرفة .

وخرج الإمام مالك أحاديث تدلّ على إثبات محبة الله ﷻ :

٢ــ منها ما رواه بسنده عن أنس بن مالك ﷺ أنّ أعرابيًّا أدرك النبي ﷺ فقال : متى تقوم الساعة ؟ فقال : « **وما أعددت لها ؟** » . قال : لا شيء ؛ والله لإني قليل الصلاة ، قليل الصيام ، إلاّ أني أحب الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « **فإنك مع من أحببت** »[3] .

فرواية مالك لهذا الحديث تبيّن اهتمامه وحرصه على بيان تلك المحبة بين الخالق والمخلوق .

٣ــ وبيّن ابن بطال وجوب إخلاص المحبة لله ﷻ ورسوله ، وتقديمها على كلّ شيء ، فقال :

« ... وذلك أنّ الرجل إذا تذكر سالف أيادي الله[4] وأيادي رسوله ﷺ ، وما

---

(١) كفاية الطالب (٦٦٣/٢) . ط. دار الفكر - بيروت ١٤١٢هـ .

(٢) خرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة قال : حدثنا أبو حاتم الرازي ، ثنا أحمد بن أبي الحواري ، قال : سمعتُ أحمد بن عاصم الأنطاكي يقول : فذكره . قال أحمد : صدق والله . (٧٢٨/٢) برقم (٧٨٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الإمام أحمد رحمه الله (٤٨٧/١) برقم (٧٩٣) ، وعن الجنيد (٥٠٤/١) برقم (٨٥١) .

(٣) البيان والتحصيل (٢٣٢/١٧) . والحديث متفق عليه مع الاختلاف في بعض الألفاظ وقد سبق تخريجه .

(٤) ومعنى قوله هنا : « سالف أيادي الله .. » أي : نعم الله ، وهذا يتضح من سياق الكلام . وأهل =

منّ عليه أن هداه للإسلام وأنقذه من الضلالة ، وعرفه الأسباب التي توخيه إلى النجاة من عذاب الأبد والخلود في جهنم ، وغير ذلك من النعم التي وصلت إليه به ، مما لا كفاء لها ولا استحقها من الله لسابقة تقدمت منه إلاّ بفضله تعالى ؛ وجب أن يخلص المحبة لله ولرسوله فوق كل شيء من جميع المحابّ))[1] .

٤ــ وجعل ابن رشد المحبة ثمرة من ثمار العلم بالله وصفاته ، فقال :

((... ومن عرف أنّ جميع النعمة منه أحبّه ، وأثمرت المحبة آثارها المعروفة))[2] .

٥ــ وبين ابن عطية وجوب محبة الله ﷻ ، حيث قال :

((ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه ، وتكون أعماله بحسب إقبال النفس))[3] .

٦ــ ثم وصف حال المؤمنين بأنهم أشدّ حبًّا لله لإخلاصهم وتيقنهم الحق[4] .

٧ــ وذكر القاضي عياض أنّ المحبة تترتب على العلم به سبحانه فيما أورده عند حديث : ((**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ...**)) :

((وحبّ العبد له على قدر معرفته لجلاله وكمال صفاته وتقدسه عن النقائص ، وفيض إحسانه ، وأنّ الكل منه ، وكل جمال وجلال فمضاف إليه ، وكل فضل وإجمال فمن بسط يديه ، لا إله غيره))[5] .

ومراده أنه كلما قوي العلم بالله ازدادت خشيته التي هي سبيل لتعظيمه ومحبته

= السنة والجماعة يثبتون اليدين لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، كما قال تعالى : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجُد لما خلقتُ بيدَي ﴾ .

(١) شرح صحيح البخاري (٦٨/١) .

(٢) فتاوى ابن رشد (١٦٢٥/٣) . ط. دار الغرب .

(٣) المحرر الوجيز (٨٠/٣-٨١) .

(٤) المحرر الوجيز (٥٥/٢) .

(٥) إكمال المعلم (٢٧٨/١) .

تعالى في النفوس ، قال القرطبي : ((فالمحبة ثمرة المعرفة ؛ فتقوى وتضعف بحسبها))[1].

٨ـــ ثم بيّن لازم تلك المحبة بقوله :

((ومن محبته ومحبة رسوله التزام شريعته ووقوفه عند حدوده ، ومحبة أهل ملته ، وهو تمام محبته))[2] .

٩ـــ وأما أبو عبدالله القرطبي فقد نصّ على إجماع الأمة على وجوب محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ ، فقال – عند قول الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[3] – :

((في الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وأنّ ذلك مقدم على كلّ محبوب))[4] .

ثم بين أنّ محبة العبد لله تعالى مترتبة على محبة الله ﷻ للعبد ، فقال – عند قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾[5] – :

١٠ـــ ((لأنّ الله تعالى أحبهم أولاً ، ثم أحبوه ، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم ، قال الله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[6]))[7] .

---

(١) انظر المفهم (٢٢٧/١) .

(٢) إكمال المعلم (٢٧٩/١) .

(٣) سورة التوبة ٢٤ .

(٤) تفسير القرطبي (٩٥/٨) .

(٥) سورة البقرة ١٦٥ .

(٦) سورة المائدة ٥٤ .

(٧) تفسير القرطبي (٢٠٤/٢) .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون العبد المؤمن محبًّا لله والله تعالى غير محبّ له[1] ، بل بقدر محبة العبد لربه ﷻ يكون حبّ الله له ، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : « **إن الله تعالى يقول : من تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا ، ومن تقرّب إليّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً** »[2] .

١١ـــ وأثبت أبو العباس القرطبي جواز إضافة المحبة لله تعالى ، وإطلاقها عليه محبًّا ومحبوباً[3] ، كما قال تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه ﴾[4] ، ثم بين أنّ بعض المتكلمين قد تأوّل محبة العبد لله تعالى بالإرادة ، والإرادة إنما تتعلق بالحادث لا بالقديم[5] ، ومنهم من قال : لأن محبتنا إنما تتعلق بمستلذّ محسوس ، والله منـــزّه عن ذلك ، وهؤلاء تأولوا محبة العبد لله بطاعته له وتعظيمه إياه وموافقته له على ما يريده منه ، ثم قال :

« وأما أرباب القلوب ؛ فمنهم من لم يتأول محبة العبد لله تعالى حتى قال : المحبة لله تعالى هي الميل الدائم بالقلب الهائم[6] . وقال أبو القاسم القشيري[7] : أما محبة

---

(١) أي المحبة الصادقة الخالصة من أهل الإيمان ، لا من الأحبار والرهبان ، كما قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية ﴾ .

(٢) خرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه﴾ (١٣/٣٨٤) برقم (٧٤٠٥).

(٣) فهو وإن أثبت إضافة المحبة لله تعالى إلاّ أنه قال بالتأويل كغيره من المتكلمين حيث يقول : « ولا يختلف النظار من أهل السنة وغيرهم أنها مؤولة في حق الله تعالى » . انظر المفهم (١/٢١٢) .

(٤) سورة المائدة : ٥٤ .

(٥) وبقولهم هذا أنكروا خاصية الإلهية وخاصية العبودية ، والأدلة تثبت محبة العبد لربه والرب لعبده ، فهم في الحقيقة أنكروا خاصة الخلق والأمر ، والغاية التي وجدوا لأجلها ؛ فإن الخلق والأمر والثواب والعقاب إنما تنشأ عن المحبة ولأجلها ، وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض ، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي ، وهي سر التأليه وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلاّ الله .

(٦) هذا الحدّ للمحبة لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة ، والصحيحة والمعلولة .

(٧) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القشيري ، أشعري صوفي صنف كتبًا ، منها : نحو القلوب ، ولطائف الإشارات ، والجواهر ، والمناجاة . مات سنة ٤٦٥هـــ .
انظر : تاريخ بغداد (١١/٨٣) ، والسير (١٨/٢٢٧) ، ووفيات الأعيان (٣/٢٠٥) .

العبد لله تعالى فحالة يجدها العبد من قلبه ، تلطف عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم لله تعالى وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه وعدم الفرار عنه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره »..

١٢ــ ثم أفصح عن حقيقة محبة العبد لله تعالى فقال :

« فهؤلاء قد صرّحوا بأن محبة العبد لله تعالى هي ميل من العبد وتوقان ، وحال يجدها المحب من نفسه من نوع ما يجده في محبوباته المعتادة له[1] ، وهو صحيح . والذي يوضحه : أنّ الله تعالى قد جبلنا إلى الميل إلى الحسن والجمال والكمال ، فبقدر ما ينكشف للعاقل من حسن الشيء وجماله مال إليه ، وتعلّق قلبه به ، حتى يفضي الأمر إلى أن يستولي ذلك المعنى عليه ، فلا يقدر على الصبر عنه ، وربما لا يشتغل بشيء دونه . ثم الحسن والكمال نوعان : محسوس ، ومعنوي .

فالمحسوس كالصور الجميلة المشتهاة لنيل اللذة الجسمانية ، وهذا في حقّ الله تعالى محال قطعًا[2] .

أما المعنوي فكمن اتّصف بالعلوم الشريفة ، والأفعال الكريمة ، والأخلاق الحميدة ؛ فهذا النوع تميل إليه النفوس الفاضلة والقلوب الكاملة ميلاً عظيماً ، فترتاح لذكره ، وتنعم بخُبره[3] وخَبره ، وتهتز لسماع أقواله ، وتتشوف لمشاهدة أحواله ، وتلتذّ بذلك لذّة روحانية لا جسمانية ، كما تجده عند ذكر الأنبياء والعلماء

---

(١) يريد أنها محبة حقيقية وإن لم تكن مثل محبة المخلوق للمخلوق ، فإن محبة المؤمن لربه فوق محبته لجميع المحبوبات ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبًّا لله ﴾ .

(٢) إن أراد في الدنيا فنعم ؛ لأنّ العباد لن يروا ربهم في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم ، ولذة نظرهم إلى وجهه الكريم فوق كلّ لذّة يجدونها في الجنة ، وفي الدعاء المأثور : « **وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم** » . ولذّة نظرهم ناشئة عن كمال محبتهم ، وكمال جلاله وجماله .

وحديث « **النظر إلى وجهك** » خرجه النسائي (٣/٥٤-٥٥) في السهو ، باب نوع آخر (يعني من الدعاء بعد الذكر) ، واللالكائي رقم (٨٤٥) ، وصححه الحاكم (١/٧٠٥) ، وقال الأرنؤوط : إسناده قوي . انظر : صحيح ابن حبان (٥/٣٠٥) في الحاشية .

(٣) قوله (بخُبره) أي : بمعرفتها له .

والفضلاء والكرماء من الميل واللذة والرقة والأنس ، وإن كنا لا نعرف صورهم المحسوسة ، وربما قد نسمع أنّ بعضهم من غير الأنبياء قبيح الصورة الظاهرة أو أعمى أو أجذم ، ومع ذلك فذلك الميل والأنس والتشوق موجود لنا .

ومن شكّ في وجدان ذلك أو أنكره كان عن جبلة الإنسانية خارجًا ، وفي غمار المعتوهين والجاً .

وإذا تقرر ذلك ؛ فإذا كان هذا الموصوف بذلك الكمال قد أحسن إلينا ، وفاضت نعمه علينا ، ووصلنا ببره وعطفه ولطفه ؛ تضاعف ذلك الميل ، وتجدد ذلك الأنس حتى لا نصبر عنه ، بل يستغرقنا ذلك الحال إلى أن نذهل عن جميع الأشغال ، بل ويطرأ على المشتهر بذلك نوع اختلال(1) ، وإذا كان ذلك في حق من كماله وجماله مقيداً مشوباً بالنقص ، معرضاً للزوال كان من كماله وجماله واجباً مطلقاً لا يشوبه نقص ، ولا يعتريه زوال ، وكان إنعامه وإحسانه أكثر ، بحيث لا ينحصر ولا يعد أولى بذلك الميل ، وأحق بذلك الحب . وليس ذلك إلاّ لله وحده ، ثم لمن خصه الله بما شاء من ذلك الكمال ، وأكمل نوع الإنسان محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فمن تحقق ما ذكرناه واتصف بما وصفناه كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . ومن كان كذلك تأهل للقائهما بالاتصاف بما يرضيهما واجتناب ما يسخطهما ، ويستلزم ذلك كله الإقبال بالكلية عليهما والإعراض عما سواهما إلاّ بإذنهما وأمرهما))(2) .

فما قرره أبو العباس من إثبات محبة العبد لله تعالى وتركه التأويل الذي يقول به المتكلمون هو الصواب ، وقد سبق أن خالف المتكلمين أيضاً في مسألة أول واجب

---

(1) كأنه يشير إلى ما يحدث لبعض الصوفية من الصعق والغشي من شدة المحبة ، وهو مذموم شرعاً ، وذكره لهذه الحال ليبين أنّ المحبة على حقيقتها ، وأنّ لها أثراً في نفس من عقل حتى ربما أصاب المبالغ في هذا اختلال وهو يريد بذلك الردّ على من أنكرها ، ومما يدل على هذا أنه أجهز على المانعين منها وذمهم ، والله أعلم .

(2) المفهم (1/212-214) .

على المكلف ، واتبع طريقة سلف الأمة في ذلك .

١٣ـــ وبنحو ما قال القرطبي تكلم ابن جزي عن المحبة ، وقسمها إلى درجتين ، وبين ما يجب من ذلك ، فقال :

((اعلم أنّ محبة العبد لربه على درجتين :

إحداهما : المحبة العامة التي لا يخلو منها كل مؤمن ؛ وهي واجبة .

والأخرى : المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون ، والأولياء والأصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ؛ فإن سائر مقامات الصالحين - كالخوف والرجاء والتوكّل وغير ذلك - مبنية على حظوظ النفس[1] ، ألا ترى أنّ الخائف إنما يخاف على نفسه ، بخلاف المحبة ، وأنّ الراجي إنما يرجو منفعة نفسه ، بخلاف المحبة ؛ فإنها من أجل المحبوب ، فليست من المعاوضة)) .

١٤ـــ وفي موضع آخر قال :

((فالتامة لجميع المسلمين ، ولا يصحّ الإيمان إلا بها))[2] .

فجعل المحبة شرطاً لصحة الإيمان .

١٥ـــ ثم بيّن أن معرفة الله ﷻ هي السبيل الموصل إلى محبته سبحانه ، فقال :

((واعلم أنّ سبب محبة الله معرفته ، فتقوى المحبة على قدر المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ؛ فإن الموجب للمحبة أحد أمرين ، وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال :

---

(١) وهذا الكلام فيه نظر ؛ إذ إن الخوف والرجاء والتوكل والمحبة كلها من العبادات القلبية ، لا كما قال : ((مبنية على حظوظ النفس)) ! وكلامه هذا خطأ ظاهر ، قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وبهذا يعلم بطلان مقولة الصوفية : ((ما عبدنا الله طمعاً في جنّته ، ولا خوفاً من ناره ، بل محبة له)) ! لو لم يكن في الردّ عليهم إلاّ قول الله ﷻ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ لكان كافياً .

(٢) القوانين الفقهية (٤٦٨/١) .

الموجب الأول : الحسن والجمال . والآخر : الإحسان والإجمال .

فأما الجمال فهو محبوب بالطبع ؛ فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يستحسن.

والإجمال : مثل جمال الله في حكمته البالغة ، وصناعته البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار ، التي تروق العقول وتهيج القلوب ، وإنما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار[١] .

وأما الإحسان : فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامه عليهم باطن وظاهر ، ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٢] ، ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه ، وهو المستحقّ للمحبة وحده))[٣] .

١٦ــ ثم أفصح عن أثر تلك المحبة بقوله :

((واعلم أنّ محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح ؛ من الجدّ في طاعة الله والنشاط لخدمته ، والحرص على مرضاته ، والتلذّذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق إلى لقائه ، والأنس بذكره ، والاستيحاش من غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد في الخلوات[٤] ، وخروج الدنيا من القلب ، ومحبة كل من يحبه الله ، وإيثاره على كل ما سواه))[٥] .

---

(١) وهذا في الدنيا ؛ أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم من غير إحاطة به ﷻ .

(٢) سورة إبراهيم : ٣٤ .

(٣) أشار الأبّي إلى هذا المعنى بعد إيراده الأقوال في محبة العبد لله تعالى . انظر : إكمال إكمال المعلم (١/٢٣٧) .

(٤) وقوله : إن من آثار المحبة ((الاستيحاش من غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد في الخلوات)) فيه نظر ؛ إذ إنّ النبي ﷺ – وهو أشدّ الناس خشية وتعظيماً وحبًّا لله ﷻ – لم ينفرد من الناس ويستوحش منهم ، ويذهب إلى الخلوات ! والخير كل الخير في اتباعه عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

(٥) التسهيل (١/١١٨) .

١٧ــ وأثبت ابن عاشور محبة العبد لله على حقيقتها دون تأويل ، فقال :

« والمحبة : انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية أو إحسان ، أو اعتقاد أنه يجب المستحسن ويجر إليه الخير ؛ فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه ، فيكون المنفعل محبًّا ، ويكون المشعور بمحاسنه محبوبًا ، وتعد الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالاً عند المحبّ »[١] .

وبيّن أنّ هذا الحسن الموجب للمحبة يستمد من الحواسّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال ، ويستمد أيضاً من التفكّر في الكمالات المستدل عليها بالعقل ، وهي المدعوة بالفضيلة ، وكذلك يحب المؤمنون الله تعالى ، ويحبون النبي ﷺ تعظيماً للكمالات ، واعتقاداً بأنهما يدعوانهم إلى الخير ، ويحب الناس أهل الفضل الأولين كالأنبياء والحكماء والفاضلين ، ويحبون سعاة الخير من الحاضرين ، وهم لم يلقوهم ولا رأوهم[٢] .

١٨ــ وردّ قول المتكلمين : (إنّ المحبة والجمال مقصورة على المحسوسات) قائلاً :

« فالذين قصروها على المحسوسات لم يثبتوا غير المحبة المادية ، والذين لم يقصروها عليها أثبتوا المحبة الرمزية ؛ أعني المتعلّقة بالأكوان غير المحسوسة ، كمحبة العبد لله تعالى ؛ وهذا هو الحقّ » .

١٩ــ وأكّد قوله السابق بقوله :

« فإننا نسمع بصفات مشاهير الرجال ، مثل الرسل وأهل الخير والذين نفعوا

---

(١) التحرير والتنوير (٣/٢٢٥) .

(٢) انظر المرجع نفسه (٣/٢٢٥) .

الناس ، والذين اتصفوا بمحامد الصفات ، كالعلم والكرم والعدل ، فنجد من أنفسنا ميلاً إلى ذكرهم ثم يقوى ذلك الميل حتى يصير محبة منا إياهم ، مع أننا ما عرفناهم ، ألا ترى أنّ مزاولة كتب الحديث والسيرة مما يقوي محبة المزاول في الرسول ﷺ ، وكذلك صفات الخالق تعالى لما كانت كلها كمالات وإحساناً إلينا وإصلاحاً لفاسدنا ، أكسبنا اعتقادها إجلالاً لموصوفها ، ثم يذهب ذلك الإجلال يقوى إلى أن يصير محبة . وفي الحديث : « **ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلاّ لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** »(1) ، فكانت هذه الثلاثة من قبيل المحبة ، ولذلك جعل عندها وجدان حلاوة الإيمان ، أي وجدانه جميلاً عند معتقده »(2) .

٢٠ــ وأثبت الميلي محبة العبد لله تعالى مستدلاً على ذلك بآية التوبة وحديث : « **ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ...** » . ثم بيّن أنّ « محبة غير الله إما أن تكون في الله أو مع الله ؛ فالمحبة في الله أن يحب من يحبه الله ، والله يحب المحسنين ، والمتقين ، والتوابين ، والمتطهرين ، وإذن تكون محبة غير الله من معنى محبة الله مقوية لها ، غير متنافية معها . والمحبة مع الله أن يتعلق قلبك بسواه ، فتغفل عن الله ، وتتوجّه إلى غيره بالرغبة والرهبة ، فستكون محبتك هذه مغنية عن محبة الله منافية لها .

فالمحبة في الله محمودة متعدية إلى كل داع إلى الله ؛ من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، والعلماء العاملين ... والمحبة مع الله ذميمة حاملة لكل ما في الشرك من مساوئ وأضرار »(3) .

وذكر أنّ المؤمن يحب الله لما يعلم له من الحق المقدم على سائر الحقوق ، فقال :

« من استكمل الإيمان علم أنّ حق الله ورسوله آكد عليه من حقّ أبيه وأمه ،

---

(1) سبق تخريجه ص١٩٧ .

(2) التحرير والتنوير (٣/٢٢٧) .

(3) رسالة الشرك ومظاهره (١٨٠) .

ووالده وزوجه ، وجميع الناس ؛ لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله ، ومن علامات محبته نصر دينه ، والفعل والذب عن شريعته))[1] .

٢١ـــ وذكر محمّد المكي الناصري أنّ محبة العباد وخضوعهم لله ﷻ هو حال المؤمنين الصادقين ، فعند قول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ﴾ قال :

((تتناول الآيات الكريمة في هذا السياق بالوصف والتعقيب طائفة من الناس غلبت عليها روح الانتهازية ، فتجاهلت طاعة الله ومحبته ، ونسيت قضاءه وقدره ، والتزمت بدلاً من ذلك طاعة بعض المخلوقين ، إذ ملأت قلوبها بمحبتهم والخضوع لهم ، ومسايرتهم في أهوائهم ابتغاء مرضاتهم ، فجعلت من هواهم المدخول قانوناً متبعاً ، ومن كلمتهم السفلى كلمةً عليا ، وبذلك كله إقامتهم مقام الأضداد المنافسين ، أو الأشباه المماثلين للحق جل جلاله ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ، ثم عقبت الآية على ذلك بما يوضح البون الشاسع والفرق الكبير بين هذه الطائفة الخاسرة والمؤمنين الخلّص ، فقالت : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾ ، وإذن فلن يستبدلوا بمحبة الله وطاعته طاعة ولا محبة أحد سواه))[2] .

ومراده أنّ محبة العباد لله تعالى وخضوعهم له الذي هو حقيقة العبادة هو المتعين على العباد ، وليس ذلك لأحد سواه من المخلوقين .

---

(١) المرجع نفسه (١٨٠) .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (١/١٠٠) .

ثانيًا : البرهان على محبة العبد لله تعالى

ذكر الله تبارك وتعالى أنّ محبة العباد له ليست مجرّد دعوى من غير دليل يثبت تلك المحبة . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾(١) .

وذكر أهل التفسير الخلاف(٢) في سبب نزول هذه الآية : هل هي في وفد نجران أو في غيرهم ؟

وعلى كل حال ؛ فالآية سواء نزلت في وفد نجران أو في غيرهم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهي تدل على علامة محبة العبد لله ﷻ ، وهي اتباع النبي ﷺ ؛ فلا تنال محبة الله ﷻ إلاّ باتباع نبيه ظاهراً وباطناً ، وتصديقه خبراً ، وطاعته أمراً ، وإجابته دعوة ، وإيثاره طوعاً .

وقد ذكر أئمة المالكية هذه العلامة وغيرها من العلامات الدالة على صدق محبة العبد لله ﷻ ، ومن ذلك :

٢٢ــ ما ذكره ابن بطال عند حديث أنس ﷺ : قال عليه الصلاة والسلام : « **آية الإيمان حبّ الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار** »(٣) وجوب محبة الأنصار ؛ لأنهم جاؤوا بشرط المحبة ، وهو اتباع الرسول ﷺ ، فقال :

---

(١) سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) ذكر هذا الخلاف الطبري (٣/٢٣١) ، وابن عطية (٢/٧٩-٨٠) ، والقرطبي (٤/٦٠) .
قال ابن جرير : « قل - يا محمّد ! - للوفد من نصارى نجران : إن كنتم تزعمون أنكم تحبون الله وأنكم تعظمون المسيح ، وتقولون منه ما تقولون ، حبًّا منكم ربكم ، فحققوا قولكم الذي تقولونه إن كنتم صادقين باتباعكم إياي ، فإنكم تعلمون أني رسول الله إليكم » اهــ .

(٣) خرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب علامة الإيمان حب الأنصار (١/٦٢) برقم (١٧) ، ومسلم باختلاف يسير في اللفظ في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي ﷺ من الإيمان وعلاماته وبغضهم من علامات النفاق (١/٨٥) برقم (٧٤) .

« ... فصح أنّ الأنصار المبتدئون بالبيعة على إعلان توحيد الله وشريعته حتى يموتوا على ذلك ، فحبهم علامة الإيمان ، ومجازاة لهم على حبهم من هاجر إليهم ومواساتهم لهم في أحوالهم كما وصفهم الله تعالى ، واتباعاً بحب الله لهم بقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون اله فاتبعوني يحببكم الله ... ﴾ ، فكان الأنصار ممن اتبعه أولاً ، فوجبت لهم محبة الله ، ومن أحب الله وجب على العباد حبه »[1] .

فبيّن أنّ الطريق لمحبة الله ﷻ هو اتباع النبي ﷺ .

٢٣ـــ وعلى هذا نقل ابن عطية الخلاف الذي مؤداه واحد في سبب نزول الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾[2] .

٢٤ـــ وبنحو ذلك ذكر القرطبي أبو عبدالله عند تفسيره لهذه الآية[3] .

٢٥ـــ وقال أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ﴾ :

« لأنّ الله تعالى أحبهم أولاً ، ثم أحبوه ، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتمّ »[4] .

٣٠ـــ وأما ابن أبي جمرة ، فقد ذكر عند شرحه حديث أبي هريرة : « **... أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ...** » الخ : أنّ محبة الله ورسوله هي أصل كلّ محبة ، وما جاء في بقية الحديث علامات لصدق دعوى تلك المحبة وبرهان عليها ، فقال :

« هذه الثلاثة الألفاظ ترجع إلى اللفظ منها ، وهو أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ؛ لأن من ضرورة المحبة لله ولرسوله أن يدخل من ذكر بعد في ضمنه ،

---

(١) شرح صحيح البخاري (٦٩/١) .

(٢) المحرر الوجيز (٧٩/٢-٨٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٦٠/٤) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣٧/٢) .

لكن فائدة إخباره ﷺ بتينك الحالتين اللتين ذكرتا بعد ذلك اللفظ يريد به أنّ من ادعى حب الله ورسوله ﷺ فليختبر نفسه في حبّ المرء لماذا يحبّه ؟ وفي الإكراه على الكفر كيف يجد نفسه إن ابتلي بذلك ؟ لأنه قد يسبق للنفوس دعاء[1] بحبّ الله وحبّ رسوله ﷺ ، فجعل ﷺ هاتين العلامتين تفرق بين الدعوى والحقيقة ، ومثل هذا قوله ﷻ : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[2] ؛ لأنّ حقيقة الإيمان أن يتوكّل صاحبه في كلّ أموره على ربّه ، ويعتمد عليه وإن كان بغير ذلك فإنما هو دعوى ، وكذلك من ادعى حبّ الله وحبّ رسوله ﷺ ، ثم لم يصدق في تينك العلامتين المذكورتين ، فحبّه دعوى لا حقيقة »[3] .

ولا ريب أنّ من أحبّ الله ورسوله وجب أن تكون سائر أحواله القلبية والقولية والفعلية تابعة لمراد الله ورسوله ؛ فيحب ما أحب الله ، ويكره ما يكره سبحانه ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، فهذه من علامات المحبة الصادقة ولوازمها كما قال ابن عباس : « من أحبّ في الله وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً »[4] .

٣١ـــ وأوضح ابن جزي معنى قول الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله

---

(١) كذا في النص ، ولعل الصواب : « ادعاء » .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

(٣) بهجة النفوس (٢٦/١) .

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفًا ، وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف مختلط .
ورواه أبو نعيم في الحلية (٣١٢/١) عن ابن عمر مرفوعًا ، وفيه أيضًا ليث ، ورواه الطبراني (١٣٥٣٧) وفيه اضطراب .
ويشهد لأوله حديث أبي أمامة عند أبي داود (٤٦٨١) ، وحديث معاذ بن أنس عند أحمد (٤٤٠/٣) والترمذي (٢٥٢١) .

فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ بقوله :

((جعل اتباع النبي ﷺ علامة على محبة العبد لله تعالى ، وشرطاً في محبة الله للعبد ومغفرته له))[1] .

٣٢ــ وبنحو ذلك ما ذكره الشنقيطي في الجمع بين حديث أبي هريرة في قوله : ((**ما سواهما**)) ، وقصّة الخطيب[2] وقوله : ((ومن يعصهما فقد غوى)) بقوله :

((ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصّة الخطيب أنّ تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أنّ المعتبر هو المجموع المركّب من المحبّتين ، لا كلّ واحدة منهما ، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى ؛ فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحبّ رسوله لا ينفعه ذلك ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ، فأوقع متابعة مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد))[3] .

ومراده أنّ محبة العبد لله تعالى ورسوله متلازمتان ، وأنّ البرهان عليها اتباع النبي ﷺ ، وبين ذلك استشهاده بهذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ﴾ .

٣٣ــ وذكر هذا المعنى ابن عاشور عند قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾ فقال :

((وتعليق محبة الله إياهم على ﴿ فاتبعوني ﴾ المعلق على قوله : ﴿ إن كنتم تحبون الله ﴾ ينتظم من قياس شرطي اقتراني ، ويدل على الحبّ المزعوم إذا لم يكن معه اتباع الرسول فهو حبّ كاذب ؛ لأنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع ، ولأنّ ارتكاب ما يكرهه

---

(١) التسهيل (١٨٦/١) .

(٢) حديث الخطيب هذا أخرجه مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنّ رجُلاً خطب عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : ((**بئس خطيب أنت ! قل : ومن يعص الله ورسوله**)) . صحيح مسلم (٥٩٤/٢) برقم (٨٧٠) .

(٣) كوثر المعاني (٥٢٠/١) .

المحبوب إغاظة له وتلبس بعدوّه)) .

وأكّد هذا المعنى بقوله :

((فتعليق لزوم اتباع الرسول على محبة الله تعالى ؛ لأنّ الرسول دعا إلى ما يأمر الله به والى إفراد الوجهة إليه ، وذلك كمال المحبة))(١) .

٣٤ـــ وبيّن الميلي أنّ آيتي المائدة وآل عمران ، وهما : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ... ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ أفادتا ((خمس صفات هي الدلائل على صدق المحبة لله ، وهي : اتباع الرسول ﷺ ، والتراحم مع الإخوان في الدين والشدة على الأعداء فيه ، والقيام بكل ما يؤيد الدين وعدم التقصير في الصدع بالحق مراعاةً للناس))(٢) .

ومما سبق يتلخّص من كلام المالكية ما يلي :

أولاً : أنهم يثبتون محبة العبد لله ﷻ ، وبيانهم عظيم منـــزلتها ووجوبها ، وأنها أصل كلّ محبة ، فكل محبة محمودة كمحبة الأنبياء والملائكة والمؤمنين ، فهي داخلة ضمن محبة الله ﷻ .

ثانياً : أن من البراهين الدالة على محبة العبد لربه اتباع النبي ﷺ ، وأن تكون سائر أحوال العبد منقادة لله ورسوله ، وبهذا تحصل المحبة لله تعالى التي هي من العبادات الباطنة .

---

(١) التحرير والتنوير (٣/٢٢٨) .

(٢) رسالة الشرك (١٨٢) .

المسألة الثانية : الخوف والرجاء

إنّ من أجلّ العبادات القلبية الخوف والرجاء ، إذ بهما يسير المرء إلى الله ﷻ سيراً سويًّا ، فخوفه ووجله من الله يمنعه من معصيته ومخالفة أمره ، ورجاؤه ورغبته تمنعه من القنوط واليأس من رحمة الله ، على أن يكون كما قال مطرف بن عبدالله(1) رحمه الله : ((لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما صاحبه))(2) ، أي : يجعلهما كجناحي الطائر والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط .

وقال سهل بن عبدالله(3) : ((الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ؛ فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر))(4) ، فمن غلب خوفه وقع في نوع من اليأس ، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله .

وقد جاءت النصوص الشرعية مبينة أهمية تلك المنـــزلة القلبية الإيمانية .

قال تعالى – في آل زكريا عليهم السلام – : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾(5) .

وقال تعالى : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو

---

(1) هو مطرف بن عبدالله بن الشخير الحرشي البصري ، كان رأسًا في العلم والعمل ، ومن كبار التابعين ، ثقة له فضل وورع وعقل وأدب ، ولد في حياة النبي ﷺ ، ومات سنة ٩٥هـ .

انظر : تذكرة الحفاظ (١/٦٤) ، والحلية (٢/١٩٨) .

(2) خرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/١٢) برقم (١٠٢٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٠٨) .

(3) هو سهل بن عبدالله بن يونس التستري ، أبو محمّد ، أحد الصوفية وعلمائهم ، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص ، وعيوب الأفعال . له كتاب في تفسير القرآن مختصر ، وكتاب رقائق المحبين ، وغير ذلك . مات سنة ٢٨٣هـ .

انظر : الحلية (١٠/١٨٩) ، وطبقات الصوفية (٢٠٦) .

(4) تفسير القرطبي (١٠/٢٨٠) .

(5) سورة الأنبياء : ٩٠ .

رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾[1] .

وقال تعالى – في وصف بعض عباده الصالحين – : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[2] .

ففي هذه الآية الكريمة يقرن الله ﷻ بين الرجاء والخوف .

ودخل النبي ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « **كيف تجدك ؟** » . قال : أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي . فقال رسول الله ﷺ : « **لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاّ أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف** »[3] .

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام : « **اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجّهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوّضت أمري إليك ، رغبةً ورهبةً**[4] **إليك** »[5] .

وروى ابن جرير من طرق عدّة عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، واليأس من رَوْح الله ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من

---

(١) سورة الزمر : ٩ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٣) خرجه الترمذي (٩٨٨) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (١٤٢٣/٢) برقم (٤٢٦١) ، والبيهقي في شعب الإيمان ، باب الرجاء من الله تعالى (٤/٢) برقم (١٠٠١) ، والمقدسي في المختارة (٤١٣/٤) برقم (١٥٨٧) .
ونقل صاحب تحفة الأحوذي (٥٠/٤) قول المنذري : إسناده حسن . وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٥٠٣/١) برقم (٩٨٣) .

(٤) الرغبة والرهبة ترجع إلى معنى الخوف والرجاء .

(٥) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ (٤٦٢/١٣) برقم (٧٤٨٨) ، ومسلم في كتاب الذكر ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٠٨١/٤) برقم (٢٧١٠) .

مكر الله »[1] . وقال الشاعر[2] :

ليس يرجـــو الله إلاّ خائفٌ من رجا خاف ومن خاف رجا

وقال أيضاً :

أيا عجباً للناس في طول ما سَهَوْا ولو أنهم يرجون خافوا كما رَجَوْا[3]

وقد تكلم أئمة المالكية عن هذا النوع من العبادة بإسهاب ، ويمكن حصر كلامهم في الفقرة التالية :

أهمية الخوف والرجاء وضرورة الجمع بينهما :

اعتنى أئمة المالكية بمقامي الخوف والرجاء ، وأنهما يتصلان اتصالاً مباشراً بالإيمان واليقين ؛ فكلما قوي إيمان العبد ويقينه قوي خوفه ورجاؤه ، ومع ذلك فهذان المقامان العظيمان يجب أن يجمع بينهما كي تستقيم أحوال العبد ، فخوفه يردعه ، ورجاؤه يؤمّله ، فهو بينهما .

ومن ذلك :

١ـــ ما ذكره أصبغ فيما يرويه عن أشهب قال : « ما رأيت مالكاً قطّ رافعاً بصره إلى امرأة ، وما هو إلاّ ناكس هكذا إذا أتته امرأة تسأله ، وما رأيته قطّ رافعاً بصره إلاّ مرّتين في سوداوين : إحداهما امرأة خلف بن عمر، وكانت سوداء وغدة[4]

---

(١) تفسير الطبري (٤٢/٤) ، وقال ابن كثير : وهو صحيح إليه بلا شك - يعني ابن مسعود - .

(٢) هو أبو العتاهية إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنـــزي ، قال في المواعظ والزهد فأجاد . مات سنة ٢١١ ، وقيل : ٢١٣هـــ .

انظر : السير (١٠/١٩٥) ، ووفيات الأعيان (١/٢١٩) .

(٣) ديوان أبي العتاهية (٢٩٦ و ١١٩-١٢٢) .

قال بعض السلف : « من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحبّ والخوف والرجاء فهو مؤمن » .

انظر فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٨١) .

(٤) قال ابن فارس : « وغد : كلمة تدلّ على دناءة ، ورجل وغد : وهو الدنيء ، من قولك : وغدتهم أغدهم : إذا خدمتهم » . معجم مقاييس اللغة (٦/١٢٨) .

أرسلتها مولاتها إليه في شيء - أو قال : تسأله عن شيء - ، وامرأة أخرى سوداء كبيرة أتته وهي ترعد فقالت : يا أبا عبدالله ! إنّ صاحبي - أو قالت : ابني - استرفعني دراهم فكانت إلى جنبي فنمت ، ثم قمت أكنس البيت فإذا بها ، فأخذتها فجعلتها تحت الحصير ، فأتاني بعد ذلك فطلبها مني ، فقلت : ما دفعت إليّ شيئًا ، فقال : بلى والله ! فقلت : لا والله ما أخذتها منك ، فقال : بلى . فقلت : عليّ المشي إلى بيت الله ... ثم ذكرت ما كان .

فقال لها مالك : عليك المشي فامشي . فقالت : يا أبا عبدالله ما أقدر ! قال : تركبين وتهدين . قالت : يا أبا عبدالله ! ما أقدر على شيء . قال : وهي في ذلك ترعد فزعة ، فرأيت مالكاً صعّد منها البصر وردده ، فقال : اذهبي فليس عليك شيء . فلما أدبرت قال مالك : لئن دخلت هذه الجنّة ما ضرّها سوادها شيئاً ؛ هذه في سوادها وحالها خائفة وجلة مما وقعت فيه ، وأخرى أهيأ منها وأقبل وأنطق وأعقل وأعرف منها لعلّها لا تخاف ما خافت هذه ! لئن دخلت هذه الجنّة ما ضرّها سوادها))[(١)] .

٢ــ ((وقال أشهب إثر ذلك : ما الدين وما الأمر إلاّ الخوف .

٣ــ وقال أصبغ : وهو الخشية ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾[(٢)] . وقال أيضاً : وبلغني عن ابن مسعود ﷺ أنه كان يقول : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار به جهلاً[(٣)] .))[(٤)] .

٤ــ قال مالك : ((صلى بالناس عمر بن عبدالعزيز المكتوبة ، فقرأ بهم :

---

(١) البيان والتحصيل (١٨/٥٥٧-٥٥٨) .

(٢) سورة الرعد : ٢١ .

(٣) خرجه البيهقي في شعب الإيمان ، باب في الخوف من الله تعالى (١/٤٧١) برقم (٧٤٦) ، والإمام أحمد في الزهد (٢٣١) برقم (٨٦٢) .

(٤) البيان والتحصيل (١٨/٥٥٧-٥٥٨) .

﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ، فلما بلغ : ﴿ فأنذرتكم نارًا تلظّى ﴾ خنقته العبرة فلم يستطع أن يجاوز ذلك ، ثم أعادها فلما بلغ ذلك الموضع أيضاً خنقته العبرة ، فتركها ، ثم قرأ : ﴿ والسماء والطارق ﴾ » .

قال ابن رشد : « هذا من فعل عمر بن عبدالعزيز نهاية في الخوف لله ، ومن بلغ هذا الحدّ فهو من أهل الجنّة[1] بفضل الله ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربّه جنتان ﴾ »[2] .

٥ـــ وقد نظم ابن الفرضي[3] في بيان مقامي الخوف والرجاء ، واجتماعهما في قلب المؤمن بقوله :

« أسير الخطايا عند بابك واقف … على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غيبها … ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي … ومالك في فصل القضاء مخالف
فيا سيدي لا تخزني في صحيفتي … إذا نُشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما … يصد ذوو القربى ويجفو المؤالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي … أرجّي لإسرافي فإنّي لتالف »[4].

فجمع بين الخوف والرجاء في أعظم مقام يقومه العبد .

٦ـــ وبيّن ابن بطال أن حال العباد بين الخوف والرجاء هو المطلوب ؛ لأنهم لا

(١) الجنّة ترجى ، ولا يقطع لمعيّن بجنة أو نار إلاّ من شهد له النص من الكتاب والسنة .

(٢) البيان والتحصيل (٧/٢٨٠-٢٨١) .

(٣) هو أبو الوليد وأبو محمّد عبدالله بن محمّد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي ، الحافظ المشهور ، كان فقيهًا عالمًا بعلم الحديث ورجاله ، بارعًا في الأدب وغيره ، وله من التصانيف : تاريخ علماء الأندلس ، قتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٠٣هـــ .
انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/١٢٩) .

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لابن المقري (٢/١٢٩) . ط. دار صادر الثانية ١٩٩٧م .

يعلمون ما يختم لهم به ، فقال :

« في تغييب الله عن عباده خواتيم أعمالهم حكمة بالغة وتدبير لطيف ، وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل من علم أنه يختم له بالإيمان ، ومن علم أنه يختم له بالكفر يزداد غيًّا وطغياناً وكفراً ، فاستأثر الله تعالى بعلم ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء ، فلا يعجب المطيع لله بعمله ، ولا ييأس العاصي من رحمته ، ليقع الكلّ تحت الذلّ والخضوع لله والافتقار إليه »[١] .

٧ــ وذكر ما يثمره الخوف عند شرحه حديث حذيفة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « **كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظنّ بعمله ، فقال لأهله : إذا أنا متّ فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف . ففعلوا به ، فجمعه الله ثم قال : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : مخافتك . فغفر له** »[٢] ذكره بقوله :

« فغفر الله له بشدة مخافته ، وأقرب الوسائل إلى الله خوفه ، وألاّ يأمن المؤمن مكره »[٣] .

٨ــ وبيّن أيضاً - عند شرحه حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا : لسنا كهيئتك يا رسول الله ! إنّ الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : « **إنّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** »[٤] - بقوله :

« فإنما قالوا ذلك رغبةً في التزيّد من الأعمال ، لما كانوا يعلمون من اجتهاده في العبادة ، وهو قد غفر له ما تقدّم من ذنبه ، فعند ذلك غضب إذ كان أولى منهم

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/٢٠٤) .

(٢) خرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله (٤/٢١٠٩) برقم (٢٨٥٦) .

(٣) شرح البخاري (١٠/١٩٠) .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب قول الرسول ﷺ : « **أنا أعلمكم بالله** » (١/٧٠) برقم (٢٠) .

بالعمل ، لعلمه بما عند الله تعالى . قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] ، وقد قال ﷺ : « **أفلا أكون عبداً شكوراً** »[2] ، وفي اجتهاده في عمله وغضبه من قولهم دليل أنه لا يجب أن يتكل العامل على عمله ، وأن يكون بين الرجاء والخوف »[3] .

٩ـ وأكّد هذا المعنى فيما نقله عن المهلّب قال :

« وفيه من الفقه : أنّ الرجل الصالح يلزمه من التقوى والخشية ما يلزم المذنب التائب ، لا يؤمن الصالح صلاحه ، ولا يؤيس المذنب ذنبه ويقنطه ، بل الكل خائف راجٍ ، وكذلك أراد تعالى أن يكون عباده واقفين تحت الخوف والرجاء اللذين ساس بهما خلقه سياسة حكمة لا انفكاك منها »[4] .

فبيّن تلازم الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وهو مراد الله ﷻ .

١٠ـ وذكر ابن عبدالبرّ حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال : كنّا عند النبي ﷺ في مجلس فقال : « **تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا** - وقرأ عليهم الآية - **فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ﷻ عليه فهو إلى الله ؛ إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له** »[5] ، ثم قال :

« هذا من أصحّ حديث يروى عن النبي ﷺ ، وعليه أهل السنة والجماعة ، وهو يضاهي قول الله ﷻ : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[6] ، والآثار في هذا الباب كثيرة جدًّا لا يمكن أن يحيط بها كتاب ،

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) خرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢١٧١/٤) برقم (٢٨١٩) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٧٢/١-٧٣) .

(٤) شرح صحيح البخاري (٧٣/١) .

(٥) خرجه البخاري في كتاب الحدود ، باب توبة السارق (١٠٨/١٢) برقم (٦٨٠١) ، ومسلم في كتاب الحدود ، باب الحدود كفارات لأهلها (١٣٣٣/٣) برقم (١٧٠٩) .

(٦) سورة النساء : ١١٦ .

فالأحاديث اللينة ترجى ، والشديدة تخشى ، والمؤمن موقوف بين الخوف والرجاء ، والمذنب إن لم يتب في مشيئة الله ...))[(١)] .

فجمع بين الخوف والرجاء ، وهي الحال التي يكون عليها أهل الإيمان .

١١ــ وذكر أيضاً أنّ هذه هي حال الأنبياء والرسل ، فقال :

((المؤمن خوفه ورجاؤه معتدلان ، ومعلوم أنّ الأنبياء الرسل أشدّ خوفاً لله ، وأكثر إشفاقاً ووجلاً ، ولذلك كانوا أرفع درجات وأعلى منازل))[(٢)] .

١٢ــ وذكر الطرطوشي أنّ من آداب الدعاء : ((أن يكون راغباً راهباً متذلّلاً خاشعاً ، قال الله سبحانه : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ أي : رغبة فيما عندنا ورهبة))[(٣)] .

وأكّد هذا المعنى بقوله :

((أن يقوى رجاؤه في مولاه ، ولا يقنط من رحمة الله)) .

١٣ــ وقال - مبيّناً أهمية الجمع بين الرجاء والخوف - :

((ومن شروط الثقة بالله سبحانه قوة الرجاء فيما عنده))[(٤)] .

فبيّن حال المؤمن في دعائه الذي هو العبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين ﴾[(٥)] أن يكون خائفاً راجياً .

١٤ــ وجعل ابن رشد الخوف والرجاء من ثمرات العلم بالله وصفاته ، فقال :

---

(١) التمهيد (١٧/٢٦) .

(٢) الاستذكار (٨/٣٤٥) .

(٣) الدعاء المأثور وآدابه (٤٧-٤٨) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (١٢٥) .

(٥) سورة غافر : ٦٠ .

« فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها ، ولأن ثماره أفضل الثمار ، فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالاً عليه ، وينشأ من تلك الحال ملابسة أخلاق سنيّة ، ومجانبة أخلاق دنيّة ، فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء ، ومن عرف شدة النقمة أثمرت معرفته شدّة الخوف ، وأثمر خوفه الكفّ عن الإثم والفسق والعصيان ، مع البكاء والأحزان والورع ، وحسن الانقياد والإذعان »[1] .

١٥ـــ وذكر ابن رشد راوية ابن القاسم عن مالك أنّ عمر بن عبدالعزيز كان رجلاً عيشه هذا القطاني ، وأنه أكل يوماً عدساً وشرب عليه ماءً ، ثم استلقى فضرب على بطنه فقال : بطين بطيء عن أمر الله ، يتمنى على الله منازل الأبرار !

ثم قال :

« وفي هذا بيان ما كان عليه عمر بن عبدالعزيز من الخوف لله ﷻ مخافة التقصير في أمره مع الرجاء فيما عنده من أن يحله محل الأبرار ، وهذا هو الواجب أن يكون الرجاء والخوف في قلب الرجل سيّان ، فلا يأمن من عذابه ، ولا يقنط من رحمته »[2] .

١٦ـــ وعلى ذلك سار ابن عطية عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾[3] فقال :

« أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقّب وتحزّن وتأميل الله ﷻ حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر ، يحملانه في طريق استقامة ، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان »[4] .

(١) فتاوى ابن رشد (٣/١٦٢٥) .

(٢) البيان والتحصيل (١٨/٤٧٤-٤٧٥) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٤) المحرر الوجيز (٥/٥٣٢-٥٣٣) .

١٧ــ وذكر ابن ا لعربي حديث الشابّ الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو في الموت فقال له : « **كيف تجدك ؟** » . قال أرجو الله وأخاف ذنوبي . قال رسول الله ﷺ : « **لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذه الحال إلاّ أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف** »[١] ، ثم قال :

« وهذا باب بديع ليس في الرجاء مثله »[٢] .

١٨ــ وبيّن أنّ الأصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وما يحدث من تفاوت يكون بحسب حال العبد وأعماله عند طلب الفتوى ترغيباً وترهيباً ، فقال :

« استواء الرجاء والخوف في القلب ، فتلك الحالة محمودة وقد تأتي أحوال يغلب فيها الخوف وأحوال يغلب فيها الرجاء ، وقد بيّنا ذلك في تفسير القرآن مثال منها : كان ابن عباس إذا جاءه من لم يقتل يقول : هل للقاتل من توبة ؟ فيقول له - تخويفاً له - : لا ! وإذا جاءه من قتل يقول له : نعم له توبة[٣] ؛ ترجيةً له ، ووضع الرجاء موضع الخوف إهلاك ، وكذلك بعكسه . والدليل حديث من قتل تسعة وتسعين ، وجاء يسأل الراهب : هل من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، وجاء الراهب[٤] الثاني ، فقال له : لك توبة . فتاب الله عليه »[٥] .

١٩ــ وأما القاضي عياض فعند شرحه حديث أبي هريرة المتقدّم[٦] - وفيه قول الرجل الذي اشتدّ خوفه : « إذا أنا متّ فأحرقوني - وأكثر علمي أنه قال : ثم اسحقوني ، وأذروني في الريح فإني لم أجتهد عند الله خيرًا ، وإنّ الله إن يقدر عليّ أن

---

(١) سبق تخريجه ص٢١٧ .

(٢) عارضة الأحوذي (٢٠٢/٤) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٣٣٣/٥) .

(٤) والذي جاءت به الرواية : أنّ الآخر عالم وليس راهباً كالأول ، كما في الرواية : « **فدُلّ على عالم** » . والحديث خرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢١١٨/٤) برقم (٢٧٦٦) .

(٥) عارضة الأحوذي (٢٠٣/٤-٢٠٤) .

(٦) انظر ص٢٢١ .

يعذبني . قال : فأخذ منهم ميثاقًا ، ففعلوا ذلك به وربِّي ! فقال الله : ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : مخافتك . قال : فما تلافاه غيرها » – قال :

« وفيه فضيلة الخوف والخشية ، وأنها من مقامات الإيمان وأركان الإسلام ، وهي التي نفعت آخراً هذا المسرف وغفر له بسببها »(1) .

٢٠ــ ونبّه على ترتيب الإمام مسلم بإيراده حديث أبي هريرة : « **دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها ...** »(2) بعد حديث الرجل المتقدّم وقول الزهري – بعد ذكره حديث الرجاء بعد حديث في الخوف – : « ذلك لئلا يتكل رجل ولا ييأس رجل » ، ليربط بين الرجاء والخوف ، فقال :

« لما ذكر الحديث الأول وفيه من رحمة الله لهذا الذي أسرف ، وجهل صفة ربّه ، خشي على سامعيه الاتكال والاعتماد على الرجاء ، وتعطيل الأعمال ، فجاء في الحديث الأخر [المخوف بعذاب الهرة لأجل هذه ربطتها](3) ، فظاهر الأمر أنه من صغائر الذنوب ... ليمزج الرجاء بالخوف ليعتدل حال المطيع »(4) .

٢١ــ وأشار إلى أنّ على الواعظ تغليب جانب الخوف لتوسع الخلق في جانب الرجاء ، فقال :

« فعبادة الخلق لله بين الرجاء والخوف ، وهكذا يجب للواعظ والمذكّر مزج أمره ومعاناة ذكره ، ويكون الغالب التخويف ؛ لأنّ النفوس إلى الرجاء والدعة أميل ، ومن العمل والتكاليف أثقل »(5) .

---

(١) إكمال المعلم (٨/٢٥٧) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب حديث الغار (٦/٥١٥) برقم (٣٤٨٢) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب تحريم قتل الهرة (٤/١٧٦٠) برقم (٢٢٤٢-٢٢٤٣) .

(٣) أشار المحقق أن في نسخة أخرى : [ليخوف به بعذاب هذه لأجل هرة ربطتها] .

(٤) إكمال المعلم (٨/٢٥٩) .

(٥) إكمال المعلم (٨/٢٥٩) .

ومراده أنّ الأصل هو استواء الخوف والرجاء في القلب ، ولكن إهمال الناس للواجبات والطاعات يستدعي تخويفهم وترهيبهم حتى ينـــزجروا ويقبلوا على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ .

٢٢ــ وبيّن أبو عبدالله القرطبي الحال التي ينبغي أن يكون عليها العبد ، فقال :

((ينبغي أن يكون خائفاً من ذنبه ، راجياً عفو ربه ...))[(١)] .

٢٣ــ ولكن من غير إفراط ولا تفريط ، كما ذكر عند قول الله تعالى : ﴿ نبّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾[(٢)] حديث : ((**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد**))[(٣)] .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره ، فيخوف ويرجّي ... فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها))[(٤)] .

٢٤ــ ونقل قول ابن عطية السابق في تمثيل الخوف والرجاء للإنسان كالجناحين للطائر .

٢٥ــ ثم أورد قول الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ نبّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾[(٥)] ، ثم قال :

((فرجّى وخوّف فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه))[(٦)] .

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار (٨٤) . مكتبة دار البيان ، ط. الثالثة ١٤٠٧هـــ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٤٩-٥٠ .

(٣) خرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه (٢١٠٩/٤) برقم (٢٧٥٥) .

(٤) تفسير القرطبي (٣٤/١٠) .

(٥) سورة الحجر : ٤٩-٥٠ .

(٦) تفسير القرطبي (٢٢٧/٧) .

٢٦ــ وبين في موضع آخر اقتران الخوف والرجاء فقال - عند قوله تعالى : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾[1] - :

« أي : يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة ، وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم ، وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف ؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان »[2] .

٢٧ــ وأما أبو العباس القرطبي فقد ذكر أنّ الخوف من الله تعالى دليل على كمال المعرفة به سبحانه ، وهو أساس التقوى ، قال :

« المتقي شرعاً هو الذي يخاف الله تعالى ، ويجعل بينه وبين عذابه وقاية من طاعته ، وحاجزاً عن مخالفته ، فإن أصل التقوى الخوف ، والخوف إنما ينشأ عن المعرفة بجلال الله وعظمته وعظيم سلطانه وعقابه »[3] .

٢٨ــ وبيّن أنّ الرجاء لا بد أن يصحبه العمل ، وإلا فهو عجز وأماني ، قال :

« استصحبوا الأعمال الصالحة ، والأعمال الحسنة التي يرتجي العامل لها قبولها ، ويحقق ظنه برحمة ربه عند فعلها ، فإن الله قريب من المحسنين ، وعقابه مخوف على العصاة والمذنبين ، وقد قلنا إنّ حسن الظنّ بغير عمل غرة ، كما قال ﷺ : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله** »[4] »[5] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٠ .

(٢) تفسير القرطبي (١١/٣٣٦) .

(٣) المفهم (٦/٥٣٧) .

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٢٤) ، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وابن المبارك في الزهد (١٧١) ، والحاكم (١/٥٧) . قال الترمذي : هذا حديث حسن . وصححه الحاكم ، وتعقبة الذهبي في التلخيص بقوله : لا والله ! أبو بكر واهٍ . أي أبو بكر بن أبي مريم ، وباقي رجال الإسناد ثقات . وذكره الألباني في ضعيف سنن الترمذي (٢٤٥٩) .

(٥) المفهم (٧/١٤٣) .

٢٩ــ وذكر الحال التي يكون عليها المؤمنون ، فقال – عند قوله تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[١] – :

« هكذا حال العارف بالله تعالى بين الرجاء والخوف ، لا بد منها للمؤمن ، ولذا قال بعض السلف : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا » .

٣٠ــ وذكر القرافي أقسام الخوف من حيث الحلّ والحرمة في معنى يظهر منه خوف الله ﷻ ورجاؤه ، فقال :

« الرغبة والرهبة لغير الله تعالى إن أريد بها خوف الظلمة أو السباع أو الغلاء أو الأمراض إن سلط الله تعالى بعض ذلك ، فهذا لا ينهى عنه ، وقد يؤمر به كما أمرنا أن لا نقدم على الوباء وأن نفرّ من المجذوم فرارنا من الأسد . وإن أريد بها أنّا نخاف الأسباب والخلق من حيث هم هم ، بحيث نعصي الله تعالى لأجلهم ، فهذا حرام ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾[٢] »[٣] .

٣١ــ وقال في موضع آخر :

« اعلم أنه جاءت المدحة بأن يكون العبد لا يخشى إلاّ الله ، وجاء النهي عن خشية الناس ؛ فقال تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه ﴾ . يقال : المراد بهذا الخوف المنهي عنه أن يؤثر على خوف الله تعالى حتى يترك به واجب أو يفعل به حرام »[٤] .

٣٢ــ وذكر ابن أبي جمرة أنّ على المؤمن عدم اليأس من رحمة الله ، فقال – عند

---

(١) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ١٠ .

(٣) الذخيرة (٢٥٣/١٣) .

(٤) ترتيب الفروق (٤٥٧/٢) .

حديث أبي هريرة الطويل في الرؤية[1] - :

« فيه دليل على أن من كان من أهل الإيمان - وإن كان في أي حالة - كان لا يقطع إياسه من رحمة أرحم الراحمين ، فلعله ممن سبق له من الخير سابق ، وقد قال جل جلاله : ﴿ إنه لا ييأس من رَوح الله إلاّ القوم الكافرون ﴾[2] »[3] .

٣٣ــ ثم بيّن الحال التي يكون عليها المؤمن عند دعائه الله ﷻ ، وهي أن يكون راجياً ، فقال - عند شرح الحديث السابق (حديث أبي هريرة الطويل المتضمّن ذكر الرؤية والشفاعة وآخر من يدخل الجنة من أهل النار ... إلخ) - :

« وفيه دليل على قوة الرجاء في إجابة الدعاء وإن لم يكن الداعي أهلاً للإجابة يؤخذ ذلك من أن هذا السائل قد صحّ أنه من أهل النار ، ومن هو من أهل النار فهو من المبعودين مقطوع به ، ثم يتفضّل ﷻ وينيله رحمته ، فكيف من هو في حال الاحتمال ؛ لأن الناس كلهم في هذه الدار محتملين للسعادة وغيرها ، فهو أقوى رجاءً في رحمة أرحم الراحمين »[4] .

٣٤ــ وذكر أيضاً أنّ الله ﷻ تفضّل على عباده المؤمنين بالرحمة والمغفرة بعد علمه سبحانه شدة خوفهم ووجلهم منه ﷻ ، ليجمع لهم بين الخوف والرجاء ، فقال - عند حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على**

---

(١) الحديث خرجه البخاري عن أبي هريرة أن الناس قالوا : يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « **هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب** » . قالوا : لا يا رسول الله . قال : « **فهل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟** » . قالوا : لا يا رسول الله . قال : « **فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك** ... » الحديث بطوله . انظر : صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب رؤية الله ﷻ (٤٤٤/١١) برقم (٦٥٣٣) .

(٢) سورة يوسف : ٨٧ .

(٣) بهجة النفوس (٣٠/٢) .

(٤) بهجة النفوس (٣٤/٢) .

أنفه فقال به هكذا » قال أبو شهاب بيده فوق أنفه[1] - :

« ... المؤمن إذا رأى من نفسه ما يخالف الإيمان خاف على نفسه أشدّ الأشياء ، وهو النفاق الذي الهلاك معه مقطوع به إن مات عليه وخاف من قول الله ﷻ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[2] ، فحزنوا من أجل كبر هذا المقت ؛ لأنّ ما كبره الله سبحانه فهو أمر عظيم لا يحمله أهل الإيمان ، ويصعقون منه ، ولذلك لما علم مولانا سبحانه خوفهم من ذلك طمعهم ورجاهم بقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[3] »[4] .

٣٥ــ وبيّن أنّ اجتماع الخوف والرجاء لا بد أن يصحبهما عمل ، وإلا فلا ينفع ، فقال :

« ... أن يكون الخوف والرجاء لما هناك مع الأعمال المأمور بها أو مع عدمها ، فإن كان مع عدمها فلا يسمى ذلك رجاء بل يسميه أهل العلم غروراً ، وذلك مظنة الهلاك ... وكفى في ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾[5] »[6] .

٣٦ــ وبيّن ابن جزي درجات الخوف والرجاء ، ومقامات الناس حيال ذلك ، فقال :

« اعلم أنّ الخوف على ثلاث درجات :

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التوبة (١٠٢/١١) برقم (٦٣٠٨) .

(٢) سورة الصف : ٢ .

(٣) سورة الزمر : ٥٣ .

(٤) بهجة النفوس (٢٠١/٤-٢٠٢) .

(٥) سورة البقرة : ٢١٨ .

(٦) بهجة النفوس (٢٨٦/٤) .

الأولى : أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر ؛ فوجود هذا كالعدم .

والثانية : أن يكون قويًّا فيوقظ العبد من الغفلة ، ويحمله على الاستقامة .

والثالثة : أن يشتدّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس ؛ وهذا لا يجوز ، وخير الأمور أوسطها .

والناس في الخوف على ثلاث مقامات : فخوف العامة من الذنوب[1] ، وخوف الخاصة من الخاتمة ، وخوف خاصة الخاصة من السابقة ؛ فإن الخاتمة مبنية عليها .

والرجاء على ثلاث درجات : الأولى : رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية ؛ فهذا هو الرجاء المحمود . والثانية : الرجاء مع التفريط والعصيان ؛ فهذا غرور . والثالثة : أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن ؛ فهذا حرام .

والناس في الرجاء على ثلاثة مقامات : مقام العامة رجاء ثواب الله . ومقام الخاصة رجاء رضوان الله . ومقام خاصة الخاصة : رجاء لقاء الله حبًّا فيه وشوقاً إليه))[2] .

فما ذكره في هذا التقسيم يدل على منـــزلة الخوف والرجاء وأهميتها للمؤمن .

٣٧ـــ وعند قول الله : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾[3] قال :

((جمع الله الخوف والطمع ليكون العبد خائفاً راجياً كما قال تعالى : ﴿ يرجون

---

(١) خوف الذنوب لا تقصر على العامة فقط ، بل حتى الخاصة ؛ يدل على ذلك مقام الأنبياء عليهم السلام عند طلب الشفاعة منهم يوم القيامة ، فكل نبيّ يذكر ما وقع منه ، ويقول : نفسي نفسي ! ... الخ إلاّ نبيّنا محمّد ﷺ فيشفع . وذكر القرطبي أن محمّد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟! قال : أخاف آية من كتاب الله : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ، فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب . القرطبي (١٥/٢٦٥-٢٦٦) .

(٢) التسهيل (٢/٦٤) .

(٣) سورة الأعراف : ٥٦ .

رحمته ويخافون عذابه ﴾[1] ، فإن موجب الخوف معرفة سطوة الله وشدّة عقابه ، وموجب الرجاء معرفة رحمة الله وعظيم ثوابه جلّ جلاله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون ﴾)) .

٣٧ـ ونقل محمّد المختار كلام ابن حجر عند شرحه ((باب الرجاء مع الخوف)) على سبيل الإقرار ، ونصّه : ((فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ، ولا في الخوف عن الرجاء ، لئلاّ يفضي في الأول إلى المكر ، وفي الثاني إلى القنوط ، وكلّ منهما مذموم . والمقصود من الرجاء أنّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنّه بالله تعالى ، ويرجو أن يمحو ذنبه ، وإذا وقعت منه طاعة يرجو قبولها ، وأما إذا انهمك في المعصية راجياً عدم المؤاخذة بها بغير ندم ولا إقلاع فإنه مغرور ، وما أحسن قول أبي عثمان : من علامة السعادة أن يطيع ويخاف ألا يقبل ، ومن علامة الشقاء أن يعصي ويرجو أن ينجو))[2] .

٣٩ـ ونقل أيضاً قول القسطلاني مقرًّا له في تشبيه الخوف والرجاء بجناحي الطائر ، فقال :

((وقد روينا عن أبي علي الروذباري أنه قال : الخوف والرجاء كجناحي الطائر ، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت[3] اهـ . فمتى استقام في أحواله استقام في سلوكه في طاعة ربه ، باعتدال رجائه وخوفه ، ومتى قصر في طاعة ربه ضعف رجاؤه ودنا منه الاختلال ، ومتى قلّ خوفه وحذره من مفسدات الأعمال تعرّض للهلاك ، ومتى عدم الرجاء والخوف تمكّن منه عدوّه وهواه ، وبعُد من حزب ربّه

---

(١) سورة الإسراء : ٥٧ .

(٢) نور الحقّ الصبيح (٩/٦٤٩) .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/٢) برقم (١٠٢٧) .

الذي حفظه وتولّاه ، وبه يظهر وجه الشبه بينهما وبين جناحي الطائر . وقال بعضهم : المؤمن متردّد بين الخوف والرجاء لخفاء السابقة ، وذلك لأنه تارة ينظر إلى عيوب نفسه فيخاف ، وتارة ينظر إلى كرم الله فيرجوه »[1] .

٤٠ــ وبيّن ابن عاشور أنّ خوف العباد ورجاءهم به تحقّق العبادة ، فقال - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً إنّ رحمتَ الله قريبٌ من المحسنين ﴾[2] - :

« وقد شمل الخوف والطمع جميع ما تتعلّق به أغراض المسلمين نحو ربّهم في عاجلهم وآجلهم ، ليدعوا الله بأن ييسّر لهم أسباب حصول ما يطمعون ، وأن يجنبهم أسباب حصول ما يخافون ، وهذا مقتضى توجه همتهم إلى اجتناب المنهيات لأجل خوفهم من العقاب ، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطمع في الثواب »[3] .

٤١ــ ولذا جعل الخوف والرجاء وصفاً ثابتاً للمؤمن لا يتغيّر في السير إلى الله ﷻ ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ﴾[4] - :

« والرجاء والخوف من مقامات السالكين ، أي أوصافهم الثابتة التي لا تتحوّل ، وللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله ، وللرجاء مزيته من حثّها على ما يرضي الله ، وكلاهما أنيس السالكين »[5] .

٤٢ــ وأوضح الشيخ محمّد الأمين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإنّ ربّك لذو

---

(١) نور الحقّ الصبيح (٩/٦٥٠) . وانظر فتح الباري (١١/٣٠١) .

(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٣) التحرير والتنوير (٨/١٧٦) .

(٤) سورة الزمر : ٩ .

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/٣٤٧) .

مغفرة للناس على ظلمهم وإنّ ربّك لشديد العقاب ﴾[1] فقال :

« بيّن جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه ذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وأنّه شديد العقاب ، فجمع بين الوعد والوعيد ، ليعظم رجاء الناس في فضله ، ويشتدّ خوفهم من عقابه وعذابه الشديد ؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرّ ، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة ، وقد بيّن هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ فإن كذّبوك فقل ربّكم ذو رحمة واسعة ولا يردّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾[2] ، وقوله : ﴿ إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾[3] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾[4] ، وقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطَّول ... ﴾ الآية[5] ، إلى غير ذلك من الآيات »[6] .

٤٣ــ وذكر ارتباط الخوف والرجاء ، فقال :

« فاعلم أنّهما متلازمان ؛ فمن كان يرجو ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشرّ ، كالعكس »[7] .

٤٤ــ ثم أفصح عن حال المؤمن مع هذين المقامين ، فقال :

« وقد أمرنا الله أن نكون في دعائه خائفين من عذابه وعقابه ونكاله ، وطامعين في فضله ورحمته ورأفته وجوده ، وما عنده من الخير ؛ لأنّ مطامع العقلاء محصورة في أمرين : جلب النفع ودفع الضرّ . وإذا كان من يعبد الله أو يدعو الله يستشعر الخوف

---

(١) سورة الرعد : ٦ .

(٢) سورة الأنعام : ١٤٧ .

(٣) سورة الأنعام : ١٦٥ .

(٤) سورة الحجر : ٤٩-٥٠ .

(٥) سورة غافر : ٣ .

(٦) أضواء البيان (٣/٧٩-٨٠) .

(٧) أضواء البيان (٤/٢٠٠) .

من الله ، والطمع في ثوابه وما عنده من الخير ؛ كان الخوف والطمع جناحين يطير بهما إلى الاستقامة ... وينبغي للمسلم إذا دعا الله أو عبَد الله أن يكون جامعاً بين الخوف من الله والطمع فيما عند الله جلّ وعلا ، فلا يترك الرجاء لئلاّ يكون من القانطين : ﴿ إنه لا ييأس من رَوح الله إلاّ القوم الكافرون ﴾[1] ، ولا يترك الخوف فيأمن مكر الله ؛ لأنه لا يأمن من مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ، فيكون خائفاً من الله ، طامعاً راجياً من فضل الله))[2] .

٤٥ــ ثم إنه نبّه على مسألة مهمّة في الفرق بين الخوف المذموم والخوف الطبعي الذي جبل عليه الإنسان ، فقال – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولم يخش إلاّ الله ﴾[3] – :

((في هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن الكريم سؤال معروف ، وهو أن يقال : لا يوجد أحد إلاّ وهو يخشى من غير الله ويخاف من غير الله ؛ لأنّ كلّ المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها ، والذي لم يخف شيئاً من المخاوف والمحاذير هذا أمر صعب ، والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين :

بعضهم يقول : الخشية التي هي شرك بالله ، والتي يحذّر الله منها هي خشية الأصنام ، والخوف من المعبودات من دون الله[4] . وهذا النوع دلّت عليه آيات كثيرة ؛ لأن عبدة الأصنام يخوّفون من يسبّ الأصنام بأنّ الأصنام ستفعل له

---

(١) سورة يوسف : ٨٧ .

(٢) جهود محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١/١٧٥) د. عبدالعزيز الطويان .

(٣) سورة التوبة : ١٨ .

(٤) فإذا كان هذا الخوف خوف تألّه وتعبّد ، وتقرّب بذلك إلى من يخافه بامتثال أمره وترك معصيته ؛ كان تعلّقه بالله من أعظم واجبات الإيمان ، وتعلّقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، لأنّه أشرك في هذه العبادة – التي هي من أعظم واجبات القلب – غير الله مع الله ، بل قد يزداد خوفه من غير الله على خوفه من الله .

وتفعل[1] ، كما قالوا لنبي الله هود : ﴿ إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكّلت على الله ... ﴾ الآية[2] ، وكذلك لما خوّفوا منها نبيّ الله إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام وقالوا له : ستفعل بك أصنامنا وتفعل ، قال لهم : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينـــزّل به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾[3] ، وخوّف بها نبي الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما نصّ عليه في سورة الزمر في قوله : ﴿ ويخوّفونك بالذين من دونه ﴾[4] ، ثم ردّ عليهم قال : ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ ؟ في قراءة أخرى : ﴿ كافي عباده ﴾ ، وهذا كثير في القرآن . وهذه الخشية التي خاف صاحبها من عاقبة الأصنام كفر بالله وشرك به .

وقال بعض العلماء : هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل الإنسان على أن يعصي الله ، كالذي يخشى الكفار ، ويجبن عن الجهاد في سبيل الله ، كما تقدّم في قوله : ﴿ أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾[5] .

أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء والمحاذير بجبلّته فهذا أمر لا مخالفة فيه ؛ لأن الله لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها كما هو معلوم[6] »[7] .

---

(١) وهو الذي يفعله عبّاد القبور ونحوها ؛ يخافونها ويخوّفون بها الموحّدين .

(٢) سورة هود : ٥٤-٥٦ .

(٣) سورة الأنعام : ٨١ .

(٤) سورة الزمر : ٣٦ .

(٥) سورة التوبة : ١٣ .

(٦) ومن أنواع الخوف : خوف وعيد الله تعالى الذي توعّد به العصاة ، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ . وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله . قال القرطبي : « ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ أي : قيامي عليه ومراقبتي له ، قال تعالى : ﴿ أمّن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت ﴾ » . التفسير (٣٤٨/٩) .

(٧) جهود الشيخ محمّد الأمين في تقرير عقيدة السلف (١٧٧/١-١٧٨) .

فذكر الشيخ أقسام الخوف المذموم وبيّن أن منه المؤدّي إلى الشرك ، ومنه الخوف المفضي إلى المعصية ، ومقابل ما تقدم الخوف الجبلّي الذي لا إثم فيه ولا حرج .

٤٦ـــ وذكر محمّد المكّي أنّ الدعاء لا بدّ فيه من الخوف والرجاء ، فعند قول الله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾[١] قال :

((يبيّن كتاب الله للمؤمنين كيف ينبغي أن يجمعوا في الدعاء بين الخوف والرجاء))[٢] .

٤٧ـــ وبيّن أنّ ذلك هو حال أنبياء الله ورسله كما في قوله تعالى عن آل زكريا : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾[٣] :

((ويمكن أن يكون المراد به أنهم في حال دعائهم يجمعون بين الرغبة والرهبة ، وبين الخوف والرجاء ، إذ لا مانع من ذلك عند العارفين السالكين لهذه المسالك ، وإذا كان كتاب الله يثني على الأنبياء والرسل السابقين ، ويصف أحوالهم وأخلاقهم للمؤمنين اللاحقين فإنما يضرب أحسن قدوة يقتدون بها هي سيرة السلف : ﴿ أولئك الذي هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٤]))[٥] .

٤٨ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربّهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[٦] قال :

((ثم مضى كتاب الله يبيّن أنّ أهل المقامات العليّة الذين تعقد عليهم الآمال ، وتناط بهم الآمال عند عامة الناس هم أنفسهم واقفون بباب الله ، يتسابقون فيما

---

(١) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٢/٢٢٤) .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٠ .

(٥) التيسير (٤/١٤٦-١٤٧) .

(٦) الإسراء : ٥٧ .

بينهم إلى طاعة الله ، ويلاحق كلٌّ منهم الآخر في ابتغاء رضاه ليكون أقرب إلى مولاه ، وقلوبهم جميعاً معلّقة بين جناحي الخوف والرجاء في حالتي السرّاء والضرّاء))[١] .

فوصف من علت منـــزلتهم وارتفعت درجاتهم بتعلّق قلوبهم خوفاً ورجاءً على حدّ سواء بالله ﷻ .

وبعد هذا البيان من أئمة المالكية في الجمع بين الخوف والرجاء نبهوا على أمر مهمّ في هذا الباب، وهو أنّ العبد في حال صحته يجمع بين الخوف والرجاء على حدّ سواء ، بيد أنّ بعضهم يرى تغليب الخوف في حال الصحة ، ليكون حافزاً على العمل ، وأما إذا كان في حال المرض وقرب الأجل فرأوا أنه يغلّب جانب الرجاء حتى يحسن الظنّ بالله ﷻ ، ليحبّ لقاء الله فيحب الله لقاءه .

٤٩ـــ ومن ذلك ما نقله ابن عطية من قول كثير من العلماء من أنه : ((ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء ، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير ، وهذا كلّه احتياط ، ومنه تمني الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة ، وتمنّى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف[٢] ؛ لأنّ مذهبه أنهم مذنبون))[٣] .

٥٠ـــ وبنحو ذلك قال القرطبي أبو عبدالله ، واستدلّ بحديث النبي ﷺ : ((**لا**

---

(١) التيسير (٣٩٨/٣) .

(٢) ذكر الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ((الأعراف تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار)) . ثم قال : اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . ثم ساق الآثار المرفوعة في ذلك ، وعقب بقوله : والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة ، وفيه دلالة على ما ذكر اهـــ . تفسير ابن كثير (١٤٣٢/٣) . ط. دار ابن حزم ، الأولى ١٤١٩هـــ .

(٣) المحرر الوجيز (٥٣٣/٥) .

يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله »[1] »[2] .

٥١ـــ وأكّد هذا المعنى في موضع آخر ، فقال :

« ويكون الخوف في صحته أغلب عليه ، إذ لا يعلم بما يختم له ، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى في نفسه لحسن الظنّ بالله تعالى »[3] .

٥٢ـــ وبيّن القاضي عياض عند هذا الحديث المراد بالأمر بحسن الظنّ بالله عند الموت ، فقال : « تحذير من القنوط المهلك ، وحض على الرجاء عند الخاتمة لئلاّ يغلب عليه الخوف حينئذ فيخشى عليه اليأس والقنوط فيهلك .

وعبادة الله إنما هي من أصلين : الخوف والرجاء ، فيستحبّ غلبة الخوف ما دام الإنسان في خيرية العمل ، فإذا دنا الأجل وذهب المهل ، وانقطع العمل استحبّ حينئذ غلبة الرجاء ليلقى الله تعالى على حالة هي أحبّ الأحوال إليه جل اسمه ، إذ هو الرحمن الرحيم ، ويحبّ الرجاء ، وأثنى على نبيّه ﷺ بذلك .

ويؤيّد ما قلناه قوله في الحديث - بعد هذا - : « **يبعث كل عبد على ما مات عليه** »[4] ، فهذا جامع لهذا وغيره ، وأنّ العبد يبعث على الحالة التي مات عليها »[5] .

وبين أنّ مسلماً أراد من ذلك أن يكون الحديث بعده مفسّراً له .

٥٣ـــ وذكر القرطبي أبو العباس : « أنّ الخوف أولى بالمسيء ، لكن بحيث لا يقنط من رحمة الله ، والرجاء أولى بالمحسن ، لكن بحيث لا يفتر فيكسل عن الاجتهاد في عبادة الله تعالى »[6] .

---

(١) خرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٢٠٥/٤) برقم (٢٨٧٧) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٢٧/٧) .

(٣) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (٨٤) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب الأمر بحسن الظنّ بالله عند الموت (٢٢٠٦/٤) برقم (٢٨٧٨) .

(٥) إكمال المعلم (٤٠٩/٨) .

(٦) المفهم (٣٥٨/٧) .

٥٤ـــ وفي موضع آخر قال :

((وهذا في حال الصحة والقوة على العمل ، وأما في حال حضور الموت فليس ذلك الوقت وقتاً يقدر فيه على استئناف غير الفكر في سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله ، وأنه لا يتعاظمه ذنب يغفره ، وأنه الكريم الحليم ، الغفور الشكور ، والمنعم الرحيم . ويذكر بآيات الرخص وأحاديثها ، لعلّ ذلك يقع بقلبه فيحب الله تعالى ؛ فيختم عليه بذلك فيلقى الله تعالى وهو محبّ لله تعالى ، فيحشر في زمرة المحبين بعد أن كان في زمرة الخطّائين ، ويشهد له قوله : ((**يبعث كل عبد على ما مات عليه**)) .))[(١)] .

٥٥ـــ وذكر ابن جزي ((أنّه يستحبّ أن يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيّئات ، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت ، لقوله ﷺ : ((لا يموتنّ أحدكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله تعالى)) .))[(٢)] .

٥٦ـــ وبنحو ذلك ذلك قال محمّد الأمين :

((العلماء يقولون : ينبغي للإنسان - وهو في أيام صحته - أن يغلب الخوف دائماً على الرجاء ، وأن يكون خوفه أغلب من رجائه ، فإذا حضره الموت غلب الرجاء في ذلك ليطغى على الخوف ، فلا ينبغي للمؤمن أن يموت إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله جل وعلا بأن ربه رؤوف رحيم ، كما جاء بذلك الحديث عن النبي ﷺ))[(٣)] .

وبهذه النقول عن أئمة المالكية يتبيّن أنّ الخوف والرجاء مقامان جليلان ، لا بد من تحقيقهما والجمع بينهما في حال الصحة ، وأمّا في حال المرض وقرب الأجل فيغلب جانب الرجاء إحساناً للظنّ بالله ﷻ .

---

(١) المفهم (١٤٣/٧) .

(٢) التسهيل (٦٣/٢) .

(٣) جهود محمّد الأمين (١٧٥/١-١٧٦) .

المسألة الثالثة : التوكّل

التوكّل على الله تعالى فرض من فرائض الرحمن وشرط من شروط الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] ، فعلّق الإيمان بالتوكّل .

وقال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكّل عليه ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾[4] .

وقد اعتنى أئمة المالكية بهذا المقام الجليل - مقام التوكّل على الله ﷻ - ، ويمكن بيان تناولهم للتوكل وما يتعلق به في الفقرتين الآتيتين :

أولاً : بيان حقيقة التوكّل .

ثانياً : صلة الأسباب بالتوكّل .

---

(١) سورة المائدة : ٢٣ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة المزمل : ٩ .

(٤) سورة الطلاق : ٣ .

أولاً : بيان حقيقة التوكّل

ذكر المالكية أنّ التوكّل على الله ﷻ له معانٍ متعدّدة ؛ فتارةً يفسّرونه بالثقة بالله ، وتارة بالتفويض ، وتارة بالتسليم والاعتماد على الله ؛ ومقام التوكّل يجمع كل هذه المعاني .

١ـــ ومن ذلك ما ذكره القرطبي بقوله :

« سئل مالك عن البلد يقع فيه الموت ، فهل يكره الخروج إليه ؟ فقال : لا أرى بأساً خرج أو أقام . قيل : فهذا يشبه ما جاء في الحديث عن الطاعون ؟ قال : نعم . »[١] .

وهذا من مالك - والله أعلم - لإثبات التوكّل على الله ، وتعلّق القلب به سبحانه ، وأنّ الخروج إلى الموضع الذي فيه الموت لن يغيّر من قدر الله شيئاً[٢] .

ولكن جاء الحديث عن النبي ﷺ فيما إذا وقع الوباء أن لا يخرج من هو في مكان الوباء ولا يقدم من كان خارجاً عليه .

ولذا عقّب القرطبي على قول مالك السالف بقوله : « فيه نظر » .

ثم ذكر ما حصل من عمر ﷺ[٣] ، فقال : « وهذا يدلّ على أنه عزم على

---

(١) المفهم (٥/٦١٨) .

(٢) والحديث الوارد في الطاعون يمنع القدوم على بلد وقع بها الطاعون ، كما يمنع الخروج منها لمن كان مقيماً بها ، وهذا يؤكّد أن الإمام مالك رحمه الله إنما أراد ما ذكرته من تعلّق القلب بالله تعالى ، فلو خرج فراراً من الطاعون لن يغيّر من قدر الله شيئاً إن قُدر عليه الموت ، وكذا بقاؤه . ويأتي كلام القرطبي في إيضاح هذا المعنى .

(٣) خرج الإمام مالك في موطئه بسنده عن عبدالله بن عامر بن ربيعة ، أنّ عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، فلما جاء سرغ بلغه أنّ الوباء قد وقع بالشام ، فأخبره عبدالرحمن بن عوف أنّ رسول الله ﷺ قال : « **إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه** » . فرجع عمر بن الخطاب من سرغ . انظر الموطأ (٢/٦٨٣) .

الرجوع لرأي أولئك المشيخة لما ظهر أنه أرجح من رأي غيرهم ممن خالفهم ، ووجه أرجحية هذا الرأي أنه جمع فيه بين الحزم والأخذ بالحذر ، وبين التوكّل والإيمان بالقدر)) .

٢ــ يؤكّد هذا المعنى عن مالك رحمه الله أنّ القرطبي نقله قولاً عن بعض السلف ، ثم قال :

((واعتمد أصحاب هذا القول على أنّ الآجال محدودة ، والأرزاق مقدّرة ، فلا يتقدم شيء على وقته ، ولا يتأخّر شيء عن أجله ، فالواجب صحة الاعتماد على الله والتسليم لأمر الله ، فإن الله تعالى لا رادّ لأمره ، ولا معقّب لحكمه ، فالقدوم على الوباء والفرار سيان بالنسبة إلى سابق الأقدار[1]))[2] .

٣ــ ونقل ابن بطال قول الطبري على سبيل الإقرار في بيان حدّ التوكّل ، فقال :

((الثقة بالله تعالى ، والاعتماد في الأمور عليه ، وتفويض كل ذلك إليه))[3] .

٤ــ وبيّن ابن عبدالبرّ حقيقة التوكّل عند حديث النبي ﷺ في النهي عن الكيّ بقوله :

((يحتمل أن يكون النبي ﷺ نهى عن الكيّ في أمر ما ، أو في علة ما ، أو نهى عنه نهي أدب وإرشاد إلى التوكّل على الله ، والثقة به ، فلا شاف سواه ، ولا شيء إلاّ ما شاء))[4] .

---

(١) ومرادهم رحمهم الله واضح في الحضّ على صدق وصحة الاعتماد على الله تعالى ، وليس ذلك من باب ترك الأسباب . وذلك لأن هذه الأقدار مغيبة عن الإنسان ، فكان عليه الأخذ بالأسباب كما أمر النبي ﷺ بعدم القدوم على الطاعون أو الفرار منه إذا ما وقع ، والله أعلم .

(٢) المفهم (٥/٦١٣) .

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/٤٠٧-٤٠٨) .

(٤) الاستذكار (٢٧/٤٣) .

٥ــ وعلّل ذلك في موضع آخر بقوله :

« لأنّ من ترك ذلك توكّلاً على الله ، وعلماً بأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأنّ أيام الصحة لا سقم فيها ؛ كان أفضل منــزلة وأعلى درجة ، وأكمل يقيناً وتوكّلاً »[١] .

وبهذا يظهر حقيقة التوكّل ، إذ تركه للكيّ اعتماداً على الله وثقةً به تعالى وأنّ السقم والبرء بيده تعالى تحقيق لمقام التوكّل على الله .

٦ــ ولذا قال :

« فمن ترك الكيّ ثقةً بالله ، وتوكّلاً عليه كان أفضل ؛ لأنّ هذه منــزلة يقين صحيح ، وتلك منــزلة رخصة وإباحة »[٢] .

٧ــ وفسّر ابن عطية قول الله ﷻ : ﴿ وعلى ربهم يتوكّلون ﴾[٣] بقوله :

« عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمتثل الإنسان ما أمر به ، ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز ، وينظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره »[٤] .

ولا يتحقق شيء من ذلك إلاّ لمن وثق بالله تعالى ، واعتمد عليه وحده .

٨ــ وبين منــزلة التوكّل من الإيمان ، فقال :

« والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله ، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجد ، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه بتوكل ، وإنما

---

(١) فتح البرّ (٦/٢٦١) .

(٢) فتح البر (٦/٢٦٠) .

(٣) سورة الأنفال : ٢ .

(٤) المحرر الوجيز (٦/٢١٧) .

هو كما قال ﷺ : « قيّدها وتوكّل »[1] »[2] .

٩ــ ونقل قول ابن مسعود في تفسيره لقول الله ﷻ : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾[3] : « هذه أكثر الآيات حضًّا على التفويض »[4] .

١٠ــ وعند قول الله تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرًا ﴾[5] قال ابن العربي : « التوكل : هو إظهار العجز والاعتماد على الغير » .

١١ــ ثم بيّن أساسه ومنــزلته من الإيمان ، فقال :

« أصل هذا علم العبد بأن المخلوقات كلها من الله ، لا يقدر أحد على الإيجاد سواه ، فإن كان له مراد – وعلم أنه بيد الذي لا يكون إلاّ ما أراد – جعل له أصل التوكل ، وهذا فرض عين ، وبه يصح الإيمان الذي هو شرط التوكل . قال الله تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ » .

١٢ــ ورتب على تحقق التوكل سكون القلب ، وزوال الانزعاج والاضطراب ، وهما من الأحوال التي تلحق وتعقب التوكل[6] .

ومراده أنّ القلب لا يسكن ولا يطمئنّ إلاّ بتفويض الأمور كلها لله وحده ، الذي بيده تصريف كل شيء .

---

(١) خرجه البيهقي في شعب الإيمان ، باب التوكل والتسليم (٧٩/٢) برقم (١٢٠٩) ، والحاكم في المستدرك (٦٢٣/٣) من طريق حاتم بن إسماعيل به . قال الهيثمي في المجمع (٢٩١/١٠) : رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما عمرو بن عبدالله بن أمية الضمري ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . وقال الذهبي : سنده جيد .

(٢) المحرر الوجيز (٤٠٠/٣) .

(٣) سورة الطلاق : ٣ .

(٤) المحرر الوجيز (٤٩٥/١٤) .

(٥) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٦) انظر أحكام القرآن (٤٤٨/٣-٤٤٩) .

١٣ـــ ونقل القاضي عياض على سبيل الإقرار ما اختاره الطبري من قول عامة الفقهاء في بيان حدّ التوكّل :

« حدّه : الثقة بالله ، والإيقان بأنّ قضاءه ماضٍ »[1] .

١٤ـــ وقال بنحو قول القاضي عياض القرطبيُّ أبو عبدالله ، ثم قال : « وهو الصحيح »[2] .

١٥ـــ وعند قول الله تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾[3] قال – معرّفاً التوكّل – :

« إنه اعتماد القلب على الله تعالى في كلّ الأمور »[4] .

١٦ـــ ونقل القرطبي أبو العباس قول عامة الفقهاء السابق في بيانه لمعنى التوكل[5] .

١٧ـــ وفي موضع آخر قال :

« التوكّل على الله هو الاعتماد عليه والتفويض إليه فيما يجوز الإقدام عليه ، أو فيما يخاف وقوعه ، أو يرتجى حصوله ، وقد يفضي التوكل بصاحبه إلى ألاّ يخاف شيئاً إلاّ الله ، ولا يرجو سواه ، إذ لا فاعل[6] في الحقيقة إلاّ هو »[7] .

فالخوف والرجاء إنما ينشآن عن التوكل على الله ﷻ .

---

(١) إكمال المعلم (١/٦٠٣-٦٠٤) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٤/٢٥٣) .

(٣) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/٦٢) .

(٥) انظر المفهم (١/٤٦٧) .

(٦) الأسلم أن نقول : لا مقدّر إلاّ هو ﷻ . قال ﷺ : « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة** » . خرجه مسلم في كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣) .

(٧) المفهم (٤/٤٣) .

١٨ــ وبيّن القرافي حقيقة التوكّل ، فقال :

((التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يجلبه من خير أو يدفعه من ضرّ))[١] .

١٩ــ ونحو ذلك قال ابن جزي :

((التوكّل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع ، أو حفظها بعد حصولها ، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها)) .

٢٠ــ ثم ذكر أنه من أعلى المقامات ، وذلك لأنّ الله يحبّ المتوكّلين ، وللضمان[٢] في قوله : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ .

٢١ــ وأشار إلى أنه شرط في الإيمان مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[٣] .

٢٢ــ وذكر ابن عاشور أنّ التوكّل هو ((الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكَّل عليه ، وهو الوكيل ، أي المتولّي مهمات غيره)) .

٢٣ــ ووصف حال أهل الإيمان الكمّل ، فقال - عند قوله تعالى : ﴿ وتوكّل على الحي الذي لا يموت ... ﴾ - :

((إشارة إلى أنّ المرء الكامل لا يثق إلاّ بالله ؛ لأنّ التوكل على الأحياء المعرّضين للموت وإن كان قد يفيد أحياناً لكنه لا يدوم))[٤] .

ومراده أنّ الاعتماد لا يكون إلاّ على الله وحده ، وهو حقيقة التوكل .

---

(١) الذخيرة (٢٤٧/١٣) . وبيّن مراتب الناس حيال التوكل على الله ﷻ .

(٢) ومراده بالضمان الوارد في الآية : حفظ الله وكفايته للمتوكل عليه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي : كافيه . والله أعلم .

(٣) التسهيل (٢١٨/١) .

(٤) التحرير والتنوير (٥٩/١٩) .

٢٤ــ وعرف محمّد الأمين التوكل بقوله :

« التوكل على الله : الثقة به ، وإسناد الأمور وتفويضها إليه ، مع تعاطي الأسباب ؛ لأن الله أمر بها ، ولا بد مع تعاطيها من الثقة بأنه لا يقع إلاّ ما أراد الله تعالى »[١] .

٢٥ــ وبيّن أنّ التوكّل لا يكون إلاّ على من يستحقّ العبادة ، وهو الله جلّ وعلا ، فقال - عند تفسير سورة الفاتحة - :

« وإتيانه بقوله : ﴿ إياك نستعين ﴾ بعد قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلاّ على من يستحق العبادة ؛ لأن غيره ليس بيده الأمر ، وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيّناً واضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكّل عليه ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكّلت ﴾[٣] »[٤] .

---

(١) معارج الصعود (٣٠٧) .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٤) أضواء البيان (١/١٠٤) . وذكر الشيخ ثمرات التوكل ، فقال - عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ... ﴾ - : « دليل واضح على أنّ التوكل الصادق على الله ، وتفويض الأمور إليه : سبب للحفظ والوقاية من كل سوء ... وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون التوكل على الله سبباً للحفظ والوقاية من السوء جاء مبيّناً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ﴾ ، وقوله : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ » . أضواء البيان (٧/٨٩) .

ثانياً : صلة الأسباب بالتوكل

يقرن العلماء في حديثهم عن التوكل الحديث عن تعاطي الأسباب ، إذ إنّ تعاطيها لا يقدح في التوكل على الله ﷻ كما يظنه غالب الصوفية الذين أعرضوا عن الأسباب بالكلية[١] .

وقابلهم آخرون[٢] يرون الالتفات إلى الأسباب بالكلية ، واعتماد القلب والجوارح عليها من غير نظر إلى مسببها .

وكل قول منهما تضمن الإفراط أو التفريط .

ولذا قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد[٣] ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في

---

(١) ومما يدل على انحرافهم في مفهوم التوكل ما جاء عنهم من تعريفات للتوكل أسوق إليك شيئًا منها :
قال سهل التستري وهو يتحدث عن مقام التوكل عند الصوفية : « أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله ﷻ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة ولا تدبير » . الرسالة القشيرية (٤٦٦/١) . ط. دار الكتب الحديثة – مصر ، تحقيق عبدالحليم محمود .
ومراده أن المتوكل على الله ينبغي له أن يقصد ولا يتحرك في هذه الحياة لتأمين لوازم الحياة ، وإلا لا يوصف بأنه متوكل على الله .
وقال ذو النون المصري : « التوكل : ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة » .
وقال أيضًا : « التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب » . وهو صريح في ترك الأسباب . انظر الرسالة القشيرية (٤٦٨/١-٤٧٠) .

(٢) وهو قول الماديين والعقلانيين قديماً وحديثاً .

(٣) الالتفات إلى الأسباب ضربان : أحدهما شرك والآخر عبودية وتوحيد ، فالشرك : أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها نافعة بذاتها ، فهو معرض عن المسبب لها . وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها ، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب . وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب واعتقاد أنها بيده ، فإن شاء منعها اقتضاءها ، وإن شاء جعلها مقتضية .

الشرع[1] .

وقد بين أئمة المالكية الصواب في تعاطي الأسباب ، وأنّ القلب يعتمد على الله وحده حال تعاطيها من خلال أقوالهم الآتية :

٢٦ـ قال ابن بطال رادًّا على الصوفية إعراضهم عن الأسباب - عند شرحه لحديث هجرته عليه الصلاة والسلام وهو يعدد الفوائد - :

((وفيه اتخاذ الفضلاء والصالحين الزاد في أسفارهم ، وردّ قول من أنكر ذلك من الصوفية ، وزعم أنّ من صحّ توكّله ينـزل عليه الطعام من السماء إذا احتاج إليه ! ولا أحد أفضل من رسول الله ﷺ ولا من صاحبه وصديقه ، وهما كانا أولى بهذه المنـزلة ، ولو كانت كما زعموا ما احتاجا إلى سفرة فيها طعام))[2] .

٢٧ـ ونقل قول الطبري محتجًّا به على أهمية الأخذ بالأسباب ، ونصّه :

((ومن اتباع سنته سعي فيما لا بد له من مطعم ومشرب وملبس ، كما قال تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ ، ومن سنته أن يحترز من عدوّه كما فعل النبي ﷺ يوم أحد من مظاهرته بين درعين ، وتغفره بمغفر يتقي به سلاح المشركين ، وإقعاده الرماة على فم الشعب ليدفعوا من أراد إتيانه ، وكصنيعه الخندق حول المدينة حصناً للمسلمين وأموالهم ، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ، ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد ؛ من تحولهم عن منازلهم مرة إلى الحبشة ، ومرة إلى مدينته ﷺ ، خوفاً على أنفسهم من مشركي مكة وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم إياهم))[3] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي (٢٤٣/٤) كتاب التوحيد والتوكل ، وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات .

(٢) شرح صحيح البخاري (٩٣/٩-٩٤) .

(٣) شرح البخاري (٤٠٦/٩) .

٢٨ـــ وأيّد[١] « مقالة الحسن البصري بقوله قد أحسن حين ذكر له قصة عامر ابن عبدالله[٢] ، وأنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء ، فحال الأسد بينهم وبين الماء ، فجاء عامر إلى الماء وأخذ منه حاجته ، فقيل له : قد خاطرت بنفسك ! قال : لأن تختلف الأسنة في جوفي خير لي من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه . فقال الحسن : قد خاف من كان خيراً من عامر : موسى عليه السلام حين قيل له : ﴿ إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقّب ... ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب ﴾[٤] .

قالوا : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله عليه نفوس بني آدم كاذب ، وقد طبعهم الله على الهرب مما يضرّهم ، وقد أمر الله عباده بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وقال تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه ﴾ ، فأحلّ للمضطر ما كان حرم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاغتذاء به ، ولم يأمره بانتظار طعام ينـــزل عليه من السماء ، ولو ترك السعي في طلب ما يتغذى به حتى هلك كان لنفسه قاتلاً ، وقد كان رسول الله ﷺ يتلوّى من الجوع ما يجد ما يأكله ، ولم ينـــزل عليه طعام من السماء ، وهو أفضل البشر ، وكان يدخر لنفسه قوت سنة حين فتح الله عليه الفتوح[٥] »[٦] .

وقد أطال في ردّه على الصوفية الأغمار ، وما أتي القوم إلاّ بسبب قلة بضاعتهم

---

(١) لا يزال النقل عن الطبري .

(٢) هو عامر بن عبدالله ، وهو الذي يقال له : ابن عبدالقيس ، يكنى أبا عمرو ، وقيل : أبا عبدالله ، من بني تيم . قال عنه مالك بن دينار : هذا راهب هذه الأمة . كان من سادات التابعين وعبادهم . مات سنة ٥٥هـــ . انظر : صفة الصفوة (١٤١/٣) ، وتهذيب التهذيب (٧٧/٥) ، والحلية (٨٧/٢) .

(٣) سورة القصص : ١٨ .

(٤) سورة القصص : ٢١ .

(٥) خرجه البخاري في كتاب النفقات، باب حبس الرجل قوت سنة على أهله (٥٠١/٩) برقم (٥٣٥٧).

(٦) شرح صحيح البخاري (٤٠٧/٩-٤٠٨) .

في العلم ، وتفشّي الجهل في صفوفهم[1] .

٢٩ــ ثم ختم نقله لمقالة الطبري النفيسة مؤكداً وملخّصاً لما سبق في وجوب الأخذ بالأسباب وتعاطيها . فبعد أن ذكر حدّ التوكّل بأنه الاعتماد على الله ، قال :

« بعد استفراغ الوسع في السعي فيما بالعبد له حاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي فيه لا فيما قاله الزاعمون أن حده : الاستسلام للسباع ، وترك الاحتراز من الأعداء ، ورفض السعي للمكاسب والمعاش ، والإعراض عن علاج العلل !! لأنّ ذلك جهل وخلاف لحكم الله في عباده وخلاف حكم رسوله في أمته ، وفعل الأئمة الراشدين »[2] .

٣٠ــ وأشار ابن عطية إلى ارتباط التوكل بتعاطي الأسباب ، فقال :

« الذي أقول : إنّ التوكل الذي أمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع ، وهو الذي في قوله ﷺ : « **قيّدها وتوكّل** » ، فقد جعله متوكّلاً مع التقييد ، والنبي ﷺ رأس المتوكّلين ، وقد تسبب عمره كله ، وكذلك السلف كله » .

٣١ــ ثم ذكر ما وجه الله به جماعة المسلمين ، فقال :

« وللمسلمين جميعاً قال الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾[3] ، ولهم قال : ﴿ وعلى الله فتوكّلوا ﴾[4] ، وقول النبي ﷺ – في مدح السبعين ألفاً من أمته – : « **وعلى ربهم يتوكّلون** » ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملةً واحدةً ، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب ، بل كان يغزو ويأخذ

(١) قال ابن الجوزي : « قلة العلم أوجبت هذا التخليط ، ولو عرفوا ماهية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد » . تلبيس إبليس (٢٨٦) . ط. دار الكتب العلمية .

(٢) شرح البخاري (٩/٤٠٨) .

(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٤) سورة المائدة : ٢٣ .

سهامه ، وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء ، وأما ترك التسبب في الطبّ فسهل ، والكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة ، فكيف بمن يحتسب ؟))[1] .

٣٢ــ وذكر القاضي عياض أنّ ((كلّ سبب مقطوع به غير قادح في التوكّل ، كالأكل للغذاء ، والشرب للري لا يقدح في التوكّل ، وكذلك المظنون كالطبّ للبرء ، ولبس الدرع للتحصّن من العدوّ ...))[2] .

٣٣ــ وبعد ذكره حدّ التوكّل قال :

((... واتباع سنة نبيه فيما لا بد منه من مطعم ومشرب ، والتحرز من العدوّ ، كما فعل ﷺ وفعله الأنبياء))[3] .

٣٤ــ ثم نقل قول الطبري السابق ، وعقّب عليه بقوله :

((... بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته ، والثقة أنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرًّا سبب ولا أحد ، والكل من الله وحده))[4] .

ومراده أنه لا يعتمد على السبب لذاته ؛ لأنه لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرًّا ، وإنما يعتمد على الله تعالى وحده مسبب الأسباب .

٣٥ــ وذكر القرطبي مقالة الصوفية في التوكّل بأنه ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب ، فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكل ، ثم قال :

((قال سهل : من قال إنّ التوكّل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيّباً ﴾[5] ، فالغنيمة

---

(١) المحرر الوجيز (٢٠٣/٧) .

(٢) إكمال المعلم (٦٠٢/١) .

(٣) إكمال المعلم (٦٠٤/١) .

(٤) إكمال المعلم (٦٠٤/١) .

(٥) سورة الأنفال : ٦٩ .

اكتساب . وقال تعالى : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان ﴾[1] ، فهذا عمل . وقال النبي ﷺ : « **إنّ الله يحبّ العبد المحترف** »[2] .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يفرضون على السرية » .

٣٦ــ وعند قول الله ﷻ : ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾[3] قال :

« وهو ردّ على الصوفية الجهلة الأغمار الذين يقتحمون المهامهَ والقفار زعماً أنّ ذلك هو التوكّل على الله الواحد القهّار ![4] هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد ، مع معرفته بربه وتوكله على ربّ العباد »[5] .

٣٧ــ ثم بيّن أنّ القلب لا يطمئنّ ولا يلتفت إلى الأسباب ، بل إلى مسبب الأسباب ، وذلك « لأنّ الأسباب وسائط أمر بها عباده من غير اعتماد عليها »[6] .

ثم ذكر أقسام المتوكّلين ، فقال :

« على حالين :

الأول : حال التمكن في التوكل ، فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلاّ بحكم الأمر .

---

(١) سورة الأنفال : ١٢ .

(٢) قال في فيض القدير : أخرجه البيهقي والطبراني والحكيم الترمذي (٣٦٨/٢) برقم (١٨٧٣) .
وقال في كشف الخفاء : في سنده أبو الربيع متروك . وفي معناه ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود ﷺ : « إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل الدنيا ولا الآخرة » . رواه أحمد وابن المبارك والبيهقي وابن أبي شيبة . انظر كشف الخفاء (٢٩١/١) .

(٣) سورة الكهف : ٦٢ .

(٤) قال القرطبي : « قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج من مكة على التوكل بغير زاد . فقال له أحمد : اخرج في غير القافلة . فقال : لا إلاّ معهم . قال : فعلى جرب الناس توكّلت ! » . التفسير (٤١١/٢) .

(٥) التفسير (١٣/١١) .

(٦) التفسير (٦٢/١٣) .

الثاني : حال غير المتمكن ، وهو الذي يقع له الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً ، غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ، فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين »(١) .

٣٨ــ وهذا التقسيم للمتوكّلين نص عليه شيخه أبو العباس القرطبي(٢) .

٣٩ــ وبيّن أنّ تعاطي الأسباب لا ينافي التوكّل ؛ فعند إيراده قصة إبراهيم وسارة مع الجبار ، وقول إبراهيم لها : « **فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام** »(٣) ، قال :

« وفيه ما يدل على أنّ العمل بالأسباب المعتادة التي يرجى بها دفع مضرّة أو جلب منفعة لا يقدح في التوكّل ، خلافاً لما ذهب إليه جهّال المتوكّلة »(٤) .

٤٠ــ وفي موضع آخر قال :

« فمن أهمل شيئاً من الأسباب المعتادة ، زاعماً أنه متوكّل فقد غلط ؛ فإن التوكّل لا يناقض التحرز ، بل حقيقته لا تتم إلاّ لمن جمع بين الاجتهاد في العمل على سنة الله ، وبين التفويض إلى الله تعالى ، كما فعل رسول الله ﷺ »(٥) .

٤١ــ وذكر القرافي في تعاطي الأسباب كلاماً بديعاً بعد تعريفه للتوكل وهل من شرطه ترك الأسباب ، قال :

« قال المحققون : لا يشترط ذلك ، بل الأحسن ملابسة الأسباب ؛ للمنقول والمعقول :

---

(١) تفسير القرطبي (١٩٠/٤) .

(٢) انظر المفهم (٤٦٨/١) . وجُهَّال المتوكلة : هم المتصوفة ومن نحا نحوهم ممن اعتبر التواكل توكّلاً .

(٣) خرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب في فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (١٨٤٠/٤) برقم (٢٣٧١) .

(٤) المفهم (١٨٦/٦) .

(٥) المفهم (٥٨/٦) .

أما المنقول : فقوله تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾[١] ، وأمر تعالى بملابسة أسباب الاحتياط والحرز في غير موضع من كتابه العزيز ، ورسوله ﷺ سيد المتوكّلين ، وكان يطوف على القبائل ويقول : « **من يعصمني حتى أبلغ رسالات ربّي** »[٢] ، وكان له جماعة يحرسونه من العدوّ حتى نزل قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[٣] ، ودخل مكة مظاهراً بين درعين في كتيبته الخضراء من الحديد[٤] ، وكان في آخر عمره وأكمل أحواله يدخر قوت عياله سنة .

وأما المعقول : فهو أن الملك العظيم إذا كانت له عوائد في أيام لا يحسن إلاّ فيها ، أو أبواب لا يخرج إلاّ منها ، أو أمكنة لا يوقع إلاّ فيها ؛ فالأدب معه ألا يطلب منه فعل إلاّ حيث عوّده ، وأن لا يخالف عوائده ، بل يجري عليها ، والله سبحانه ملك الملوك وأعظم العظماء ، بل أعظم من ذلك ، رتب ملكه على عوائد أرادها وأسباب قدرها ، وربط بها آثار قدرته ، ولو شاء لم يربطها . فجعل الري بالشرب ، والشبع بالأكل ، والاحتراق بالنار ، والحياة بالتنفس في الهواء ، فمن رام من الله تعالى تحصيل هذه الآثار بدون أسبابها فقد أساء الأدب ، بل يلتمس فضل الله

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٢) خرجه الإمام أحمد (٣/٣٢٢) ، وابن حبان (١٢/١٧٢) برقم (٦٢٧٤) بلفظ : " من يؤويني " . وذكره الهيثمي في المجمع (٦/٤٦) وقال : رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) سورة الأنفال : ٦٧ .

(٤) ومظاهرته عليه الصلاة والسلام بين الدرعين كان يوم أحد ، كما خرجه الإمام أحمد (٣/٤٤٩) ، والبيهقي في الشعب (٢/٨٧) ، والبغوي في شرح السنة (٢٦٥٨) (٢٦٥٩) .

وأما دخوله مكة فقد لبس على رأسه المغفر ، كما في البخاري (٨/١٥) برقم (٤٢٨٦) ، ومسلم (١٣٥٧) .

قال السندي : قوله " ظاهر بين درعين " أي : أوقع الظهار بينهما بأن جعل أحدهما ظهارًا للأخرى ، أو الظهار بمعنى المعاونة ، والمراد أنه لبسهما ، وفيه أن التوكل لا يقتضي ترك مراعاة الأسباب .

تعالى في عوائده »[1] .

٤٢ــ ثم بيّن أنّ الخلائق ينقسمون حيال هذه الأسباب أقساماً ثلاثةً فقال :

« قسم عاملوا الله تعالى باعتماد قلوبهم على قدرته مع إهمال الأسباب والعوائد ، فلجوا في البحار في زمن الهول ، وسلكوا القفار العظيمة المهلكة بغير زاد ... فهؤلاء فاتهم الأدب ، وهم جماعة من العبّاد .

وقسم لاحظوا الأسباب وأعرضوا عن التوكّل ، وهم عامة الخلق ، وهم شرّ الأقسام ، وربما وصلوا بذلك للكفر .

وقسم اعتمدت قلوبهم على قدرة الله تعالى ، وطلبوا فضله في عوائده ، ملاحظين في تلك الأسباب مسبّبها وميسّرها ، فجمعوا بين التوكّل والأدب ، وهؤلاء هم النبيّون والصدّيقون وخاصة عباد الله ، العلماء بالله والعارفون بمعاملته . جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه »[2] .

٤٣ــ وقسّم ابن جزي الأسباب من حيث الفعل والترك إلى ثلاثة أقسام :

« **أحدها** : سبب معلوم قطعاً ، قد أجراه الله تعالى ؛ فهذا لا يجوز تركه ، كالأكل لدفع الجوع ، واللباس لدفع البرد . **والثاني** : سبب مظنون ، كالتجارة وطلب المعاش ، وشبه ذلك ؛ فهذا لا يقدم[3] فعله في التوكل ، لأن التوكل من أعمال القلب ، لا من أعمال البدن ، ويجوز تركه لمن قوي عليه . **الثالث** : سبب موهوم بعيد ؛ فهذا يقدم[4] فعله في التوكّل »[5] .

---

(١) الذخيرة (١٣/٢٤٨) .

(٢) الذخيرة (١٣/٢٤٨-٢٤٩) ، وترتيب الفروق (٢/٣٧٨) .

(٣) كذا في النص ، والصواب : « لا يقدح » .

(٤) والصواب : « يقدح » كما سبق .

(٥) التسهيل (١/٢١٨) .

٤٤ـــ وألمح الشاطبي إلى أهمية تعاطي الأسباب بقوله :

((الصحابة قد كانوا حازوا رتبة التوكل ، ورؤية إنعام النعم من المنعم لا من السبب ، ومع ذلك فلم يتركوا الدخول في الأسباب العادية التي ندبوا إليها ، ولم يتركهم النبي ﷺ مع هذه الحالة التي تسقط حكم الأسباب وتقضي بانخرام العوائد ، فدل على أنها العزائم التي جاء الشرع بها ؛ لأن حال انخراق العوائد ليس بمقام يقام فيه ، وإنما محله الرخصة ، كما تقدم ذكره ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : ((**قيّدها وتوكّل**)) ؟))[1] .

٤٥ـــ ونقل محمّد المختار قول الجمهور في تعاطي الأسباب والتقسيم الذي ذكره القرطبي فيما مضى عن حال الناس مع تعاطي الأسباب على سبيل الإقرار[2] .

٤٦ـــ وذكر ابن عاشور عند قول الله ﷻ : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[3] :

((وبعد أن أمر القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمرهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وخبر رسوله ...))[4] .

٤٧ـــ وذكر محمّد الأمين الأدلة على أنّ تعاطي الأسباب لا يقدح في التوكل ، فقال : ((ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى لمريم : ﴿ وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ﴾[5] مع أنه تعالى لو أراد لأسقطه لها بدون هزّ منها ، ومن أوضح الأدلة على ذلك قول يعقوب – الذي وصفه الله بالعلم في قوله : ﴿ وإنه لذو

---

(١) الموافقات (٢/٥٠٧) ، والحديث مضى تخريجه ص٢٤٦ .

(٢) انظر نور الحق الصبيح (٩/٧٢٨) .

(٣) سورة المائدة : ٢٣ .

(٤) التحرير والتنوير (٤/١٦٥) .

(٥) سورة مريم : ٢٥ .

علم لما علّمناه ﴾[1] - : ﴿ وقال يا بَنِيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة ﴾ ، محافظةً عليهم من العين ، ثم قال : ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون ﴾[2] ، فقد أخذ بالأسباب والحيطة ، وصرح بأن الاعتماد على الله تعالى وحده ، فهو متوكّل وآخذ الأسباب .

٤٨ــ ومما يدل على أنّ السبب لا ينفع إلاّ بإرادة الله تعالى : ما قصّه الله في سورة الأنبياء وغيرها عن إبراهيم عليه السلام ، فالنار طبيعتها المستمرة الإحراق ، ولكن عندما لم يرد الله لها أن تؤثّر في إبراهيم أحرقت الحطب ، وكانت عليه برداً وسلاماً في آن واحد ، كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾[3] .

فالمؤثّر في الحقيقة هو ربّ العالمين ، ولو شاء أن تتخلّف مقتضيات الأسباب لتخلّفت ، كما أنه لو شاء أن يجعل ما لم تجر العادة بأن يكون من الأسباب سبباً لجعله كذلك))[4] .

ومن خلال ما تقدّم من أقوال المالكية تعلم حقيقة التوكّل عندهم ، وأنه من أعلى المقامات ، وأنّ المتعاطي للأسباب لا يقدح فعله في اعتماده على الله عز وجل ما دامت الأسباب أسباباً مشروعةً ، محذّرين في الوقت نفسه من الاعتماد على الأسباب وحدها دون مسبّبها ، أو نبذ تلك الأسباب بالكلية ، فذاك عجز وضلال ينافي التوكّل ، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ولا بدّ مع هذا من مباشرة الأسباب .

---

(١) سورة يوسف : ٦٨ .

(٢) سورة يوسف : ٦٧ .

(٣) سورة الأنبياء : ٦٨-٦٩ .

(٤) معارج الصعود (٢١٤ و ١١٣ و ٣٠٧) .

المسألة الرابعة : الصبر

للصبر منـــزلة عظيمة من الإيمان ، فقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم في تسعين موضعًا ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **فما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر** » . رواه الشيخان[1] .

وقال علي رضي الله عنه : « ألا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بان الجسد » ، ثم رفع صوته فقال : « ألا لا إيمان لمن لا صبر له »[2] .

وكلام أئمة المالكية عن هذا المقام - الصبر - في أمرين :

أولاً : معنى الصبر اصطلاحًا .

ثانيًا : أنواع الصبر .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة (٣/٣٣٥) برقم (١٤٦٩) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر (٢/٧٢٩) برقم (١٠٥٣) .

(٢) خرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة برقم (١٥٦٩) ، وأبو نعيم في الحلية (١/٧٦) . وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/١٤٦) .

أولاً : معنى الصبر اصطلاحًا

الصبر في اللغة : الحبس ، كما قال الجوهري[1] : « الصبر حبس النفس عن الجزع ، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبرًا ، وصبرته أنا حبسته ، قال الله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ... ﴾[2] .

وقد أوضح علماء المالكية أنّ المعنى الشرعي للصبر هو نفس المعنى اللغوي ولكنه الحبس فيما يحمد شرعًا :

١ـــ من ذلك ما خرجه الإمام مالك بسنده عن أبي سعيد الخدري أنّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، ثم قال : « **ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر** »[3] .

فرواية الإمام مالك لهذا الحديث وما ترجم له بقوله : « باب التعفف عن المسألة » يبيّن المعنى الشرعي للصبر ، وهو حبس النفس عن المسألة رجاء ما عند الله عز وجل .

٢ـــ يوضح هذا المعنى ما ذكره ابن عبدالبر عند هذا الحديث :

« وفيه الحض على التعفف والاستغناء بالله عن عباده والتصبر ، وأنّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان ، وفي هذا كله نهي عن السؤال وأمر بالقناعة والصبر ... »[4] .

---

(١) الصحاح (٧٠٦/٢) مادة صبر . ط. دار العلم للملايين – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـــ ، وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٢٩/٣) ط. دار الجيل .

(٢) سورة الكهف : ٢٨ .

(٣) الموطأ (٧٦٢/٢) باب التعفف عن المسألة .

(٤) التمهيد (١٣٢/١٠) .

٣ـــ وبين أنّ الصوم يسمى صبرًا في لسان العرب ، ثم نقل قول أبي بكر الأنباري في أنّ « الصوم يسمى صبرًا ، لأنه حبس النفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات »[1] .

فبين فيما نقله أن الصبر هو حبس النفس عن الشهوات ، من مطعم وغيره .

٤ـــ وقال ابن بطال :

« الصبر في لسان العرب : حبس النفس عن المطلوب حتى يدرك ، ومنه نهيه ﷺ عن صبر البهائم ، يعني أنه نهى عن حبسها على التمثيل بها ، ورميها كما ترمى الأغراض »[2] .

٥ـــ وفسر فيما نقله كلام علي رضي الله عنه السابق : « الصبر من الإيمان بمنـــزلة الرأس من الجسد » ، فقال :

« وصدق علي ؛ وذلك أنّ الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، فمن لم يصبر على العمل بشرائعه لم يستحق اسم الإيمان بالإطلاق ، والصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من جسد الإنسان الذي لا تمام له إلاّ به ، وهذا في معنى حديث أنس وجابر أن الصبر نصف الإيمان ، وعامة المواضع[3] التي ذكر الله فيها الصبر وحث عليه عباده إنما هي مواضع الشدائد ، ومواطن المكاره التي يعظم على النفوس ثقلها ، ويشتد عندها جزعها ، وكل ذلك محن وبلاء ، ألا ترى قوله ﷺ للأنصار : « **لن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر** » . »[4] .

---

(١) التمهيد (١٠/١٣٢) .

(٢) شرح البخاري (٩/٢٨٥) .

(٣) إن قصد بقوله « عامة المواضع » أكثرها فهذا له حال ، وإن قصد كلها فليس بصحيح ، قال تعالى : ﴿ واصطبر لعبادته ﴾ ، فهذا صبر على الطاعة بنص الآية .

(٤) شرح البخاري (٩/٢٨٥) .

٦ــ وبين الطرطوشي معنى الصبر ، فقال :

((الصبر حبس النفس على الأوامر والمكاره))[١] .

٧ــ وحيث إن حبس النفس عما تنـزع إليه من أعظم مكروهاتها فقد عرف ابن العربي الصبر بأنه ((حبس النفس عما تكرهه من تسريح الخواطر وإرسال اللسان وانبساط الجوارح على ما يخالف حال الصبر))[٢] .

ولما كان الحبس الذي تكرهه النفس منعها من الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن الفعل المخالف للشرع :

٨ــ فقد نقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًّا له في بيان معنى الصبر ، فقال :

((وأحسن ما فسر به الصبر : أنه حبس النفس عن المكروه ، وعقد اللسان عن الشكوى ، والمكابدة في تحمله وانتظار الفرج))[٣] .

٩ــ ونظرًا لأن النفس تنفر من كل أمر يخالف هواها ، فقد نبه ابن عاشور إلى أن الصبر ((هو عبارة عن احتمال النفس أمرًا لا يلائمها ، إما لأن مآله ملائم ، أو لأن عليه جزاءً عظيمًا ، فأشبه ما مآله ملائم ، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر ، فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم))[٤] .

١٠ــ وذكر المازري أنّ الصبر ((هو منع النفس من التشفي والانتقام ، أو منعها من غير ذلك))[٥] .

---

(١) سراج الملوك (٨٤) .

(٢) أحكام القرآن (٤/٧٦-٧٧) .

(٣) نور الحق (٩/٦٥٢) . وانظر فتح الباري (١١/٣٠٣) .

(٤) التحرير والتنوير (١/٤٧٨) .

(٥) إكمال المعلم (٨/٣٣٦) .

١١ـــ وقال التتائي :

((الصبر هو حبس النفس وربط القلب بخاتم الامتناع مما حل بها))[١] .

١٢ـــ وعرف محمّد الأمين الصبر بأنه ((حبس النفس))[٢] .

ومرادهم قصر النفس على كل أمر يكون فيه نجاتها وسلامتها ، وإن كان في ظاهره مخالفًا للشهوات والرغبات ، إلاّ أن مآله يكون مآلاً حسناً .

١٣ـــ ولذا قال القرطبي :

((الصبر الحبس ... وهو باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ، ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين))[٣] .

وبهذه النقول عن أئمة المالكية ما يكفي إن شاء الله تعالى لبيان المعنى الاصطلاحي للصبر عندهم .

---

(١) تنوير المقالة (٥٦٩/٢) .

(٢) معارج الصعود (٥٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٣٧١/١-٣٧٢) .

ثانيًا : أنواع الصَّـــبر

ذكر المالكية أنّ للصبر أنواعًا بيّنوها بعد حديثهم عن المعنى الاصطلاحي للصبر ، وبذلك يكتمل ما ذكروه عن هذا الخلق العظيم - الصبر - ، وهو : الصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، والصبر على أقدار الله المؤلمة .

١٤ـــ ويحسن البداءة هنا بما ذكره ابن العربي ، حيث قسم الصبر إلى أنواع ثلاثة ، فقال :

« الأول : الصبر على الطاعة .. الثاني : الصبر على[1] المعاصي ... الثالث : الصبر على الأذى ، قال الله سبحانه : ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ﴾[2] ، وذلك هو الصبر على البلاء »[3] .

١٥ـــ وذكر القرطبي نحو قول ابن العربي هذا عند قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾[4][5] .

١٦ـــ وقال ابن بطال :

« أرفع الصابرين منـــزلة عند الله من صبر عن محارم الله ، وصبر على العمل بطاعة الله ، من فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته »[6] .

١٧ـــ ثم ذكر الأقسام الثلاثة للصبر مجتمعة فيما رواه عن علي بن أبي طالب ﷺ أنّ النبي ﷺ قال : « **الصبر ثلاثة : فصبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر**

---

(١) كذا في النص ، والصواب : « عن المعاصي » .

(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٣) عارضة الأحوذي (١٧٩/٨) .

(٤) سورة البقرة : ٤٥ .

(٥) تفسير القرطبي (١٧٤/٢) .

(٦) شرح صحيح البخاري (٢٨٤/٩) .

على المعصية »[1][2] .

١٨ــ ونحو من قول ابن بطال ما ذكره الطرطوشي عند قول الله تعالى : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[3] بقوله :

« أخبر الله تعالى أنه أثابهم جنته بصبرهم ، يعني صبرتم على طاعة الله ، وصبرتم عن معصية الله ... فمن أمارات حسن التوفيق ، وعلامات السعادة الصبر في الملمات ، والرفق عند النوازل »[4] .

فانتظم في قوله ذلك أنواع الصبر : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على الأقدار المؤلمة .

١٩ــ وفي موضع آخر قال :

« الصبر على أربعة أقسام ، فأول أقسامه وأولاها : الصبر على امتثال أمر الله ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، والثاني : الصبر على ما فات إدراكه من مسرة أو تقضت أوقاته من مصيبة ، والثالث : الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة ترجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها ، والرابع : الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف ، وجميع أقسامه محمودة بكل لسان وفي كل ملة ، وعند كل أمة مؤمنة أو كافرة »[5] .

فما ذكره أخيرًا لا يتنافى مع كلامه السابق ، إذ إنّ الصبر على الامتثال والانتهاء

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﷺ برقم (٣٨٤٦) . وأورده المناوي في فيض القدير (٥١٣٧) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٦/١) ورمز له بالضعف . وقال ابن الجوزي : والحديث موضوع .

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٨٤/٩) .

(٣) سورة الرعد : ٢٤ .

(٤) سراج الملوك (٨٤) .

(٥) سراج الملوك (٨٥) .

عما نهى عنه هو الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، وما تبقى كله يدخل ضمن الصبر على الأقدار المؤلمة .

٢٠ــ وأوضح ابن جزي أنّ للصبر أربعة أقسام ، فقال :

« صبر على البلاء ، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع ، وصبر على النعم ، وهو تقييدها بالشكر ، وعدم الطغيان ، وعدم التكبر بها ، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها ، وصبر عن المعاصي بكف النفس عنها »(١) .

وهذه الأقسام للصبر لا تخرج عما تقدم ، إذ إن الصبر على النعم يؤول في الحقيقة إلى الصبر على الأقدار ؛ لأن الابتلاء قد يكون بالسراء والضراء ، كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٢) .

٢١ــ ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًّا له في تقسيم الصبر ، فقال :

« ... ثم الصبر على ثلاثة أقسام : صبر عن المعصية فلا يفعلها ، وصبر على الطاعة فلا يتركها ، وصبر على البلية فلا يشكو ربه فيها ... والمرء لا بد له من كل واحدة من هذه الثلاث »(٣) .

٢٢ــ وهذا التقسيم الثلاثي للصبر ذكره محمّد المكي ، فقال :

« صفة الصبر تقتضي الصبر عن المعاصي والخصال الذميمة ، وذلك بالابتعاد عنها وعدم تناولها ، والصبر على الطاعات والخصال الحميدة ، وذلك بالتمسك بها وعدم إهمالها ، والصبر عند مفاجآت الأقدار ، وذلك بعدم السخط من أجلها وعدم

---

(١) التسهيل (١/١١٥) .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٥ .

وفي هذا المعنى قول أبي تمام :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله أدنى القوم بالنعم

انظر خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر الحموي (٢/٣٧٧) ، ط. دار الكتب العلمية – بيروت ، ط. الأولى ١٩٨٧م .

(٣) نور الحق (٩/٦٥٤) .

الاعتراض على الله فيها »[1] .

٢٣ــ وقد أشار الإمام مالك إلى نوع من أنواع الصبر ، وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة ، وذلك فيما رواه بسنده من حديث النهي عن المسألة الذي جاء في آخره :

« وما أعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر »[2] .

٢٤ــ ومن ذلك قول ابن أبي زيد القيرواني :

« وحسن التعزي والتصبر أجمل »[3] .

ومراده الصبر على الأقدار المؤلمة عند حلول الموت وترك البكاء .

٢٥ــ ومثل ذلك - أي الصبر على الأقدار المؤلمة - ما ذكره القرطبي عند حديث أبي هريرة : « **ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء** »[4] بقوله :

« وفائدة هذا الحديث احتساب المصائب والصبر عليها ، وانتظار الثواب عليها ، والخوف من عدم المصائب وبسط الدنيا »[5] .

٢٦ــ وعند حديث الساحر والغلام في تفسير سورة البروج[6] وما لقيه الغلام من الصلب والقتل قال :

« وهذا الحديث كله إنما ذكره النبي ﷺ لأصحابه ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه

---

(١) التيسير (١٣٠/٥) .

(٢) سبق تخريجه ٢٦١ .

(٣) الرسالة (٦٨) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز (٢١٦٣/٤) رقم (٢٨٠٩) .

(٥) المفهم (١٢٧/٧) .

(٦) خرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٢٣٠٠/٤) برقم (٣٠٠٥) .

في الحق وتمسكه به))[١] .

فهذا الصبر الجليل الذي ذكروه هنا هو الصبر على أقدار الله المؤلمة ، ولا ريب أنّ المؤمن إذا كان مأمورًا بالصبر على تلك الأقدار المؤلمة فمن باب أولى أن يؤمر بالصبر على امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فالدين أمر ونهي كما لا يخفى .

٢٧ــ وقد جعل محمّد الأمين ذلك سببًا للفوز بالجنة عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾[٢] ، فقال :

((أي بسبب صبرهم في دار الدنيا على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخريًّا ، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله واجتناب نهيه))[٣] .

فجمع أنواع الصبر الثلاثة لنيل الفوز ، وهو المطلوب الأعظم في الآخرة .

وختامًا يتبين من كلام المالكية عن الصبر أنّ الصبر المحمود عندهم هو حبس النفس على طاعة الله ﷻ ، والانكفاف عن معصيته والصبر على قضائه وحكمه ، فمن حقق ذلك المقام فهو الصابر حقيقة ، وله حظ من قوله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحيةً وسلامًا ﴾[٦] .

---

(١) المفهم (٤٢٦/٧) .

(٢) سورة المؤمنون : ١١١ .

(٣) أضواء البيان (٨٢٩/٥) .

(٤) سورة البقرة : ١٥٥ .

(٥) سورة الزمر : ١٠ .

(٦) سورة الفرقان : ٧٥ .

المسألة الخامسة : التوبة

أفاض المالكية في كلامهم عن التوبة ، وتنوعت مسالكهم في إثبات حقيقة التوبة ، فمنهم من يذكر الشروط على أنها التوبة إذا اكتملت وتحققت ، وبعضهم يعبر عنها بالأركان .

وعلى كل حال فهذا لا يؤثر ؛ إذ العبرة بتحقق رجوع العبد إلى ربه ، واستقامته على طاعته ولا يضر بعد ذلك تعدد المسميات .

وسوف أبين كلام المالكية في التوبة من خلال الآتي :

أولاً : بيان معنى التوبة .

ثانيًا : بيان شروط التوبة .

أولاً : بيان معنى التوبة

التوبة في اللغة : الرجوع .

قال ابن فارس : « التاء والواو والباء كلمة واحدة تدل على الرجوع ، يقال : تاب من ذنبه ، أي رجع عنه »[1] .

وحقيقة التوبة في الشرع : الرجوع إلى الله ﷻ مما يكرهه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا[2] ، وهي عبادة لا يجوز أن تصرف إلاّ لله ﷻ ، وقد بين المالكية هذا المعنى :

١ـــ ومن ذلك ما ذكره ابن القاسم عن مالك : أنه سئل عن الرجل المحدود في القذف الذي يعرف بالصلاح والحالة الحسنة قبل القذف ، كيف يعرف من توبته حتى تقبل شهادته ، قال :

« إذا زاد خيرًا على حالته التي كان عليها ، والناس يزيدون في الخير ، وقد كان عمر بن عبدالعزيز عندنا بالمدينة رجلاً صالحًا ، ثم ولي الخلافة فزاد على حالته التي كان عليها وزهد في الدنيا ، فبهذا يعتبر وإن كان داعرًا حين ضرب في الحد في القذف فعرفت توبته ، فهذا تقبل شهادته ، فأرى إن أقام على الشهود البينة أنهم قد جلدوا في القذف ، فإن القاضي ينظر إلى حالهم اليوم وإلى حالتهم قبل اليوم ، فإن عرف منهم تزيدًا في الخير أو توبة عن حالة كانت لا ترضى قبل شهاداتهم »[3] .

فجعل الإمام مالك توبة ورجوع المحدود في القذف من تلك المعصية وغيرها من الآثام ، والإقبال على الخير والزيادة منه شرطًا لقبول شهادته .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة (١/٣٥٧) .

(٢) انظر قريبًا من هذا المعنى عند الطرطوشي في الدعاء المأثور (٢٢٧) .

(٣) المدونة (٦/٢٨٤-٢٨٥) .

٢ــ وأخذ ابن القاسم بقول مالك في ذلك ، فقال :

« لا تقبل شهادته حتى يحدث توبة وخيرًا مثل ما وصفت لك من قول مالك »[1] .

٣ــ وبين مالك أنّ المحارب المنفي لا يخلى سبيله حتى يصدق في توبته ورجوعه عن فعلته ، فحين سئل : كم يسجن حيث ينفى ؟ قال :

« يسجن حتى تعرف له توبة »[2] .

٤ــ وقال ابن وهب في بيان معنى الأواب بأنه « العبد يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب » .

٥ــ وبين ابن رشد معنى قول ابن وهب أنه الذي « كلما وقع في ذنب تاب منه ورجع إلى طاعة ربه ... » ، ثم أورد أثر ابن عباس في معنى الأواب : « أنه الذي حفظ ذنوبه ثم رجع عنها »[3] .

فبيّن معنى الأواب : أنه رجوع العبد عن الذنوب ، وهو معنى التوبة .

٦ــ ولذا فسر قول الله تعالى : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾[4] بأنه : « الرجاع إلى طاعة الله ، تواب إليه مما يكرهه منه »[5] .

٧ــ وبين القاضي عياض أنّ « التوبة من الذنب هي الندم عليه ، وأصله الرجوع يقال : تاب وثاب وآب وأناب ، بمعنى رجع ، استعمل منه في الرجوع عن

---

(١) انظر : المدونة (٦/٢٤٨) .

(٢) المدونة (٦/٢٩٩) .

(٣) البيان والتحصيل (١٨/٥١٣-٥١٤) .

(٤) سورة ص : ٤٤ .

(٥) المصدر نفسه (١٨/٥١٤) .

الذنب))[1] .

٨ــ ومثله ما ذكره القرطبي في بيان معنى التوبة بقوله :

((أصل التوبة الرجوع ، يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع ، وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه ، وعبد ثواب : كثير الرجوع إلى الطاعة))[2] .

٩ــ وأشار ابن أبي زيد لمعنى التوبة حين بين ما هو ضد للتوبة - وهو الإصرار - ، فقال عن التوبة إنها ((فريضة من كل ذنب من غير إصرار ، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود عليه))[3] .

١٠ــ وبعد أن بيّن الطرطوشي معنى التوبة لغة قال : ((فالتوبة في الشرع : الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع))[4] .

١١ــ وقال ابن عبدالبر :

((التوبة أن يترك ذلك العمل القبيح بالنية والفعل))[5] .

ومراده الرجوع عن ذلك العمل إلى طاعة الله عز وجل .

١٢ــ وعرف المازري التوبة من الذنب ، فقال :

((هي الندم عليه رعايةً لحق الله تعالى))[6] .

والذي يندم على فعل شيء لا يعود إليه في الغالب ، بل يرجع إلى الله تعالى

---

(١) إكمال المعلم (٨/٢٤٠) .

(٢) تفسير القرطبي (١/٣٢٤) .

(٣) الرسالة (١٩٤) .

(٤) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٧-٢٧٨) .

(٥) التمهيد (١٥/١٢) .

(٦) المعلم (٣/١٨٨) .

نادمًا ، وهو ما أشار إليه بقوله : « رعاية لحق الله تعالى » .

١٣ــ وأوضح ابن عطية أن التوبة من العبد : « الرجوع عن المعصية »[١] .

وفي موضع آخر قال :

« تاب معناه : رجع ، فتوبة العبد رجوعه عن المعصية إلى الطاعة »[٢] .

١٤ــ ولما كانت المعصية شرًّا والطاعة خيرًا قال في معنى « التوبة في عرف الشرع : الرجوع من شر إلى خير »[٣] .

١٥ــ وعند قوله تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له .. ﴾[٤] قال :

« معناه : أي ارجعوا وميلوا بنفوسكم ، والإنابة : الرجوع بالنفس إلى الشيء »[٥] .

١٦ــ ونظيره قول ابن العربي في التوبة إنها « رجوع العبد عن حالة المعصية إلى حالة الطاعة »[٦] .

١٧ــ وبين أبو العباس القرطبي معنى التواب أنه الذي يقع منه الذنب ثم يعود إلى التوبة[٧] .

فنص على أنّ التوبة الرجوع عن الإثم .

١٨ــ وقال ابن باديس : « التوبة : الرجوع إلى الله ، أي الرجوع من معصية

---

(١) المحرر الوجيز (٢٦٢/١) .

(٢) المصدر السابق (٥٢٤/١٤) .

(٣) المصدر نفسه (٥٣٢/٣) .

(٤) سورة الزمر : ٥٤ .

(٥) المحرر الوجيز (٥٥٣/١٢) .

(٦) أحكام القرآن (٢٣٧/١) .

(٧) المفهم (٨٥/٧) .

الله إلى طاعته))[1] .

١٩ــ وأوضح ابن عاشور ((أنّ أصل معنى " تاب " : رجع ، ونظيره بالمثلثة ، وقال : إنها رجوع من التائب إلى الطاعة ونبذ للعصيان))[2] .

٢٠ــ وعرف الشيخ محمّد الأمين التوبة بقوله :

((هي الرجوع عن الذنب ، والإنابة إلى الله بالاستغفار منه))[3] .

وبذلك يتبين أنّ المعنى الشرعي للتوبة هو الرجوع إلى الله تعالى ، كما قرره أئمة المالكية .

---

(١) تفسير ابن باديس (٢٢٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٣٨/١) .

(٣) أضواء البيان (٢٠٣/٦) .

ثانيًا : بيان شروط التوبة

بيّن المالكية أنّ حقيقة التوبة لا تتم إلاّ بتوفر شروطها والإتيان بها ، وإلا لم تصحّ التوبة ، ويمكن تقسيم هذه الشروط إلى قسمين :

الأول : الشروط المتعلقة بالذنب .

الثاني : اشتراط أجل للتوبة .

أولاً : الشروط المتعلقة بالذنب :

يرى المالكية تقسيم الذنب إلى قسمين : ذنب فيما بين العبد وبين ربه ، وذنب فيما بينه وبين الناس ، وعلى هذا فمنهم من يجعل الشروط للتوبة ثلاثة ، ومنهم من يزيد على ذلك شرطًا ، وعلى كل حال من ذكر ثلاثة شروط فيعني بها المتعلق بحق الله تعالى ، ومن زاد على الثلاثة فبسبب ما تضمنته من حق الآدمي ، والتوبة الصادقة لا بد أن تشتمل على سائر الحقوق وردها إلى أهلها والتحلل منها .

٢١ــ وأترك الكلام لهم في بيان تلك الشروط ، وهي كما بيّن الدسوقي(١) أن منها ما هو متعلق بالماضي ، ومنها ما هو متعلق بالحال ، ومنها ما هو متعلق بالمستقبل ، فجعل المتعلق باعتبار الحال : الإقلاع ، وباعتبار الماضي : الندم ، وباعتبار المستقبل : العزم على أن لا يعود . فأتت على جميع الأزمنة ، لكل منها حظ من التوبة ، ويعبر عنها بالأركان أو الشروط(٢) .

وهذه الشروط بالنسبة للتائب منها ما هو متعلق بقلبه ، ومنها ما هو متعلق بجوارحه :

٢٢ــ كما قال ابن باديس من خلال تعريفه للتوبة :

((... وذلك بالندم على ما فات ، والعزم على عدم العود إليه ، وهذا من عمل القلب ، وبالإقلاع عما هو متلبس به ، وهذا من عمل الجوارح))(٣) .

ولم يذكر ما يتعلق بالندم من جهة متعلقه ، وهو متعلق بالقلب كما لا يخفى .

فأما عن شرط الإقلاع فإنه مربوط بحالة محددة لا يتصور حصوله إلاّ إذا وجدت ، وهي حالة التلبس بالذنب ، كما أوضح ذلك الطرطوشي وهو يعدد

---

(١) هو محمّد بن عرفة الدسوقي ، شمس الدين الأزهري ، له من التصانيف : حاشية على الدردير . مات سنة ١٢٣٠هـ . انظر شجرة النور (٣٦٣/١) .

(٢) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤٠٧/١) . ط. دار إحياء الكتب العربية .

(٣) تفسير ابن باديس (٢٢٤) .

شروط التوبة بقوله :

٢٣ـــ « أولاً : الإقلاع عما هو متضمخ[١] به والخروج عنه . ثانيًا : الندم على ما فعل من المخالفات . ثالثًا : العزم على أن لا يعود لمثلها . فإن اختلّ منها ركن لم تصح توبته »[٢] .

٢٤ـــ وكذا ما ذكره محمّد الأمين مبينا شروط التوبة بقوله :

« الإقلاع عن الذنب إن كان متلبسًا به . الثاني : الندم على ما وقع منه من المعصية . والثالث : النية أن لا يعود إلى الذنب أبدًا »[٣] .

وهذه الشروط الثلاثة إنما تجب مجتمعة ، في حال تمكن التائب من الفعل والقدرة عليه ، أما إذا لم يتمكن فلا يتصور عزمه على الفعل ، لعدم تمكنه منه . وكذا شرط الإقلاع لا يتصور إلاّ في حال التلبس بالذنب كما في القولين السابقين .

٢٥ـــ وقد نبه ابن عطية على أنّ توبة العاجز تصح منه ، إذ لا يمكن عوده إلى الذنب مع عجزه عن مقارفته . فبعد أن ذكر شرطين للتوبة قال :

« هذا من المتمكن ، وأما غير المتمكن كالمجبوب[٤] في الزنا ، فالندم وحده يكفيه »[٥] .

٢٦ـــ وزاد هذا المعنى إيضاحًا ، فقال :

« وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه ، مثل أن يتوب من الزنا فيجب بأثر ذلك ونحو

---

(١) قال ابن الأثير : « التضمخ : هو التلطخ بالطيب وغيره » . النهاية (٣/٩٩) .

(٢) الدعاء المأثور وآدابه (٢٧٨) .

(٣) أضواء البيان (٦/٢٠٣) .

(٤) جبه جبًّا وجبابًا : قطعه ، ومنه الحديث : « الإسلام يجبّ ما قبله » ، أي : يمحو ويقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب . ويقال : جبَّ الخصية : استأصلها . انظر المعجم الوسيط (١٠٤) .

والحديث خرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٩٩) ، والحاكم (٣/٢٩٧، ٢٩٨، ٤٥٤) ، والبيهقي في السنن (٩/١٢٣). قال الأرنؤوط : إسناده حسن في المتابعات والشواهد . حاشية المسند (٤/١٩٩) .

(٥) المحرر الوجيز (١٤/٥٢٥) .

ذلك ، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك))[1] .

٢٧ــ ونظيره ما ذكره القرافي بقوله :

((وقد يكون الندم وحده توبة في حق العاجز عن العزم والإقلاع ، كمن كان يعصي بالنظر إلى المحرمات فعمي ، أو بالزنا فجُبَّ ؛ لقوله ﷺ : ((**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**))[2] ، فيجب الندم وحده ، وعليه حمل قوله ﷺ : ((**الندم توبة**))[3] ، أو يحمل على أنّ معظمها الندم كما قال ﷺ : ((**الحج عرفة**))[4]))[5] .

٢٨ــ وقد رجح القاضي عياض ما نقله عن بعض العلماء في بيان شروط التوبة بقوله :

((ذهب بعض مشايخنا إلى أنّ التوبة الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما سلف ، والعزم على ألا يعاوده))[6] .

٢٩ــ ثم قال :

((وهذه الشروط في صحة التوبة – من الندم على الذنب السالف والإقلاع عنه في الحال والمستقبل – ، وهذا إذا لم يتعلق بالذنب تباعة ، فأما إن تعلق به مع ارتكابه حق لله تعالى أو لآدمي فلا بد من شرطين : أحدهما متفق عليه في حق الآدمي ، وهو

---

(١) الذخيرة (١٣/٣٥٦) .

(٢) خرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (١٣/٢٥١) رقم (٧٢٨٨) .

(٣) خرجه ابن أبي شيبة (٩/٣٦١) ، وأحمد (٣٥٦٨) ، وابن ماجه (٤٢٥٢) ، والبغوي في شرح السنة (١٣٠٧) ، والبيهقي في السنن (١٠/١٥٤) . قال الأرنؤوط : وهذا طريق موصول يصح به . انظر كلامه في حاشية الإحسان (٢/٣٧٨) .

(٤) الحديث عند ابن خزيمة (٤/٢٥٧) رقم (٢٨٢٢) في باب ذكر الدليل على أن الحاج إذا لم يدرك عرفة قبل طلوع الفجر يوم النحر فهو فائت الحج غير مدركه ، والحاكم (١/٦٣٥) رقم (١٧٠٣) . قال الأعظمي : إسناده صحيح . انظر تعليقه على ابن خزيمة (٤/٢٥٧) .

(٥) الذخيرة (١٣/٣٥٦) .

(٦) إكمال المعلم (٨/٢٤١) .

رد مظلمته إليه والخروج له عنها ، أو يحلله منها بطيب نفسه . الثاني : المختلف فيه ، وهو ما كان من حق الآدمي فيما لا يصح الإقلاع دونه ، كضربه أو قتله ، أو إفساد ما يلزمه غرمه ، وكذلك في حق الله فيما ضيعه من فرائضه ، فإن الإقلاع عن ذلك توبة صحيحة مستقلة بنفسها »(١) .

فزاد بذلك على الشروط الثلاثة المتعلقة بحق الله ما كان حقا لآدمي تجب مراعاته ، وبهذه تصح التوبة .

٣٠ــ ونقل ابن بطال قول ابن المبارك مقرًّا له في بيان شروط التوبة حيث ذكر من ذلك « الندم على ما مضى ، والعزم على أن لا يعود ، ورد المظالم وتأديتها »(٢) .

٣١ــ وفي موضع آخر صرح بشروط التوبة ، فقال - وهو يتكلم عن الكبائر - :

« فأهل السنة مجمعون على أنه لا بد فيها من التوبة والندم والإقلاع واعتقاد أن لا عودة فيها »(٣) .

فانتظم في قوله هذا شروط التوبة الثلاثة .

٣٢ــ وجعل ابن عبدالبر تحقق شروط التوبة هو معنى التوبة ، وذلك « بأن يترك العمل القبيح بالنية والفعل ، ويعتقد أن لا يعود إليه أبدًا ، ويندم على ما كان منه ، فهذه التوبة النصوح المقبولة إن شاء الله ... »(٤) .

٣٣ــ وأوضح القرطبي أبو عبدالله أنّ الله ﷻ لا يقبل التوبة إلاّ « إذا كانت بشروطها المصححة لها ، وهي أربعة : الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ،

---

(١) إكمال المعلم (٨/٢٤٢) .

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/٨٠) .

(٣) المصدر نفسه (٢/١٥٥) .

(٤) التمهيد (١٥/١٢) ، وانظر (٥/٧٨) .

والعزم على أن لا يعود لمثلها ، وأن يكون ذلك حياءً من الله لا من غيره))[١] .

٣٤ــ وبعد أن نقل أبو العباس القرطبي كلام العلماء في بيان معنى التوبة فمن ((قائل يقول : إنها الندم ، وآخر يقول : إنها العزم على ألا يعود ، وآخر يقول : الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من يجمع بين الأمور الثلاثة . قال : وهو أكملها))[٢] .

فجعلوا تحقق شروط التوبة هي حقيقة التوبة ، وذلك لأن الشرط إذا تحقق تحقق المشروط .

٣٥ــ وفي موضع آخر أكد هذه الشروط فقال :

((فحق التائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه وينوح دائمًا عليه حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه ، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلاّ بلقاء الله تعالى ، فواجب عليه ملازمة الخوف من الله تعالى والرجوع إليه بالندم على ما فعل ، وبالعزم على ألا يعود إليه ، والإقلاع عنه))[٣] .

٣٦ــ وأفاض القرافي في الكلام على التوبة مبيّنًا حكمها ، ومتى تلزم العبد ، وما يترتب عليها ، فقال :

((التوبة واجبة بالإجماع على الفور ، وهي تمحو ما تقدمها من آثام الذنوب المتعلقة بالله تعالى ، لا تسقط حقوق العباد ولا حق الله تعالى الذي ليس بذنب ، كقضاء الصلوات[٤] ونحوها ، فإن ترتب العبادات والحقوق في الذمم هو تكليف تشريف لا إثم وعقوبة ..)) .

٣٧ــ ثم بين شروط التوبة ، فقال :

((الندم على المعصية ، والعزم على عدم العود ، والإقلاع في الوقت الحاضر عما

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٩١) .

(٢) المفهم (٧/٦٩) .

(٣) المفهم (٧/٢٨) .

(٤) وهذا عند من يرى وجوب قضاء الصلاة على من تركها تهاونًا .

تاب عنه »[1] .

٣٨ــ وذكر ابن أبي جمرة نحوًا من قول القرافي في بيان الشروط ، فقال : « الندم ، والإقلاع ، ورد المظالم ، والعزم على أن لا يعود »[2] .

٣٩ــ وبين أنّ هذه الشروط متضمنة لما نص عليه النبي ﷺ في قصة الإفك[3] .

٤٠ــ وقال ابن جزي :

« التوبة واجبة على كل مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وفرائضها ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال ، لا من حيث أضر ببدن أو مال[4] ، والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان ، والعزم ألا يعود إليها أبدًا ، ومهما قضي عليه بالعود أحدث عزمًا مجدّدًا »[5] .

فحصره شروط التوبة في ثلاثة إنما هو في التفريط في حقوق الله تعالى .

٤١ــ وسلك التتائي مسلك ابن جزي في ذكر ثلاثة شروط للتوبة[6] ، ثم فصل القول في اشتراط رد المظالم إلى أهلها موضحًا أنه قول الجمهور[7] .

٤١ــ وأوضح الشاذلي أنّ للتوبة شروطًا ثلاثة :

« الأول : الندم على ما مضى من المعصية لرعاية حق الله تعالى ، فمن ترك

---

(١) الذخيرة (٣٥٥/١٣) .

(٢) بهجة النفوس (٦٦/٣) .

(٣) أخذه من قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة : « إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .

(٤) المقصود بالبدن والمال هنا بدن ومال المذنب نفسه ، أما لو أخذ ببدن أو مال غيره فلا بد أن يندم على ذلك ، وهذا لا يتم الندم لله إلاّ به ، لأن الله حرم ذلك عليه ، فيندم على اقتحامه أمر الله وتجاوز حده في هذا التعدي .

(٥) التسهيل (١٤١/٣) .

(٦) تنوير المقالة (٢٥٩/١-٢٦٠) .

(٧) انظر : تنوير المقالة (٢٦٠/١) .

المعصية من غير ندم لا يكون تائبًا شرعًا ، وكذلك من ندم عليها لكونها أضرت به في بدنه .

الثاني : العزم على ألا يعود في المستقبل .

الثالث : الإقلاع في الحال ، فيرد المظالم إن أمكن وإلا فيرجع إلى الله تعالى بالتضرع والتصدق ليرضي عنه خصمه ... »[١] .

٤٣ــ وبسط العدوي الكلام في حاشيته على قول الشاذلي السابق عن شروط التوبة[٢] .

٤٤ــ ونقل محمّد المختار قول ابن حجر مقرًّا له في بيان معنى التوبة ، فقال :

« التوبة في الشرع : ترك الذنب لقبحه ، والندم على فعله ، والعزم على عدم العود إليه ، ورد المظلمة إن كانت ، أو طلب البراءة من صاحبها »[٣] .

٤٥ــ وأورد محمّد المكي قول العلماء في بيان التوبة النصوح بقوله :

« هي أن يقلع المؤمن عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على ألا يفعل الذنب في المستقبل »[٤] .

وعلى هذا فشروط التوبة المتعلقة بالذنب التي ذكرها المالكية هي هذه الثلاثة ، ومن ذكر زيادة على ذلك فقوله عائد إلى تلك الشروط الثلاثة ، ومن اقتصر على بعضها فقد يشير بما تضمنته إلى ما يدل عليها مجتمعة .

٤٦ــ ولذا فقد ذكر الإمام مالك أنّ المحارب « إذا تاب فأخذه بعض من قطع عليه الطريق في المسجد أو في طريقه أو بيته أو السوق ، فدفعه وأقام عليه البينة ، فإن عرف بالتوبة سقط عنه حد الحرابة ، وبقي عليه حقوق الناس في الدماء والجراح ،

---

(١) انظر : حاشية العدوي (١/٩٩) . ط. دار الفكر .

(٢) انظر : حاشية العدوي ، الموضع السابق .

(٣) نور الحق (٩/٥٢٨) . وانظر فتح الباري (١١/١٣٠) .

(٤) التيسير (٦/٢٦٧) .

ويتبع بالأموال في ماله وذمته))[١] .

٤٧ــ ونظيره ما ذكره ابن نصر من قوله في توبة المحارب :

((إن حقوق الناس قبله[٢] لا تسقط ، لأن التوبة لا تأثير لها في حقوق الآدميين ، ألا ترى أن من غصب شيئًا وأتلفه ثم تاب فإن بدله واجب عليه ؟ كذلك القتل والجراح وغيره ، ولأن التوبة من هذه الأشياء إذا انفردت عن الحرابة لا تسقط حقوق الناس المتعلقة بها ، فكذلك إذا انضمت إليها))[٣] .

فذكرهم لما يرتبط بالتوبة من حقوق الناس وتأكيدهم عليه يدل على ما كان مرتبطًا بالتوبة من حق الله تعالى من باب أولى ، وهو ما أشار إليه الإمام مالك بقوله : ((فإن عرف بالتوبة))[٤] ، إذ التائب حقًّا ما توافرت فيه شروط التوبة الثلاثة المذكورة .

٤٨ــ وذكر ابن أبي زيد شروط التوبة على أنها التوبة ، فقال :

((التوبة فريضة من كل ذنب من غير إصرار ، والإصرار المقام على الذنب واعتقاد العود إليه ، ومن التوبة رد المظالم والنية على ألا يعود))[٥] .

فما ذكره من اشتراط الإقلاع ، وهو ما أشار إليه من عدم الإصرار على الذنب ، وكذا الندم على ألا يعود لا يعني عدم اشتراط الندم ، إذ لا يتصور أن يقلع عن الذنب ويعزم على أن لا يعود وهو غير نادم على فعله واقترافه .

٤٩ــ وبين ابن رشد أن الرجل ((إذا تاب من الذنب فإن ندم عليه ونوى أن لا

---

(١) النوادر والزيادات (١٤/٤٨٥) .

(٢) وذلك لأن توبة المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه الحد ، أما حقوق الناس فلا تسقط .

(٣) المعونة (٢/٣٠٠) .

(٤) سبق ص٢٧٣ .

(٥) الرسالة (١٩٤) .

يعود إليه بنية صحيحة ، ثم لم يعد[1] إليه كان قد تاب توبة نصوحًا))[2] .

٥٠ـــ وأقرّ بذلك المازري[3] .

وما ذكروه من هذين الشرطين - الندم والعزم على عدم العود - ليس معناه إغفال شرط الإقلاع ، وذلك لأن الندم والعزم الصادقين لا يتحققان إلاّ بعد الإقلاع .

٥١ـــ وذكر ابن عطية أن ((التوبة الندم على فارط المعصية ، والعزم على ترك مثلها في المستقبل))[4] .

٥٢ـــ وقال أبو عمرو الداني :

((إن فرضًا على جميع العصاة التوبة إلى الله ﷻ ... من الندم على ما كان منهم ، ورد الظلامات إلى العباد ، وضمان قيمة ما أتلفوه ، والعزم على أدائه))[5] .

ولا ريب أن النادم حقيقة من يقلع عن ذنبه ، ويعزم على أن لا يعود إليه ، وإلا فلا يجدي ندمه .

---

(١) وهذا غير صحيح ، فلو عزم وأقلع في الحال وندم ولكنه بعد مدة رجع للذنب لم يقدح ذلك في توبته لو حقق شروطها فيما بعد ، وقد رد ابن حجر على من اشترط هذا الشرط . انظر الفتح (١٢١/٢٣) .

(٢) البيان والتحصيل (٤٦٨/١٨) .

(٣) انظر المعلم (١٨٨/٣) .

(٤) المحرر الوجيز (٥٢٥/١٤) .

(٥) الرسالة الوافية (٩٢) .

ثانيًا : اشتراط أجل للتوبة

بيّن الله تعالى أنّ للتوبة أجلاً تنتهي إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ... ﴾ الآية[1] .

وقال تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ﴾[2] .

وبهذا يعلم أنّ أجل التوبة ينتهي بحضور الموت ، أو بطلوع الشمس من مغربها ، وقد بين أئمة المالكية هذا المعنى :

٥٣ــ ومن ذلك ما ذكره أبو عمرو الداني عند قوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ بقوله :

((الآية دليل على أنها عليه واجبة قبل المعاينة وحضور الملائكة ... - ثم ذكر حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال : ((**إن الله سبحانه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**))[3] -)) .

٥٤ــ وعند ذكره لأشراط الساعة قال : ((ومنه طلوع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت أغلق باب التوبة ...)) ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها ... ﴾ ، وقوله ﷺ : ((**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا**

---

(١) سورة النساء : ١٨ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٣) خرجه الإمام أحمد في المسند (٤٢٥/٣) ، والحاكم (٢٥٧/٤) . قال الأرناؤوط : إسناد ضعيف لضعف عبدالرحمن البيلماني وبقية رجاله ثقات . وبنحو هذه الرواية خرج الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر برقم (٦١٦٠) بإسناد حسن .

ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا »[1] »[2] .

فذكر أنّ للتوبة أجلين : أجلاً خاصًّا ، وهو ما أوضحه من وجوب التوبة قبل المعاينة وحضور الموت ، وأما الأجل العام فهو ما ذكره من طلوع الشمس من مغربها حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا .

٥٥ــ وأورد ابن عطية حديث : « **إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله** » ، ثم قال :

« لأن الرجاء فيه باق ، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف ، فإذا غلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك »[3] .

٥٦ــ وقال أيضًا :

« ... ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين »[4] .

ثم ذكر الأجل العام عند قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ فقال :

« الآية التي ترفع التوبة معها ، وقد بينت الأحاديث أنها طلوع ا لشمس من مغربها »[5] .

---

(١) خرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ لا ينفع نفسًا إيمانها ﴾ (٢٩٧/٨) برقم (٤٦٣٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١) برقم (١٥٧) .

(٢) الرسالة الوافية (٩٢-٩٣) و(١٣٧-١٣٨) .

(٣) المحرر الوجيز (٥٣٦/٣) .

(٤) نفس المصدر (٥٣٨/٣) .

(٥) قال ابن عطية : « روي في الحديث أنّ الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش تستأذن فيؤذن لها في الطلوع من المشرق ، وحتى إذا أراد الله سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها » . وهو يرويه بالمعنى ، والحديث خرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٢٩٧/٦) رقم (٣١٩٩) ، ونصه : « .. فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ » .

٥٧ــ ونسبه قولاً للجمهور فقال :

« وقال جمهور أهل التأويل : الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب »[١] .

٥٨ــ وعند قول الله ﷻ : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ ذكر القرطبي أنه طلوع الشمس من مغربها ، ثم قال :

« قال العلماء : وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوعها من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس ، وتفتر كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم ، وبطلانها من أبدانهم ، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت »[٢] .

٥٩ــ فذكر أن التوبة لا تنفع من حضره الموت ، كحال فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق ، فلم ينفعه ما أظهره من الإيمان ، لأنها حال زوال التكليف[٣] .

٦٠ــ وقال القاضي عياض عند رواية : « **من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه** »[٤] :

« هذا حد للتوبة جعله الله تعالى ، ولها باب يسدّ عند هذه الآية ، كما جاء في الحديث ، وقد جاء في التفسير أنه معنى قوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع

---

(١) المحرر الوجيز (٥/٤٠٩) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/١٤٥-١٤٦) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٥/٩٣) .

(٤) خرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار (٤/٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٣) .

نفسًا إيمانها ... ﴾[1] »[2] .

٦١ــ وبيّن أنّ التوبة لا تقبل بعد المعاينة ، لقصة أبي طالب حين حضرته الوفاة ، أي قرب حاله وظهرت دلائل موته ، وذلك كله قبل المعاينة ولو كان من بعد المعاينة والحضور الحقيقي لما نفعه ، لقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ الآية ، ويدل على أنه لم يكن يعاين ما جرى من محاورة النبي ﷺ وكفار قريش معه ، ومجاوبتهم بما جاوب[3] .

٦٢ــ وعند قول الله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ قال ابن جزي :

« الآية في الذين يصرون على الذنوب إلى حين لا تقبل التوبة ، وهو معاينة الموت »[4] .

٦٣ــ وذكر عند قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ﴾ أنها « أشراط الساعة[5] ، كطلوع الشمس من مغربها ، فحينئذ لا يقبل إيمان الكافر ولا توبة عاص .. لأن باب التوبة

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٨ .

(٢) إكمال المعلم (١٩٨/٩) .

(٣) انظر : إكمال المعلم (٢٥١/١) .

(٤) التسهيل (٢٤٠/١) .

(٥) وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ... ﴾ بأنها طلوع الشمس من مغربها كما في الصحيحين – وقد سبق – ، وعليه فليس كل الأشراط بل هي محددة بطلوع الشمس من مغربها . وقد أورد ابن كثير أثر عبدالله بن مسعود ﷺ أنه كان يقول : « الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ، ألم تر أنّ الله يقول : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك .. ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها » . انظر تفسير ابن كثير (١٣٤/٣) .

يغلق حينئذ))[1] .

٦٤ــ وبين التتائي في كلامه عن توبة القاتل أنّ ((محل القبول ما لم تحضر أسباب الموت عند الغرغرة وطلوع الشمس من مغربها))[2] .

ولا ريب أنّ هذين الشرطين يعمان في التوبة من القتل وغيره .

٦٥ــ وأوضح ابن عاشور أنّ التوبة لا تقبل عند اقتراب الأجل ، فقال عند آية سورة النساء : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ :

((تنبيه على نفي القبول عن نوع من التوبة ، وهي التي تكون عند اليأس من الحياة ؛ لأن المقصد من العزم ترتب آثاره عليه وصلاح الحال في هذه الدار بالاستقامة الشرعية ، فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة))[3] .

٦٦ــ وعند آية سورة الأنعام : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ... ﴾ ذكر أنّ تفسير هذه الآية جاء في السنة بطلوع الشمس من مغربها ، ثم أورد الحديث ...

٦٧ــ وبين أنه لا تعارض بين هذه الآية وآية سورة النساء : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾ موضحًا الأجل الخاص والأجل العام للتوبة بقوله :

((لأن محمل تلك الآية على تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة للأحوال الخاصة بآحاد الناس ، وذلك ما فسره حديث ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال : ((**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**)) ، ومحمل الآية التي نتكلم فيها تعيين وقت فوات التوبة بالنسبة إلى الناس كافة ، وهي حالة يأس الناس كلهم من البقاء))[4] .

(١) التسهيل (٢/٤٩) .

(٢) تنوير المقالة (١/٢٦٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٤/٢٨٠-٢٨١) .

(٤) التحرير والتنوير (٨/١٩٠-١٩١) .

٦٨ــ ونقل ابن بطال قول المهلب مقرًّا له في أنه « إنما تنفع كلمة التوحيد لمن قالها قبل المعاينة للملائكة التي تقبض الأرواح ، فحينئذ تنفعه شهادة التوحيد ، وهو الذي يدل عليه كتاب الله . قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت ... ﴾ يعني حضور ملك الموت ، وهي المعاينة لقبض روحه ، ولا يراهم أحد إلاّ عند الانتقال من الدنيا إلى دار الآخرة »[1] .

٦٩ــ وقال ابن عبدالبر :

« ... وأما التوبة من الخمر وغيرها من كبائر الذنوب فمبسوطة للمؤمن ما لم تحضره الوفاة ويعاين الموت ويغرغر ، فإذا بلغ هذه الحال فلا توبة له وإن تاب حينئذ ، فتوبته مردودة عليه ، قال الله ﷻ : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ... ﴾ ، يعني المسلمين . ثم قال : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني جماعة الكافرين »[2] .

٧٠ــ ثم قال : « وهذه الآية تفسر قوله ﷻ : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ يريد : قبل حضور الموت على ما وصفنا ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ؛ لأن الله تعالى قد نص عليه في كتابه للمذنبين من المسلمين وللكفار أيضًا » .

٧١ــ وأكّد هذا المعنى - بعد إيراده حديث : « **من أحبّ لقاء الله ...** » وغيره من الآثار - بقوله :

« فهذه آثار كلها قد بان فيها أنّ ذلك عند حضور الموت ومعاينة ما هناك ، وذلك حين لا تقبل توبة التائب إن لم يتب قبل ذلك »[3] .

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/٣٤٤) .
(٢) التمهيد (١٥/١١) .
(٣) التمهيد (١٨/٣٣) .

وبهذا يعلم أنّ المالكية جعلوا معنى التوبة الشرعي هو رجوع العبد إلى ربه تعالى ، بترك ما كان حصل منه من الآثام ، وأن توبته تلك لها شروط حتى تقبل ، منها ما يتعلق بالذنب نفسه ؛ من الندم عليه ، والإقلاع عنه ، والعزم على تركه . فإن كان الذنب متعلقًا بحق آدمي فلا بد من رده أو التحلل منه ، وهذا كله إنما يكون في الوقت الذي حده الله لقبول توبة عباده ما لم يغرغر وتحضره الوفاة ، أو تطلع الشمس من مغربها ، فلا تقبل التوبة حينئذ ، والله أعلم .